

الحب في المنفى

بهاء ظاهر

جائزة أفضل رواية ١٩٩٥

دار الهلال

إبريل ٢٠٠١

الفصل الأول

مؤتمر كغيره

اشتهيتها اشتهاء عاجزا، كخوف الدنس بالمحارم.

كانت صغيرة وجميلة وكنت عجوزا وأبا ومطلقا . لم يطرأ على بالى الحب ، ولم أفعل شيئا لأعبر عن اشتهاى.

لكنها قالت لى، فيما بعد : كان يطل من عينيك.

كنت قاهريا، طردته مدينته للغربة فى الشمال . وكانت هى مثلى ، أجنبية فى ذلك البلد، لكنها أوروبية وبجواز سفرها تعتبر أوروبا كلها مدينتها . ولما التقينا بالمصادفة فى تلك المدينة (ن) التى قيدنى فيها العمل ، صرنا صديقين.

قيدنى العمل ..، أى كذب ! .. لم أكن أعمل شيئا فى الحقيقة . كنت مراسلا لصحيفة فى القاهرة لا يهمها أن أرسلها . ربما يهمها بالذات ألا أرسلها . وفى ساعة الظهيرة فى فسحة الغداء التى تتخلل يوم العمل الطويل لمن يعملون كنا نجلس معا .

نشرب القهوة ، تحدثنى عن نفسها وأحدثها عن نفسى ،

ويقربنا الصمت أكثر عندما نتطلع عبر زجاج المقهى إلى ذلك الجبل المستطيل المتعرج، الرابض على ضفة النهر الأخرى كتساح طويل الذيل.

ولكنى لما بدأت أشتهيها أصبحت ثرثارا . كنت أتحصن وراء جدار الكلمات لكي لا أفتضح، تتدافع كلماتى الفارغة جرارة ومسلية ومتابعة ، مثل شرنقة دودة عراها جنون الغزل فلا تستطيع أن تكف ، لعلى- وكيف الآن أدرى ؟ - كنت عن غير وعى أغزل من خيوط الكلمات

شباكا حولها . وكانت هى تتطلع إلى بعينيها الجميلتين ، تتسع العينان وهى وتبتسم وتسالني : من أين تأتى بكل هذا الكلام ؟ صنعتى أنا أن أتكلم فكيف تفوقت على.

ولكنى فى تلك الظهيرة لم أستطع . تبعثرت خيوط الكلمات وتمزقت . حلت فجوات طويلة من الصمت كنت أنظر خلالها ساهما إلى النهر. وجلست هى منكبدة على فئجان قهوتها الفارغ تديره فى الطبق ، لا أرى سوى هالة شعرها الكثيف وأنفها البارز المستقيم . وكانت ترفع رأسها فجأة ، تنظر إلى حين أسكت وتقول أكمل .. أكمل .. ولكن الكلمات لا تكتمل.

وخارج المقهى سرنا إلى حيث أركن سيارتى .. سأخذها مثل كل يوم حتى باب المكتب الذى تعمل به ، أتركها وأتظاهر أنا أيضا أنى ذاهب إلى عمل . ولما وصلنا إلى السيارة قالت أريد أن نمشى قليلا هل لديك مانع ؟

مشت بجانبى بطيئة على غير عاداتها، ولم نكد نتحرك خطوات حتى توقفت وقالت بصوت حازم : اسمع لا أريد أن أراك بعد اليوم . سامحنى ولكن يحسن ألا نلتقى . أظن أنى أحببتك وأنا لا أريد ذلك . لا أريده بعد كل ما رأيته فى هذه الدنيا .

وكنت أعرف ما رأته فى هذه الدنيا فسكت لحظة وقلت كما تشائين . وراقبتها وهى تتبعد عنى بخطوات مسرعة.

ولكن تلك لم تكن هي البداية.

فى البدء كان كل شىء يختلف . يومها ترددت كثيرا فى الذهاب إلى ذلك المؤتمر الصحفى . كنت أعرف سلفا أن كلاما سيقال لو أرسلته فلن تنشره الصحيفة فى القاهرة ولو نشرته فسوف تختصره وتخففه . تؤخر فقرات وتقدم أخرى بحيث لا يفهم القارىء ما الذى حدث بالضبط ولا ما هى الحكاية . فكرت وأنا فى الطريق أن أذهب إلى المطار . كان ذلك هو يوم وصول الطائرة المصرية إلى المدينة التى كثيرا ما تطؤها أقدم المسؤولين على غير انتظار . ربما يصل أحد الوزراء ويقول تصريحات تسعد رئيس التحرير . يضعها فى الصفحة الأولى ويرضى عنى أخيرا))
الوزير . . . يصرح : اقتصادنا خرج من عنق الزجاجة . الوزير يقول : سنبعث التعاون الأوروبى فى انطلاقة التنمية))

وتحولت السيارة بالفعل إلى طريق المطار . يرتاح رئيس التحرير جدا إلى انطلاقة التنمية هذه . تظهر كل أسبوع فى مقالاته . منذ سنوات طويلة جدا والانطلاقة تقفز عنده من عنق

الزجاجة بلا انقطاع . فلماذا لا أسعد رئيس التحرير إن أمكن .. لماذا أذهب إلى ذلك المؤتمر التعيس فى هذا الصباح الصيفى الجميل ؟ .. هل أنا بالفعل غاوي نكد . كما اعتادت منار أن تقول ؟ بل ولماذا أذهب إلى المطار ؟ .. من قال إن وزيراً سيأتى أو إن رئيس التحرير متلهف على رسالتى ؟ الأفضل أن أسكت تماما . سأعفيه بذلك من الاعتذارات المخرجة : والله يا فلان الرسالة وصلت متأخرة أو طبعناها فعلا ولكن أخبارا من الرئاسة جات فى آخر لحظة وأكلت الصفحة ، أو : هل تعرف ؟ .. أنا أحقق مع الولد إعلان فى القسم الخارجى لأنه لم

يعرض على الرسالة . أحلته إلى التحقيق فعلا إلخ إلخ إلخ .. لماذا أتعب رئيس التحرير وأتعب نفسى؟ لن ينقطع المرتب وهذا هو ما يهم . فلنستمتع بهذا اليوم الجميل.

دخلت بالسيارة فى جانب من الطريق المرتفع الذى يشق غابة فى اتجاه المطار.

تركت الشارع المرصوف وتوغلت فى طريق مدكوك يتخلل الأشجار ثم ركنت فى الظل . كانت الغابة رطبة وهادئة والأوراق الجديدة التى عادت تكسو الأشجار منذ وقت قليل زاهية الخضرة ، تكاد تكون شفافة .. تتجمع فى قبة هشة ناعمة تحركها الريح الخفيفة فتتسرب أشعة الشمس من بين ثقبوها المتناثرة ، موجات صفراء تسبح بسرعة فوق الحشائش ثم تختفى لكى تعود كالمفاجأة . وكانت تلك الموجات المتتابعة تنير فى مرورها الزهور البرية الصغيرة الصفراء والبيضاء تزخرف الأرض فى الصيف .. فى المرة الأولى التى سافرنا فيها إلى الخارج فى رحلة الأسبوع السياحية إلى بلغاريا، بهرتنى تلك الزخرفة المنمنمة فى الأرض مثلما بهرت منار . سأفتنى ونحن فى الغابة . ممنوع أن نقطفها ؟ قالت : لا أظن، فراحت تجمع باقة منها وهى تنسق الألوان ، ولما أنهت نظرت إلى الزهور بيديها وقالت وفى صوتها خيبة أمل : ولكنها كانت جميلة فى الأرض ! وبالفعل كانت الزهور الصغيرة قد ماتت للتو ، طوت وربقاتها فوق قلوبها الدائرية الصفراء وتهدلت سيقانها النحيلة على جانبي يدها . وقلت لها : أعتقد أن هذه الزهور البرية لا تعيش إلا فى الأرض ، ثم أمسكت الباقة الداوية ورميتها بعيدا مستقبيا زهرة واحدة صفراء أكبر من الأخريات ظلت متماسكة ومشرعة الأوراق رشقتها فى شعر منار وأنا أقول كم أنت جميلة هكذا . وكانت بالفعل جميلة بتلك الزهرة فى شعرها الأسود فقبلتها وعدنا نضحك من جديد ، سعيدين كما كنا من قبل ، لأننا لأول مرة نتمشى وسط غابة خضراء لا يحدها البصر. ولكن فى المساء ، ونحن فى الفندق ، كان لابد أن أدفع الثمن . فى أى مكان غريب من عقلها كانت تحتفظ بتلك الأشياء الصغيرة ؟ .. تلك الأشياء التى كنت أنساها فى لحظتها ؟ .. وأية قدرة تلك على توليد المعانى التى لا تخطر على بال ؟ ..توجست ليلتها حين سألتنى شبه مازحة : هل جئت حضرتك إلى أوروبا قبل ذلك من ورائى ؟ ..لكنى جاريت لهجتها وأنا أقول : بالطبع مرات كثيرة فى مهام سرية لماذا تسألين ؟ ..فقالت : كيف عرفت حضرتك أن هذه الزهور لا تعيش إلا فى الأرض ؟ ..لزمت الصمت ولكن ذلك لم

ينفع أيضا . تحولت لهجة المزاح إلى نوع من الاستنكار الخفيف وهي تقول : ثم ما هذه الطريقة التي تتعامل بها مع الناس هنا..

أية طريقة ؟

هذا التهذيب المبالغ فيه مع عمال الفندق والمطعم والمحلات ، ومع الناس عموما، أنت عندك عقدة الخواجة ؟

ولكن هل لاحظت يا منار أنني أتعامل مع الناس في مصر بطريقة مختلفة ؟

مطت شفيتها وأخذت تهز رأسها لليمين واليسار و كأنها تصدر الحكم بعد ترو، وهي تقول : لا، ولكن هنا ألاحظ أن الجرعة أكبر حبتين . أكثر من اللازم . أنك أنها عقدة الخواجة.

هممت أن أرد ولكنى تراجع وتت : ربما يكون الحق معك . سأراجع نفسي . وكنت قد تعلمت من زمن طويل أن أدارى غضباتها الصغيرة الخفية . وكنت كفى كن عادلا. لايد أنها هي أيضا كانت تدارى غضباتك الصغيرة الخفية . لم تكن المشكلة فى تلك الزهور البرية فما هي بالضبط ؟.. هل كان هناك خطأ منذ البداية ؟. ما هو ؟.. كل ما أذكره أنى أحببتها وأنها قالت إنها تحبنى . أقصد لايد أنها أحببتى فعلا فى وقت ما ، والافلم تزوجنا؟.. كنت أفقر واحد بين

المحررين الذين تمنوا الزواج منها لما جاءت لتعمل معنا فى الصحيفة . أسرنى مثل الجميع وجهها البشوش بابتسامتها الدائمة وطريقتها الصريحة فى الكلام معى تحدى مباشرة فى عيني من تحدته . أسرتنى أكثر من غيري واعتدت أن أبذل جهدا كبيرا لكى أكلمها بطريقة عادية مثما أكلم بقية المحررات . أحرص دائما أن أحول نظرى فى اتجاه غير الذى تجلس فيه فى صالة التحرير الواسعة.

وكانت هي التى بدأت تقطع المسافة من مكتبها إلى مكتبى لكى تستشيرنى كزميل أقدم فى موضوع تكتبه أو لكى ألقى نظرة على الموضوع قبل أن تقدمه للمطبعة .

ثم بدأت تحدثني عن مشاكلها في البيت : يلحون عليها أن تتزوج ويعرضونها على الخطاب كما لو كانت سلعة ، لن تتزوج هي أبدا بهذه الطريقة ، ستختار بنفسها. لماذا يكون الاختيار من حق الرجل وحده ؟ .. أخافني كلامها . قلت لنفسى لن تكون صريحة معى إلى هذا الحد لو كنت أنا الذى اختارته . ولكنى حاولت وتقدمت . وقالت لى وهى تضحك ونحن نمشى بيدين متشابكتين فى طريق الكونيش : ماما قالت ألم تجدى غير هذا الصحفى المفلس ؟ تتركين من أجله الضابط والدكتور ! .. وأدهشتنى منار حين قالت بفخر وهى تضغط على يدي معنى هذا أن ماما تحبك وأنها توافق عليك. !

قبل وقت طويل أدركت أن ماما هى الأهم . كانت تشعر بنوع من العار فى حضور أبيها الذى أحببته أنا من أول لحظة لبساطته وطيبته . ولكن منار كانت تخجل حين يجلس معنا ونحن مخطوبان فى غرفة الجلوس بالبيجاما أو بالجلباب ويتحدث بفخر عن إشادة رئيسه فى العمل بالأسلوب الذى كتب به المذكرة اليوم ، أو حين يحكى كيف اشترى بطيخة وهو عائد من المكتب بعد أن أقسم له البائع أنها ((شيليان)) ولكن عندما فتحها فى البيت وجدها بيضاء من غير سوء فنزل من فورده وردها إلى البائع الكذاب ، لأنه لا يترك حقه ولا يسمح لأحد بأن يضحك عليه . كان وجه منار يتضرج عندما يحكى هذه القصص والاحظ نظرة التائب فى عينى أمها دون كلام . ولكن بعد أن تزوجنا لم تكن أمها تبالى بأن تعنفه أمامى . و كانت منار تبكى بالدموع لأنه اعتاد بعد خروجه إلى المعاش أن ينزل إلى الشارع بالجلباب وأن يجلس بالساعات عند الحلاق أو عند البقال أو على دكة البواب . تقول وسط دموعها حرام عليك يا بابا . . سمعتنا يا بابا .. فيعدها وهو يعتذر محرجا ومرتبكا أنه لن يفعل ذلك مرة أخرى.

ولكنه عندما مات فاق حزن منار عليه كل تصور . ظلت تبكيه شهورا طويلة وتناجيه طوال الوقت كأنه جالس بيننا تسأله كيف حاله هناك ؟ لماذا تركها ألا يشناق إليها ؟ وكنت أسأل نفسى إن لم يكن هناك إلى جانب الحزن نوع من تأنيب الضمير ، وأكد ما جاء بعد ذلك ما كنت أشك فيه . بالتدريج بدأت تتحدث عن أبيها

على أنه كان موظفا كبيرا قوي الشخصية يهابه الجميع فى المكتب بسبب حزمه
وشدته فى الحق ، رغم أنه لم يكن يؤذى أحدا وأخذت هى نفسها مع مرور السنين
تقتنع بذلك ، تطالبنى فى بعض الأحيان أن أكون حازما مثل أبيها.
و حين أبعدونى عن العمل ولم يعد هناك الكثير مما يشغلنى ، انتهت فى أول مرة
أطلت فيها جلستى عند الحلاق بعد أن انتهى من قص شعري وأخذت أتبادل معه
الثرثرة دون هدف . شعرت بالخوف وعدت مسرعا إلى البيت ثم جلست إلى المكتب
لأخطط مشروع كتابى . وكانت منار قد بدأت تأخذ صورة أمها بالتدريج. تتهمنى
مثلا أننى أدلل الطفلين ومع ذلك تشعر بالغضب إذا ما حاولت أن أعاقب أحدهما
وتتصدى للدفاع عنه . ظل العقاب حقا مقصورا عليها و يأتى عادة بعد أن نخرج
للنزهة فى يوم الجمعة . اعتادت أن تكتشف باستمرار خطأ ارتكبه أحدهما أو ارتكابه
معا : نوع من قلة الأدب كما كانت تقول ، عقابه أن تحرمهما من المصروف أو من
زيارة الأصدقاء والأقارب . وحين كانت ترانى ألعب الشطرنج مع خالد تتهمنى بأنى
أعطله عن الدراسة ، وإذا حملت هنادى وأخذت ألف بها
.هى تضحك تقول : إن هذه اللعبة هى السبب فى أن بطنها كان يوجعها فى الأسبوع
الماضى . ولما لاحظت أن خالد يحب الشعر وأنى أشجعه على القراءة ، قالت لا
داعى لأن يخيب الولد و هو نابغ فى الرياضة ، ولما . لا ، كفى ! مرة أخرى انتبه
وتوقف . إلى أين تريد أن تصل من ذلك . أنها
سيطرت على الطفلين ؟ .. ليكن ! .. وأين كنت أنت .. لماذا لم تفعل شيئا لتقترب
منهما أكثر ؟ .. ألم تكن طول الوقت خارج البيت فى الصحيفة أوفى الاتحاد
الاشتراكى أو خارج البلد ؟ .. على أى شىء تلومها هنا بالضبط ؟ .. ثم ما حكاية
الحلاق هذه ؟ .. ما علاقتها بالمسألة كلها .. كنت أبحث عن السبب . عن بذرة الخطأ
. خطئى أنا أو خطأها هى لكن ما علاقة هذه الأشياء بالمسألة ..

فجأتى وجهى فى مرآة السيارة متجهما وشاردا فأجفنت . قلت لا . لن أعود إلى ذلك
. ليس فى هذا المكان الجميل ولا فى هذا الصباح المشمس . لن أستسلم اليوم لذلك
الشرود الذى يطفوفيه مشهد مع منار من أى شىء أراه أو طفو دون سبب ثم يسلم

كل مشهد إلى آخر وتمر الساعات على هذا الحال . لا ليس اليوم . إن لم تفلح
السكينة فى هذه الغابة أن تنقذنى من ذلك ، فسيكون أى شيء آخر أفضل من البقاء
هنا.

وأدرت محرك السيارة

حين دخلت قاعة الفندق لم يكن المؤتمر قد بدأ بعد . كانوا قد وضعوا منصبتين
متجاورتين كمنصة وخلفها ثلاثة مقاعد وصفوا فى القاعة حوالى ثلاثين مقعدا وان
لم يكن هناك غير ستة أو سبعة من الصحفيين جلسوا متناثرين وصامتين . ربما
جاؤوا مثلى لأنهم لم يجدوا شيئا آخر يفعلونه . ومن كنت تريده أن يأتي ؟ . . من
يهتم الآن هنا أو فى أى مكان آخر؟.. من يعنيه مؤتمر تعقده لجنة اسمها لجنة
الأطباء الدولية لحقوق الإنسان عن انتهاكات الحقوق فى شيلى... أى شيلى وأى
حقوق ؟ . . انتهى يا صاحبى زمن الارتياح عندما ذبحوا الآلاف فى استاد العاصمة
هناك . انتهى زمن ذرف الدموع على الليندى بعد أن قتله العسكر . قتلوه بعد عبد
الناصر بثلاث سنوات . حاربوا عبد الناصر بقولهم ديكتاتور، فلماذا الليندى الذى
جاءت به الانتخابات ؟ ..الذئب قال للحمل إن لم تكن عكرت الماء لأنك دكتاتور فقد
عكرتها لأنك ديموقراطى . أنت مأكول مأكول على أى حال . ومن يذكر الآن نيرودا
؟. لا أذكر أنى قرأت اسم نيرودا فى صحيفة من بلدى منذ أن قتله الغم بعد أن
انقض العسكر على بلده قبل عشر سنوات . أسكتوه أخيرا لكى لايقنى . لكى لا يقول
: وعلى شواطىء كل البلاد يعلو صوتى

لأنه صوت من صمتوا ولأن كل من لم يعرفوا الغناء فهم بقمى اليوم قد غنوا.
زمان أيام الشباب ، كنت أقرأ أشعار نيرودا فى صحفنا اليومية ، حتى فى الصحيفة
المسائية . أيام كانت الصحف تقول إن انتصار الناس فى أى بلد يعنى الحرية لنا .
أيام بكينا على نكروما وعلى لومومبا . أيام كان راديو القاهرة يعنى لبورسعيد
والجزائر و الملايو وشعوب كالبشائر تنبت الأزهار من قلب المجازر !.. نعم ، لا
أقل من الأزهار من قلب المجازر ! أذكر أيامها صديقا كانت تلمع فى عينيه دموع
حين يقرأ علينا قصيدة ((الأطفال فى بلدى يموتون جوعا

والأسماك فى البحر تشرب القهوة ((. الآن لا يبكى على هذا أحد . لا يبكى أحد لأن سادة دنيانا يغرقون البن فى البحر أو يهشمون جبال البيض . الناس الآن أعقل . العواطف الآن أهدأ . الدموع الآن لا تنزل إلا من إيمان النظر للتلفزيون ، بما فى ذلك دموعك أنت أيها المنافق !.. أنت ولجنة أطباءك الدولية..!

كان فى يدي كتيب أخذته اعتباطا من بين عدة كتيبات موضوعة على منضدة فى مدخل القاعة . رحى أقلب الصفحات . المنصة لاتزال خالية رغم أن موعد المؤتمر قد حل . مرت عيني على سطور فى الصفحة المفتوحة من الكتيب : أمأ طرق التعذيب فى سجون شيلي فهى نفسها التى وصفتها اللجنة فى نشراتها السابقة عن ذلك البلد وعن بلاد أخرى فى أمريكا اللاتينية وبقية القارات وكان أكثرها شيوعا فى شيلي الصدمات الكهربائية على طريقة الشواية . أى وضع أقطاب كهربائية متحركة على جسم الكجنى عليه وهو مقيد إلى سرير حديد ومغطى بالشمع . وتحدث الصدمات بهذه الطريقة ألأما قاسية جدا فى العضلات والإعصاب تستمر أثارها لعدة سنين ، إذ يصاب الشخص بارتباك فى حركة العضلات وبحالات أرق مستمر وكوابيس وتسيطر على المريض حالات غريبة يتصور فيها أنه يسلط بنفسه التيار الكهربائى على جسمه ويعيش محنة التعذيب الأول نفسها وآلامه .. وهناك طريقة الصدمات الكهربائية التى تسمى (الإبرة) وهى....

توقفت عن القراءة حين سمعت حركة فى القاعة ورأيت شخصا طويلا أشيب يتقدم ويجلس على المنصة . أخذ يجول بعينه فى القاعة شبه الخالية بنظرة هادئة لم تشبها أى دهشة لقللة الموجودين . ولما بدأ يتكلم بالانجليزية خمنت من لهجته أنه من ألمانيا أو من إحدى دول الشمال . قال إن اسمه مولر وأنه طبيب ، نهض يعتذر للتأخير فى بدء المؤتمر ولكنه سيذكر لنا السبب بعد قليل . وشرح أن اللجنة التى يمثلها والتى تضم أطباء متطوعين من بلاد مختلفة تهتم بحقوق الإنسان بوجه عام ولكنها تركز بالذات على الجوانب الصحية والطبية . وقال إن اللجنة وجدت فى شيلي حالات خطيرة جدا بين المسجونين السياسيين الذين يبلغون

عدة آلاف . وبدأ يذكر أرقاماً عن حالات المرضى فى السجون وعن التعذيب بالضرب وبالكهرباء وبالحرمان من النوم وبالاغتصاب الجنسى وبوسائل أخرى . وقرأ أسماء بعض الذين ماتوا تحت التعذيب.

بدأنا نوجه له أسئلة عادية تستوضح بعض التفاصيل والأرقام ، ولكن فجأة وقف صحفى أعرفه من أهل البلد ، وكانت صحيفته المسماة ((الوطن)) تهاجم باستمرار اللاجئين من شيلي وغيرها من البلدان وتطالب بإعادتهم إلى بلادهم وطردهم . كانت تنشر مقالات متتابعة عن اللاجئين وتقول إنهم يزعمون البلد وينشرون الجرائم ويلوثون البيئة وأنه يجب إنقاذ الوطن من هذا الخطر ، ووجه كلامه إلى الدكتور مولر بلهجة استفزازية قائلاً : ألا تعتقد برغم كل ما يقال عن شيلي انها أكثر استقراراً من بلاد كثيرة ؟ ألا تعتقد أن عدد من يموتون فى السجون أقل بكثير من عدد من تقتلهم الحروب الأهلية فى البلد المجاورة لشيلي .. ؟

ارتفعت فى القاعة همهمة غاضبة ولم تبال صحفية تجلس فى المقعد الذى أمامى أن تسأل بصوت مسموع : هل وجهتم الدعوة أيضاً إلى جنرالات شيلي لحضور هذا المؤتمر ؟ وعلق آخرون على كلامها ولكن الدكتور مولر نقر بإصبعه مرتين على المنصة وقال لمندوب الوطن بهدوء : سيدى أنا لست سياسياً ومنظمتنا ليست سياسية . نحن أطباء نتحدث عن حالات حققنا فيها بدقة وتأكدنا منها ، ومع ذلك فأنا أذكرك أنه قبل الانقلاب العسكري لم يكن أحد يموت فى شيلي ، لا فى حروب العصابات ولا فى السجون . هكذا يجب أن تقارن إن أردت.

ثم نظر الدكتور مولر إلى ساعته وقال : معذرة . استأجرنا هذه القاعة لساعة واحدة وتأخرنا قليلاً لأن مشكلة صادفتنا فى تقديم الترجمة من الإسبانية لشهادة يهمنى أن تستمعوا إليها . وأشار إلى الصف الأول فنهض رجل وفتاة جلسا إلى جواره وهو يكمل : كان المفروض أن يأتى مترجم محترف ولكنه اعتذر فى اللحظة الأخيرة وتطوعت صديقة هى بريجيت شيفر بتقديم الترجمة وأنا أشكرها.

كانت بريجيت تلبس زيا أزرق من قطعتين كمضيفات الطيران وحول رقبتها إيشارب وردى اللون ، وقالت تخاطبنا وهي تجلس بين مولر والرجل الآخر وتبتسم بشيء من الارتباك : ستسامحوننى إذا أبطأت لأن هذه أول مرة أعمل فيها مترجمة . وكانت كل العيون الصحفية مثبتة عليها لأنها كانت جميلة جدا وقال أحد الصحفيين : سنسامحك بكل سرور . من فضلك خذى كل الوقت . ضحك بقية الصحفيين ولكن الدكتور مولر عاد ينقر بإصبعه قائلا بجدية تكاد تصل إلى التأنيب : كما ذكرت لكم فأن هذه الشهادة تهم منظمتنا بصفة خاصة لأنها تمس أيضا رجال الطب ، ولكنى أفضل أن تستمعوا بأنفسكم . ثم أشار إلى الرجل كي يتكلم .

و لأول مرة تحولت ببصرى من بريجيت إلى الجالس على يمينها . ولم أستطع من مكانى أن أتحقق من وجهه فقد كان يحنى رأسه بشدة حتى اقترب من ذراعيه اللتين كان يشبكهما أمام صدره ولم أر بوضوح غير شعره الأسود الناعم . بدأ يتكلم بصوت خافت ويبدو أن بريجيت طلبت منه أن يرفع صوته فقد كرر كلماته ولكن دون أن يرفع رأسه وبدأت هى بعد كل وقفة فى كلماته تترجم إلى الانجليزية التي يتعامل بها المراسلون الصحفيون فى البلد.

قال إن اسمه بيدرو إيبانيز ، عمره ٣٩ سنة ويعمل سائق تاكسى فى العاصمة سانتياجو . فى بداية السنة كان يقف بعربته فى موقف التاكسيات أمام المحطة الرئيسية منتظرا دوره . رأى شخصا يخرج من المحطة ويده حقيبة يتوجه نحو الموقف وقبل أن يصل إليه تقدم منه سائق لم يره بيدرو من قبل محاولا أن يأخذ الحقيبة وهو يشير إلى سيارة فى الموقف . ولكن الراكب رفض أن يعطيه الحقيبة أو أن يذهب معه ، وتوجه إلى سيارة بيدرو التي كانت أقرب عربة أمامه . وبعد أن تحرك فى اتجاه العنوان الذى أعطاه له الراكب لاحظ أن سيارة تاكسى أخرى تتبعه . رأى فى المرآة السائق نفسه الذى حاول أن يأخذ الحقيبة ورأى معه أشخاصا آخرين ، وانتبه الراكب أيضا وأخذ ينظر للخلف . بدا مرتبكا وبدا أنه يحاول التغلب على خوفه . وخاف بيدرو أيضا والراكب يقول له أسرع .. أسرع

وهو ينقل بصره إلى الخلف وإلى الأمام باستمرار . ثم قال ليبيدرو فجأة اسمع إنهم يريدوننى إنهم من إدارة الأمن الوطنى . فاشتد خوف بيدرو لأنه يعرف ما هي إدارة الأمن الوطنى . فكر أن يوقف السيارة وأن ينزل الراكب ولكنه لم يطمئن لعواقب ذلك ، وحين طلب منه الرجل أن يترك الشارع الرئيسى وأن يدخل فى طريق فرعى سمع كلامه . قال بيدرو إنه ندم بعدها وانها كانت فكرة سيئة-

فقد كان من الصعب على ركاب السيارة المطاردة أن يفعلوا شيئا فى الشارع المزدحم ولكنهم انفردوا بهما فى الطريق الفرعى القليل الحركة . أسرع قدر استطاعته ليهرب منهم ولكن سيارتهم كانت جديدة وسريعة . ولاحظ ذلك فلم يعد يتلفت وراء واضطجع فى مقعده قائلا ليبيدرو بهدوء : اسمع ... أنا اسف لأنى زججت بك فى هذه الحكاية ، لم يعرف بيدرو أبدا مع ذلك ما هي الحكاية . ولكن عندما حاذتهما السيارة فى إحدى إشارات المرور فتح الراكب الباب فجأة من الناحية الأخرى ثم قفز وبدأ يجري فى الشارع . جرى خطوتين فحسب . وقال بيدرو إنه لما بدأ إطلاق الرصاص انزلق فى مقعده ليحتمى ولكنه شعر بالرصاص التى دخلت فى جنبه فى اللحظة نفسها ورأى الراكب وهو يسقط فى الطريق والدم ينفجر من رأسه.

كان بيدرو يحكى بصوت رتيب و بريجيت تترجم بلهجته الرتيبة نفسها وهى تنقل بصرها بينه وبيننا فى القاعة ، ولكنى لاحظت وجهها يتصلب بالتدريج وصوتها يرتفع قليلا بينما كان بيدرو يشير بإصبعه إلى الموضع الذى دخلت فيه الرصاص فى جنبه . واستحثه الدكتور مولر بحركة من سبابته أن يسرع قليلا وهو يشير إلى الساعة فهز بيدرو رأسه كالمعتذر . كان قد نسى خجله وراح يتطلع نحونا ، لاحظت عينيه الواسعتين وتحتهما هالتان سوداوان عريضتان كحاجبين مقلومين . وسألت نفسى إن كان هذا هو الأرق.

وتغيرت لهجة بيدرو منذ اللحظة التى استحثه فيها مولر . أخذت الكلمات تخرج من فمه متدافعة ومنقطعة . وكانت بريجيت تجد صعوبة فى متابعتها وتعتذر لنا أحيانا

وتسترجه بعض ما قال . ولم تعد الحكاية مرتبة . عاد يشرح مشيرا . هذه المرة إلى صدره وقال دخلت الرصاصة فى صدرى .. وأنا بالطبع لم أكن أعرف الراكب .. أسف . أقصد أن الرصاصة دخلت فى جنبى واستقرت فى صدرى كما قالوا فى المستشفى .. فى هذا المكان .. ولكن أنا لم أر هذا الرجل قبل أن يركب التاكسى وأعتقد أنه مات .. لا .. أنا متأكد أنه مات لأننى رأيت

بعينى الدم ورأيت أجزاء من مخه على الرصيف قبل أن أفقد الوعي .. ولما سألتى الضابط فى المستشفى كنت أشعر بعطش شديد هزرت إصبعى هكذا ((لا أعرفه)) فنزع الضابط من ذراعى حقنة الدم الذى كانوا ينقلونه ونزع أنبوب الأوكسجين من أنفى .. قال الضابط سأتركك تموت لأنك صديق كابتيللو لماذا اختارك بالذات من بين سائقى التاكسى؟ . طبعا كان الطبيب واقفا لما حدث ذلك والضابط كان والضابط كان من الأمن الوطنى . وبعد أن انتزع أنبوب الأوكسجين بدأت بالفعل أموت بالفعل أقصد ضاع النفس تماما وكانت هذه أول مرة أسمع فيها اسم كابتيللو .. لم اسمع باسمه ولم يسمع أذى باسمه . . وحين حاولت أن أقول هذا للضابط اندفع دم كثير من فمى وفقدت الوعي مرة أخرى . . ولكن فى اليوم التالى بدأوا استجوابى أيضا حين أفقت . كانوا فى ذلك اليوم ثلاثة من إدارة الأمن الوطنى وسألونى عن اسرتى هل نحن اشتراكيون ؟ هل نحن من حزب الليندى ؟ .. أنا فى الأصل من الريف ولكننا حتى لم نأخذ أرضا عندما وزعوا أراضي الأغنياء على الفلاحين فى الريف ، لا أنا ولا أذى . . لهذا لم يحدث لنا شىء عندما رجع الأغنياء بعد الانقلاب واستردوا أرضهم ، أقصد لم ندخل السجن مع الفلاحين الذين كانوا قد أخذوا الأرض ولكنى لم أستطع أن أقول ذلك . لم أستطع أن أرد .. كنت متعبا جدا .. فمد واحد من الضباط يده وأغلق اسطوانة الأوكسجين وشعرت مرة أخرى بالدم فى حلقى وفى فمى، اسمع غرغرتة فى حلقى ولكنى لا أستطيع أن ألفظه من فمى فجاء الطبيب بجهاز وضعه فى حلقى وبدأ يسحب الدم . . ملاء منه زجاجات كثيرة . قال الطبيب إنه ينصحنى أن أتكلم لكى أعيش ولكنه لم يفتح اسطوانة الأوكسجين . كل ما قاله للضابط هو أننى لابد أن أتكلم . ويسط بيدرو يديه أمامه وقال لنا نحن الصحفيين فى القاعة بصوت مرتفع وعينين متسعيتين : كيف يمكن للإنسان أن يتكلم دون أوكسجين ؟.

ضحك مراسل صحيفة الوطن وتطلع نحوه بقية الصحفيين فى غضب وقال له أحدهم هس ! ولكنه ظل ينظر أمامه دون مبالاة ودون أن يلتفت إلى أحد، وأحس بيدرو أنه ارتكب غلطة غير محددة فزاد ارتباكه وتشتته وعاد يحكى محني الرأس:

أظن هذا فى اليوم الثالث .. لا، فى اليوم الرابع .. عندما جاءوا بأخى فريدى .. وقالوا إنهم اكتشفوا أن فريدى اشتراكى وأنى كذاب .. هل قلت إن أخى طالب فى الجامعة ؟ صرخوا فى وجهى لابد أن تقول كل ما تعرفه عن كابتيللو .. ولكن إذا لم أكن أعرف كابتيللو فماذا يمكن أن أقول عنه ؟ .. يومها أيضا لم أكن أقدر على الحركة . ورأيتهم وأنا راقد على سريري يخلعون ملابس فريدى .. رأيتهم يضعون منشفة كبيرة فى فمه .. وأثفوه من قدميه ومعصميه على سرير معدنى بجوار سريري .. كل ما كنت أستطيع أن أحركه هو عيني .. وصرخت أقول فريدى لا يعرف كابتيللو وأنا لا أعرف كابتيللو .. صرخت ولكن لم يخرج من فمى أى صوت .. ورأيتهم يضعون على جسم فريدى الأشياء الكهربائية .. ووضع الطبيب سماعته على صدر فريدى لحظة ثم هز رأسه للضابط وانسحب .. ولكن الطبيب ظل واقفا لما شغلوا الكهرباء .. وسمعت شهقة فريدى برغم المنشفة التى فى فمه .. ورأيت جسمه العاري يرتفع عاليا ومقوسا ومشودا حتى تحرك معه السرير كله واستطعت لحظتها أن أتكلم فقلت..

ولكننا نحن ، فى المؤتمر ، لم نستطع أن نعرف ما الذى قاله بيدرو إيبانيز لحظتها . فجأة توقفت بريجيت شيفر عن ترجمتها السريعة اللاهثة .. فجأة ظلت تتطلع إلينا وقد اتسعت عيناها واستطال وجهها بينما راحت شفتاها ترتجفان.

وفى البدء لم يلاحظ بيدرو الذى كان يتكلم خافض الرأس واصل الحديث بأسبانيته المتوترة .. ولم أميز من أقواله غير كلمات فريدى .. إدارة الأمن الوطنى .. كابتيللو .. الطبيب .. بينما ظلت بريجيت تحدد فىنا وهى تزم شفتيها . كانتا تنفرجان بالرغم منها فترمهما من جديد . لم تبك ولم يصدر عنها أى صوت.

الفصل الثانى

ماض بعيد .. ماض ميت

وقفت عند مدخل القاعة أقلب فى بقية النشرات . على غلاف واحدة منها كانت هناك صورة لبيدرو إيبانيز وإلى جوارها صورة شاب يشبهه خمنت أنه فريدى . كان مثل بيدرو - واسع الفم غزير الشعر ، يعلو عينيه السوداوين حاجبان كثان ، وكان يلبس قميصا أبيض أزواره مفتوحة عند صدره ويحاول أن يبدو أكبر من سنه بشفتيه المضمومتين فى وقار والنظرة الجادة فى عينيه . ولم أندھش عندما رأيت معظم الصحفيين يخرجون دون أن يلقوا نظرة على هذه النشرات . كانوا ينصرفون مسرعين كأنهم يهربون من المكان كله ومن الحكاية كلها .. أعرف أنه قبل الغداء سنكون جميعا قد فسينا بيدرو وفريدى وشيلى وسيبحث المضطرون إلى إرسال برقيات أو أخبار إلى صحفهم عن موضوعات أخرى . ولكن بينما أقف هناك ربت يد على كتفى وسمعت من يقول :

- كنت أبحث عنك .

التفت وھتفت فى دهشة : إبراهيم !؟

نعم ! هو بعينه إبراهيم المحلاوى بعد كل تلك السنين ، أصبح أكثر نحولا وشاب شعره ، وإن لاحظت أنه ظل وسيما فى كهولته مثلما كان فى شبابه . حاولت أن أبتسم وأنا أمد يدي لأصافحه ، غير أنه فجأة أحاط كتفى بذراعه اليسرى وعانقنى بقوة . وأدهشنى ذلك قليلا .

وشعر ابراهيم بجمودى فابتعد عنى خطوة وهو يقول : مضت سنوات طويلة

منذ التقينا آخر مرة . أليس كذلك ؟

ثم نظر إلى وجهى المرتبك وقال وهو يبتسم : أعرف أنك تحفظ الكثير من

الشعر . ألا تذكر إذن قول أمير الشعراء :

محا الموت أسباب العداوة بيننا ؟ ..

ماتت أشياء كثيرة يا صديقي خلال هذه السنين ولم يعد للعداوة معنى .

قلت بشيء من الخجل : بالطبع بالطبع .. أمازلت تعمل فى بيروت ؟

- نعم ، أنا هنا فى زيارة عمل ، وصلت بالأمس فقط .

- أسف لأننى لم أنتبه إلى وجودك فى المؤتمر وإلا لكنت ..

قال إبراهيم وهو يقبل النشرات ويتصفحها ثم يدس بعضها فى حقيبة جلدية

صغيرة : صدقنى ولا أنا رأيك ولا توقعت وجودك . لا أظن أن صحيفتك تهمها

أخبار شيلى .

ولاحظت أنى مازلت أمسك فى يدى النشرة التى عليها صورة بيدرو فأعدتها

إلى مكانها وأنا أقول : وهل تهم أية صحيفة أخرى ؟ .. سيكون بيدرو إيبانيز

محظوظا لو نشرت أى صحيفة فى العالم حكايته فى خمسة أسطر . أما

صحيفتنا بالذات كما تعلم فإن أهم أخبار العالم فيها لم تعد تتجاوز خمسة

أسطر . نحن تطورنا .

ضحك إبراهيم ضحكة خافتة ونحن نتبعد عن مدخل القاعة وقال : نعم . لا

أنسى أبدا دهشتى عندما رأيت الصحيفة لأول مرة بعد هذا التطوير . كنت فى

بغداد وقتها ووقعت فى يدى نسخة فقرأت عنوانا فى الصفحة الأولى داخل مربع

كبير «عرفة للسبتية ودلال للتموين» . ظللت أضحك فى العنوان لفترة وأنا أظن أن

هناك أخطاء مطبعية ، ولم أفهم إلا بعد أن قرأت الخبر أنه يتحدث عن تنقلات

لبعض الموظفين الكبار أو الصغار الله أعلم . لم أفهم أيضا أن السبتية معناها

الجمرك إلا بالقرائن . هل كنت تتخيل فى أى وقت أن تتطور هكذا صحيفتنا

الثورية ؟

لوحث بيدى قائلا : لا تفتح هذا الباب أرجوك . هل لديك وقت لنشرب القهوة ؟

- بل ولتتغدى أيضا إن لم يكن لديك مانع .

ظلت حرارته تدهشنى رغم ذلك إلى حد ما . ولكنى بذلت جهدا ونحن نسير فى

الطريق وتبادل أخبار من نعرف من الأصدقاء لكى لا يشعر بأى فتور فى حديثى

معه . كنت سعيدا بالفعل لرؤيته رغم أننا لم نكن صديقين حميمين فى أى وقت ،

حتى عندما تزاملنا أول مرة كمحررين في صفحة الأخبار الخارجية أيام الشباب . كان هو ماركسيا متحمسا يقول إننى مثالى وحالم ، وكان رأى فيه أنه متحجر وبعيد عن روح الناس . أيامها كنت أقرأ ساطع الحصرى والقوميين العرب وأعتقد مع عبد الناصر أن دولتنا الكبيرة ستقوم غدا ، وعلقت فوق رأسى بالفعل فى صالة التحرير الكبيرة التى تضمنا تلك العبارة من خطابه الشهير يوم الوحدة مع سوريا «دولة عظمى تحمى ولا تهدد ، تصون ولا تبدد» . كتبها لى خطاط الصحيفة بخط كوفى جميل ووضعتها تحت خريطة الوطن الكبير . وكان إبراهيم يحرص على أن أرى ابتسامته وهو يتطلع إلى تلك اللوحة متظاهرا بالاستغراق فى التأمل فائثور ويبدأ بيننا الجدال والشجار . ولكننى حزنت بالطبع عندما قبضوا عليه بعد ذلك ضمن من اعتقالهم من الشيوعيين فى سنة ٥٩ وكنت أفقده . ثم نما بيننا بعد خروجه من المعتقل وعودته إلى الصحيفة شىء من الود كما يحدث بين زميلين قديمين إلى أن جرى بيننا ما جرى قبل خروجه من مصر . ولما جاءت محنة السبعينات التى أدركتنى ورقيت فى الصحيفة مستشارا لا يستشيريه أحد ، كان هو يعمل فى العراق ، ثم سافر الى سوريا ، إلى أن استقر فى بيروت منذ سنوات لكى يعمل مع صحيفة تصدرها إحدى منظمات المقاومة هناك .

وبينما نسير فى طرقات المدينة الأجنبية التى جمعتنا على غير انتظار كان كل منا يحاول أن يتغلب على ارتباكك . بذلنا محاولة حقيقية لكى نتكلم كصديقين قديمين التقينا بعد فراق طويل ، ولكن فترات الصمت كانت محرجة لأننا لم نكن نريد أن نعود إلى أى حديث حقيقى عن الماضى . وبدأت أحدثه عن معالم المدينة التى كان يزورها لأول مرة . عبرنا ميدانا فسيحا فى طريقنا من الفندق إلى شاطئ النهر . وكانت تحيط بالميدان مبان من الطراز الرومانى الجديد تحدد مداخلها أعمدة سامقة ، ويتوسطه تمثال رجل أصلع يركب حصانا ويشير بسبابته إلى الأفق بطريقة وقورة ، ورحت أشرح لإبراهيم هذا هو المتحف، وهذه إدارة الجامعة . وهذا الفارس قاد معركة لتحرير البلد من الفرنسيين فى القرن التاسع عشر . حاولت أن أتحدث بأقصى ما أستطيع من التفصيل لكى يستمر الحديث .

وكان إبراهيم يتابعنى مغمغما نعم ، نعم ، حقا ؟ ..
ولكن لما لم يعد هناك ما يقال استسلمنا وسرنا صامتين .
أخيرا قلت لابراهيم : معذرة إن كنت قد جعلتك تسير كل هذه المسافة ، فإنا
أحب هذا المقهى وأركن سيارتى دائما بالقرب منه . توقف إبراهيم قليلا عند
مدخل المقهى ثم قال : ولكن معك حق كنت سأندم حقا لو تركت البلد لون أن أرى
هذا المكان ..

ولم أعرف إن كان قد قال هذا الكلام ليجاملنى أم أن المكان أعجبه بالفعل .
أما أنا فكنت أحب بالفعل ذلك المقهى البيضاوى الشكل الداخلى فى النهر كصدفة
ملقاة على اللسان الصخرى . كان يشغل موقعا هادئا من الشاطئ ويقود إليه
مشى طويل ، تزين الزهور المعتنى بها أحواضا ممتدة على جانبيه .
ولم يكن بالمقهى غير قليل من الزيائن فوجدنا مكانا بسهولة عند نافذة مفتوحة ،
تطل عبر النهر العريض على الجبل الذى اكتسى فى ذلك الوقت من السنة بخضرة
غاباته وحدائقه الشاسعة ، وتناثرت وسط أشجاره البيوت البيضاء بسقوفها
القرميذية التى تبرز كأهرامات متدرجة كلما ارتفعت فى الجبل ، إلى أن تصبح
عند القمة مجرد مثلثات حمراء دقيقة وسط الأشجار .

قال إبراهيم بصوت خافت حين جلسنا

- كل هذا السلام والسكينة .

خمنت أن بيروت طرأت على ذهنه فى تلك اللحظة ، ولكنى لم أعلق . تركته
مستغرقا فى تأمل النهر الذى كانت مياهه الرائقة تندفع بسرعة وترفع موجات
فضية متلاحقة تتألق بنور خاطف ، وفى متابعة بجعات بيضاء تسبح فى حركات
دائرية وهى ترفع روعسها الشامخة متطلعة إلى النوافذ فى صمت . ولم يكن البط
بجسمه البنى ورقبته البنفسجية اللامعة يكتفى بالتطلع نحونا وهو يحوم بحركات
قلقة تحت النوافذ ، بل أخذ يحرك مناقيره ، بندايات متعاقبة ، فاستجابت له سيدة
تجلس بالقرب منا وراحت تلقى له بفتات الخبز .

ظل إبراهيم فترة طويلة ينقل بصره بين النهر والجبل ثم قال وكأنه يتابع

تفكيره :

- كم أنت محظوظ لأنك تعيش هنا .

- نعم ، كم أنا محظوظ .

وأحس إبراهيم شيئا فى لهجتى فنظر إلى كالمعتذر وهو يقول :

- أقصد ...

ولم يكمل . وعندما جاء الجرسون سألت إبراهيم إن كان يريد أن يشرب بييرة،

فقال :

- ليس فى الظهيرة ، اتفقنا على القهوة ..

طلبنا القهوة وقتلت وأنا أبتسم: لم أسمع أنك ترفض البييرة فى الظهيرة أو

العصر .

فقال باقتضاب : حكم السن .

ثم أشار إلى رأسى قائلا : وعلى ذكر السن ، كيف حدث أن شعرك ما زال

أسود حتى الآن ؟ كلنا شابت روعسنا فكيف بقيت أنت هكذا؟..

أشرت إلى رأسى أيضا وضحكت ضحكة صغيرة وأنا أقول : توقف نموى .

فضحك إبراهيم بدوره وقال : لو كان التوقف عن النمو ينفع فى منع المشيب

لما ابيض شعرى هذا ولرأيتنى وشعبنا العزيز من المحيط الى الخليج وقد رجعنا

أطفالا مرحين فى المهد . كلنا توقف نمونا .

أشرت إليه بإصبعى منبها : لا يصح أن يصدر هذا الكلام عن شخص متفائل

مثلك .

فهز رأسه وهو يعاود النظر إلى النهر : نعم لا يصح هذا الكلام فى مثل هذا

المكان . فلنحاول أن ننسى . كيف حال أولادك ، ناصر وهنادى ؟

- تقصد خالد وهنادى . خالد فى السنة الثالثة بكلية الهندسة وسيزورنى هنا

قريبا . سيمثل مصر فى مسابقة دولية للشطرنج للشباب فى لندن ، وسيمر على

فى طريقه الى هناك وهنادى فى الاعدادية ، لكنى لم أرها منذ الصيف الماضى .

أكتب لهما ونتكلم كثيرا فى التلفون .

قال إبراهيم محرجا بعض الشيء : نعم أنا بالطبع سمعت بما حدث بينك وبين منار . تجنبت أن أذكر شيئا حتى الآن لكي لا أبعث ذكريات سيئة ولكنني حزنت كثيرا عندما سمعت مسألة الطلاق . كنت أقدركما دائما أنت ومنار رغم اختلافنا في الرأي . كانت تعجبني شجاعتها في الدفاع عن المرأة .

قلت بحماس مبالغ فيه وأنا أبسط يدي : وأنا أيضا أقدرها كثيرا بطبيعة الحال ، وأعتقد أن صفحة المرأة التي تحررها مازالت هي الشيء الوحيد المقروء في صحيفتنا بعد التطوير .

قال ابراهيم بشيء من الحيرة : إذن لماذا ؟ .. كنت تحدثني أحيانا عن بعض الخلافات بينكما وأذكر أنني كنت أدافع عنها دائما وأحملك أنت الخطأ . شيء معين كان يتكرر في هذه المشاجرات واعتدت أن ألومك عليه .. أظن أنك كنت تعترض على قيامها بأعمال إضافية في الصحيفة ؟

- نعم . كنت أعتقد أن الأولاد أحق بأن تقضى معهم وقتا أطول في البيت .

قال وهو يهز رأسه دون اقتناع : ولماذا لم تعتبر أن الأولاد أحق بأن تقضى أنت معهم وقتا أطول في البيت ؟ .. أنت الذي كنت معظم الوقت في الخارج ، إما في الصحيفة أو في الاتحاد الاشتراكي أو في مهامك الصحفية في الداخل أو في الخارج ، لماذا لم يكن من حقها هي أيضا أن تفعل مثلك ؟

قلت لنفسى أه ، لقد بدأنا ! الاتحاد الاشتراكي والصحيفة ، هل هذا الحديث عن منار أم عنك أنت يا إبراهيم ؟ .. تجرني الآن خطوة خطوة لكي تبدأ الحساب ، أليس كذلك؟ ولكنني رددت بشكل ألي :

- ربما تكون على حق . كنت أعتقد أن الأمومة أهم من أى شيء آخر . أهم حتى من الأبوة . ربما أكون قد أخطأت هنا ، ولكن على العموم لم يكن هذا هو السبب .

- ماهو إذن ؟

تنهدت قائلا : منذ سنوات وأنا أسأل نفسي هذا السؤال يا إبراهيم .

قال بلهجة استنكار : تعنى أنك لا تعرف السبب فى طلاقك من منار ؟
هرزت رأسى نغيا وأنا أقول : كانت هناك مشاحنات كثيرة ، تحدث بين كل
زوجين كما تعرف ، ولكنها لم تكن هى السبب الحقيقى .
قطب إبراهيم جبينه وهو يقول بصوت خافت : عادة ما يكون السبب الحقيقى
امرأة أخرى أو رجلا آخر ولكنى لم أسمع شيئا عن ذلك بالنسبة لك ولا لمنار ،
حتى بعد هذه السنين .

ثم سكت لحظة قبل أن يقول : ربما كنتما ..
تردد قليلا فسأته بلهفة أثارت استغرابه : ربما كنا ماذا ؟
فنظر فى عينى مباشرة وهو يقول : ربما كنتما ، أقصد رأى أنك أنت ومنار
كنتما تبحثن عن حب كامل ومستحيل فى هذه الدنيا ، لهذا كنتما تتشاجران
لأتفه خيبة أمل تبعدكما عن هذا الكمال المستحيل .

- ربما -
حولت وجهى نحو النافذة لأوحى بأننى لا أريد متابعة الحوار ، وسألت نفسى
مرة أخرى : هذا أنا ومنار أم أنت يا إبراهيم ؟ .. ألا تتحدث الآن عن نفسك
بالذات ؟ .. وهل كان هذا البحث عن المستحيل هو السبب فى أنك تركت شادية
أيام الشباب وفى أنك لم تتزوج حتى الآن ؟ .. ولكن من أنا لأقول ذلك ؟ .. إن
كنت أجهل نفسى فكيف أحكم على الناس ؟ .. ولكنه يسألنى عن السبب . تقول
رجل آخر وامرأة أخرى ؟ لكم كانت الأمور تصبح سهلة ومفهومة ! تقول بحث عن
الكمال ؟ .. ولكننا عشنا معا سنين طويلة وقبلنا الحياة كما هى . لم نتوقع منها
أن تعطينا ما تعجز عنه . ومع ذلك فإن النهاية فى ذهنى ضباب كامل . ألفغام
تتفجر فى الظلام . مشاجرات تتكرر كل يوم وإهانات متبادلة وصلح مؤقت وعتاب
على ما حدث فى الماضى وتعهيدات للمستقبل قبل أن ينفجر لغم جديد ويرجع كل
شء إلى أوله دون أن نعرف السبب . فكرت كثيرا - لكم فكرت - قلت ربما كان
لذلك كله علاقة بما حدث لى فى العمل . لم تكن تفصلنى غير خطوة عن رئاسة
التحرير ، ثم جاء السادات فضاغ كل شء وأصبحت المستشار الذى لا يستشير

أحد . ولكن منار لم تكن بهذا الضعف لتتخلى عنى لذلك السبب . كانت لها مبادئ . المال لم يكن شيئا مهما فى حياتها منذ البدء . حين تزوجنا لم يكن لدينا شىء واستطعنا بفضل منار أن نجتاز الأيام الصعبة التى لم يكن فيها مرتبى ومرتبها يكفيان لكى نعيش ونربى الأولاد . لم تشك قط ولا تغيرت بعد ذلك حين زاد دخلنا وأصبح يزيد على حاجتنا . لم تكن لها مطالب ، بل كنت أنا الذى أحاول أن أعوضها عن أيام الحرمان الطويل . فكيف إذن لم نستطع أن نتجاوز فترة الفشل بعد أن توقف سعودى فى الصحيفة ، بعد أن أخذت أترجع بسرعة لاقتصر على باب صغير يظهر مرة كل أسبوع فى صفحة داخلية تزحمها الإعلانات ؟ هل كنا نحن أيضا رغم المبادئ والشعارات ، نقدر النجاح (الوصول) مثل كل الآخرين معنا فى الصحيفة وفى خارج الصحيفة ؟ فلتعترف . فلتعترف بأنك وقد ملاكك الهزيمة والغضب أصبحت نافذ الصبر ، مستعدا للشجار لاهون سبب مع منار ومع غير منار . فلم لاتكون هى أيضا قد نقد صبرها وامتلأت بخيبة الأمل ؟ .. وهل تراها أدركت أيضا أن خيبة الأمل هذه تعنى أنها تتخلى عنى بينما أحتاج إليها أكثر من أى وقت ؟ ربما، ففى البدء كانت هى التى تبادر الى الخصام وهى التى تبادر الى الصلح . وأدرك الآن - أدرك بصفاء كامل - أن تشبثى بحلم عبد الناصر أيامها لم يكن مجرد إيمان بالمبدأ الذى عشت مقتنعا به، بل كان أيضا تشبثا بحلمى الشخصى . بأيام النجاح والمجد والوصول . وأفهم الآن أن منار التى جمدوا وضعها فى الصحيفة مثلى وبسببى قد اعتبرت عبد الناصر خصما شخصيا لها . فبعد أن اختزلوا باب المرأة إلى ربيع حجمه تذكرت أنه سبب النكسة والمعتلات وكل تلك الأشياء التى كثر الحديث عنها بعد أن مات . نسيت منار تماما دموعها الغزيرة حين أعلن التنحى بعد الهزيمة وصرختها الملتاعة «هل كانت تنقصنا هذه المصيبة بعد سيناء؟» نسيت فرحتها عندما رجع عن التنحى ونسيت إغماعتها وانهارها الطويل بعد موته . أصبح هجومها على عبد الناصر ودفاعى المستميت عنه حيلة لتنفيس توتراتنا لا أكثر ، وتحول الزعيم إلى مجرد لعبة بيتية قديمة يضرب بها أحدنا الآخر فى المشاجرات

ثم نلقيا جانبا لنعود إليها مرة أخرى بعد حين . وظننت حين ألفت كتابي عن عبد الناصر ونشرته على نفقتي أن ضجة كبيرة ستحدث وأنا سنسترد ، هو وأنا بعضا مما فقدناه . رددت بالوثائق وبالأدلة التي عاصرتها على كل التهم التي وجهت إليه ، ولكن الكتاب صُدر وصدرت معه الأوامر السرية إلى أكشاك الجرائد والمكتبات بإخفائه فلم يره أحد ، حتى من أهديتهم الكتاب من الزملاء والكتاب الذين تصورت أنهم سيهتمون ، لم يعلقوا عليه . لا هجوم على الكتاب ولا تأييد . بل صمت الموت ، والنسخ البائرة التي عادت لتتكس في البيت هي شاهد القبر . وفي تلك الهزيمة الجديدة لم تتعاطف معي منار أبدا كما كانت تفعل من قبل . كانت تشير إلى الكتب المكسدة في الأركان بتأفف وتقول ستجمع لنا التراب والحشرات . ومع ذلك ، فلتعترف أيضا . لم تكن حكاية الكتاب هي السبب ، ولا كانت السياسة هي السبب . ألا تذكر مرة أننا تعاهدنا على ألا نتكلم عن عبد الناصر أو السادات ولا عن أى شيء آخر نختلف عليه ؟ فما الذى حدث ؟ لم تكن هي أو أنا قد أدركنا بعد أن حديث السياسة لا ذنب له في الهوة التي انفتحت بيننا ، وأنا حين كففنا عن ذلك الحديث أصبحت المشاحنات تأتي أيضا سريعة وعنيفة دون أن نعرف لماذا . أكون أنا المخطيء أو تكون هي المخطئة ولكن الخلاف الذى ينشأ من نبتة صغيرة معروفة البذرة سرعان ما يتشعب من تلقاء نفسه . سرعان ما تستدعى إهانات الماضى وتقصيراته وعندما قلت أنا ذات يوم وعندما قالت هي ذات مرة ، وعندما كنت أعدها أيام الخطوبة ونحن نمشى على الكورنيش بأننى .. ثم كلام ثم كلام ثم كلام إلى أن نجد نفسيينا فى النهاية وسط غابة كثيفة من الأقوال تتخبط وسط أغصانها الجارحة وندمى معا دون أن نعرف طريقة للخروج ، ولم يبق حلٌ سوى أن يخرج أحدهنا من الآخر . لماذا ؟ ما السبب ؟ ..

كانت يد تريت على يدي فانتبهت وأنا أقول : لم يكن هذا هو السبب .. !

- السبب فى ماذا ؟

لم أرد . فواصل إبراهيم بصوت خافت : أنا أسف صدقتى لم أكن أعرف أن المسألة ما زالت تؤثر فيك إلى هذا الحد .

قلت بنبرة احتجاج : أية مسألة . أنت مخطيء !
فرد ابراهيم بشيء من الارتباك : منذ مدة وأنت شارد ، كنت أيضا تحرك
شفتيك و ..
ثم لم يكمل . ولكن غضبا كان يغلى فى داخلى على منار وعلى ابراهيم وعلى
العالم كله فقلت :

- اسمع يا إبراهيم ، فلننقق هذا الدم ولنتته منه !
بدت فى وجهه حيرة وهو يقول : عن أى شيء نتكلم ؟
- حكاية وقفك عن العمل ! .. نعم! أنا الذى طلبت ذلك بحكم مسئوليتى !
فقال إبراهيم وهو يواصل الربت على يدي : إنس ذلك . أنا نسيتته، ألم أقل
لك مح الموت أسباب ..

ولكنى أبعدت يده بنوع من العنف قائلا : ولكن أنا لم أنس . سأقول لك
أسرارا لم تعرفها ..

احتقن وجه ابراهيم ولوح بيده نافذ الصبر وهو يقول : أى أسرار تريد أن
تشرحها لى فى سنة ٨٢ عن أشياء حدثت فى سنة ٦٩ ؟ ما أهمية ذلك الآن ؟ قلت
لك إنى نسيت هذه الحكاية ..

- ومع ذلك فيجب أن تعرف أن هذا المقال الذى كتبته عن بيان ٣٠ مارس وقلت
فيه إن الحكومة تتصور أن اليمين يمكن أن يخلص للثورة وأنه ممكن أن ينفذ
الإصلاحات ..

قاطعنى إبراهيم بشيء من التأفف : قلت لك هذه أشياء انتهت ! بيان ٣٠
مارس حقا !! انزل الآن يا صديقى إلى أى شارع فى القاهرة واسأل الناس عن
بيان ٣٠ مارس . إن وجدت فى مصر كلها عشرة أشخاص يذكرون ماهو هذا
البيان فتعال نتحاسب ! .. ثم بدا أنه يبذل مجهودا لكى بيتسم وهو يقول :
ياسيدى أين نحن من تلك الأيام ! أرجع لنا هذا الزمن ثم أوقفنى عن الكتابة كما
تشاء . هل يرضيك أن أقول إننى أخطأت حين كتبت هذا المقال ؟ .. كان معك حق
فى كل ما قلته عن عبد الناصر أيامها وكنت أنا المخطيء ..

ثم تذكر شيئاً فانتسعت ابتسامته وهو يقول : وبالمناسبة هل تعرف لقبك الآن فى القاهرة ؟ وصل إلينا فى بيروت أنهم يسمونك فى مصر منذ كتابك عن عبد الناصر أرملة الفقيد ..

تظاهرت بالابتسام وقلت : نعم ، سمعت اللقب . ولكن أنت على الأقل تعرف أننى كنت أدافع عن عبد الناصر قبل أن يموت ويعد أن مات . لم أغير موقفى وكنت معه عن عقيدة ..

فقال إبراهيم وهو يحول وجهه عنى من جديد . نعم ولكن هذا لم يمنع أبداً أنك كنت فى عهده ترتقى فى الصحيفة كالصاروخ وتساخر فى كل المهام الصحفية للخارج أيام كان السفر للخارج أصعب من السفر للقمر ..

قلت منتفضاً: ماذا ؟ .. هل رقيت إذن لأننى كنت أنافق أو لأنى كنت محسوباً على أحد ؟

- لا أقصد هذا .

- إذن فماذا تقصد ؟ .. كنت أظن أننى صحفى أعرف كيف أكتب .. كنت أظن أيضاً أنى أول صحفى دخل بورسعيد سنة ٥٦ والقنابل تسقط فوقها وأننى لم أكتب عن حرب اليمن من مكتبى ، بل كنت مع الجنود فى الجبال . ولكن هذا كله لا أهمية له الآن بطبيعة الحال ..

رفع إبراهيم يده أمام وجهى وهو يقول : لا أشك فى أنك كنت تكتب عن اقتناع المسألة هى ..

ولكنى لم أكن أسيطر على نفسى . كنت أرعد وأنا أتكلم : قل لى من فضلك ما تعنيه بهذا الكلام . ألم يغير كثير من الصحفيين جلودهم لكى يبقوا فى مناصبهم ؟ .. ألم يتسابقوا على لعن سياسته التى كانوا يسبحون بها لمجرد إرضاء السادات ؟ .. هل فعلت مثلهم أنا ؟

- بالطبع لا . أنا أسف حقيقة . قلت لك لم أقصد أن ..

- لا ، بل تقصد ! ثم ماذا حدث أيام سيطرت أنت وأصدقاؤك على الثقافة فى البلد ؟ .. ألم تفصلونى أيامها من لجنة الثقافة الجماهيرية ؟

- من فعل ذلك من فضلك ؟

- أنتم: الشيوعيون .

- هذه أوهاام !

كنت أعرف أن صوتى قد ارتفع وأن عيوننا ترمقنى فى المقهى ولكنى لم أبال :

- بل هى حقائق . كنت أحب الرجل وما زلت أحبه . أراد أن يغير الحياة فى بلادنا فحاربتموه أنتم وغيركم .

ضرب إبراهيم كفا بكف واحتد أيضا وهو يقول : لا ! هذا يزيد على الحد ! كيف حاربناه نحن وأين حاربناه ؟ فى معتقل الواحات أو فى معتقل القناطر ؟ أو ربما نكون نحن الذين حاربناه فى اليمن وسيناء دون أن أدرى ! .. انظر إلى الأمور كما هى يا صديقى . لم تكن نحن أبدا السبب فيما حدث . بل ها نحن ندافع عنه الآن رغم كل ماجرى لنا ..

- بعد أن ضاعت الفرصة ..

- ومن الذى ضيعها ؟ ولكن قبل أن أرد مد إبراهيم يده فى وجهى بسرعة وقال:

اسمع . هل يمكن أن نوقف هذا النقاش ؟ .. اعتذرت لك وما أنا أعتذر مرة أخرى . سامحنى إن كنت قد جرحتك . أعترف أنى أخطأت .. ثم أخذ يدق على المنضدة بسبابته وهو يقول : كل ذلك ماض . ماض بعيد . ماض ميت . ألا تفهم ؟

لاحظت أمامى فنجانا من القهوة فمددت له يدا مرتعشة وحين أخذت منه رشفة وجدته باردا . ركزت عيني فى النهر ومرت فترة طويلة لم أكن أرى فيها شيئا ولكنى أفقت على حركة فوق السطح الساكن وضجيج . كانت هناك بجعة ترتكز على ذيلها وتشب بجسدها تكنس بجناحيها الأمواج بسرعة مخلفة وراءها خطين متوازيين من الزيد الأبيض . وذعرت بطات رمادية صغيرة كانت تسبح متراسمة خلف أمها فاندفعت نحو الحاجز الصخرى أسفل النافذة وهى تصيح بأصواتها الرفيعة وتهز ذيلها التى لم ينبت فيها الريش بعد . أما البجعة فسكنت أخيرا وراحت تنزلق فوق الماء بجلال وهى تتلفت ببطء نحو اليمين واليسار .

رشفت بقية فنجان القهوة البارد فى جرعة واحدة وقلت أقطع الصمت :

- اسمع يا ابراهيم . أنا أيضا أسف وأرجوك أن تسامحني . لم يكن هناك معنى لما حدث الآن وأنت هنا ضيفي .. لم تقل لي أولا لماذا جئت إلى هذا البلد ؟
- أكتب موضوعا للجريدة التي أعمل فيها و ..
ثم سكت لحظة قبل أن يكمل : وبالمناسبة أشكرك لأنك لم تفعل مثل أصدقائي المصريين الذين يقابلونني في الخارج فيسألونني بلهفة واهتمام كيف الحال في بيروت ؟ .. كأنهم لا يقرعون في الصحف ما يفهم .
- ربما كنت أنا أيضا سأسألك لولا هذا التنبيه ، مع أن شاعرا كبيرا أخبرنا منذ وقت طويل بما يحدث الآن في لبنان ..
قال إبراهيم باستغراب : شاعر ؟
- نعم ، أخبرنا منذ سنين بما يجري الآن حين قال : نحن من بيروت مأساة ولدنا بوجوه وعقول مستعارة ..
تولد الفكرة في السوق بغيا ثم تقضى العمر في لفق البكارة .
كرر ابراهيم : تقضى العمر في لفق البكارة .. ما أصدقها من صورة ! .. كل الأفكار العاهرة تسمى نفسها الآن مبادئ وتزنى بالحقيقة . (ثم رفع إصبعه منبها وهو يقول) ولكن ليس في بيروت وحدها . من هو هذا الشاعر ؟
- خليل حاوي .
قطب حاجبيه قائلا : لا أعرفه . هل هو قريب جورج حاوي ؟
- كيف أدري ؟ .. كل ما أعرفه أنه شاعر وأني أحبه .
وخطر لي أننا في الماضي كنا نعرف رجال السياسة بفضل الشعراء . عرفنا سيف الدولة وكافور بسبب المتنبي .. لا العكس - ولكننا نريد اليوم أن نعرف الشاعر بالسياسي .
نقتل شعراغا بالصمت ونقتلهم بالنسيان . وأردت أن أسأل إبراهيم : إن صح أن الشعراء هم ضمير الأمة ، فما مصير الأمة التي تنسى شعراغا ؟ ..
غير أنني بدلا من ذلك نظرت في ساعتى وقلت :
- ولكن هناك الآن سؤالا مهماً آخر لم نسأله . كيف سناكل ؟ تجاوزت الساعة

الثانية ومعنى هذا أنهم أغلقوا المطبخ هنا وفي كل مطعم آخر في البلد .
هز إبراهيم رأسه قائلا : ولكنك لم تفكر .. أقصد أننا لم نفكر في السؤال
المهم في الوقت المناسب !

طلبنا شطائر خفيفة وأنواعا من الحلوى التى يقدمونها فى ذلك المقهى ووعدت
إبراهيم بأن نعوض ذلك بوجبة دسمة فى العشاء ، ورحنا نتكلم ونحن نأكل عن
زملاتنا فى الصحيفة وعما حدث لهم خلال تلك السنين المليئة بالتقلبات . نتحدث
عمن سعد نجمهم على غير توقع وعمن أبعدها دون إنذار تطبيقا لسياسة السادات
فى الصدمات الكهربائية . وسألنى إبراهيم : ولكن كيف جئت أنت بالذات إلى هذا
البلد ؟

قلت ضاحكا : أظن أن السبب هو مكتبى .

قال إبراهيم فى دهشة : أى مكتب ؟

أشرت بيدي فى حركة دائرية تصور مكانا وأكملت :

- المكتب . الغرفة التى أجلس فيها فى الصحيفة . كان مكتبا كبيرا كما يليق
بناىب رئيس تحرير ، وكان هناك كثير ممن ارتقوا يطعمون فيه ولكنى كنت هناك
كالهم على القلب ولم يعرفوا كيف يطربوننى منه . أظن أن إبعادى كان مقررا من
أول يوم فى انقلاب السادات غير أنهم فوجئوا بأن اسمى لم يكن فى قائمة
التنظيم السرى للاتحاد الاشتراكى ولا فى أية قوائم أخرى . وكنت أيامها عضوا
منتخبا فى مجلس النقابة فتحملونى على مفض . رقونى إلى مستشار للتحرير
لكى لا أفعل شيئا ولكنى ظللت رازحا فى مكانى . ولما فتحوا مكتبا للصحيفة هنا
كان ذلك يناسبنى أيضا .

ولم أقل لإبراهيم أننى رحبت بذلك الإبعاد لكى أهرب من مصر كلها بعد
الطلاق .

ولكن طوال حديثنا عن الصحيفة وعن زملاء العمل كنت أفكر فى شادية فى
ذلك اللغز الذى لم أفهمه أنا ولا غيرى طوال تلك السنوات ، شادية ، الرشيقية
الجميلة ، أجمل زميلاتنا من المحررات أيام بدأنا العمل . أحببت إبراهيم وأحبها

وكنت أقول لنفسى هذا هو الانتخاب الطبيعى لان ابراهيم كان جذاباً ايضا بجسده الرياضى الفارع وعينه البنيتين النفاذتين ، تلفت وسامته النظر على الفور وإن لم يعن بملابسه أبداً على أساس أن الأناقة من قبيل البرجوازية الفارغة ! ظلت شادية وفية له فى سنوات الاعتقال وصدت محاولات كثيرة للتقرب منها ، بل قبلت الاضطهاد الذى اصابها فى الصحيفة باعتبارها صديقة لأحد «أعداء الثورة» كما كان يقال أيامها . ولكن فور خروج ابراهيم من المعتقل انقطعت العلاقة بينهما وتوسطت أنا أيامها مع من توسطوا من الزملاء للصالح غير أننا لم نقلح ولم تعطى هى أو إبراهيم أى تفسير لما حدث . ثم فاجأتنا شادية بأن تزوجت بعد ذلك بقليل من صراف الصحيفة الذى كنا نسميه «عم عبد اللطيف» بسبب وقاره المبالغ فيه ويطء حركاته وإشاراته . وأنجبت شادية طفلها الأول بعد سنة بالضبط ثم أدهشتنا مرة أخرى حين طلبت نقلها من التحرير الى الإدارة وعملت موظفة فى قسم الحسابات . بعدها تلاشت شادية التى نعرفها . تهرلت ولم تعد تهتم بمظهرها بالمرة . كانت تلبس باستمرار فوق فستانها فى الصيف والشتاء شيئاً يشبه المعطف واسع الكمين وبون أزرار ، وهى تربط شعرها بإيشارب وتكرر للزملاء بضحكة سعيدة أنها تفعل ذلك لأن «سى عبد اللطيف» يغار عليها جداً . أراها تنتقل بين المكاتب وهى حامل أو منتفخة البطن كالحامل، تقف فترة على باب كل مكتب تسأل عن أخبار المحررين والموظفين فى الصحيفة وتنقل الأخبار من مكتب الى آخر لأنها كما تقول وسط الضحكة المججلة التى تعلمتها «تموت فى النوم» . ولم أكن أصدق نفسى أن هذه هى شادية . هى نفسها تلك المحررة التى كانت تجلس إلى مكتبها هادئة معظم الوقت ولكنها تشتعل بالانفعال والحماس وهى تتحدث عن حركة للتحرير فى أفريقيا أو عن تطور الهجرة الى اسرائيل أو عن معجزة الاقتصاد فى اليابان . بدا أنها نسيت هذه الأشياء تماماً وظللت أتساءل إن كانت هزيمة فى الحب يمكن أن تفعل ذلك بالإنسان ؟

لم أطرح هذا السؤال أبداً على إبراهيم ولكننا ونحن نجلس الآن فى المقهى فى تلك المدينة الأجنبية نحتسى القهوة صامتين بعد وجبتنا الخفيفة وبعد أن أبدى

رغبته فى أن نبقى فترة أخرى فى ذلك المكان ، لم أستطع أن أمنع نفسى عن ذلك . قلت لإبراهيم وكأنى تذكرت شيئاً : بالمناسبة وما دمت قد سألتنى عن منار فسأسألك أنا أيضاً سؤالاً حيرنى كثيراً ، لماذا انفصلتما أنت وشادية ؟ لماذا تركتها أو لماذا تركتك هى ؟ قال إبراهيم بون أن يحول وجهه عن النافذة : وأنا سأرد عليك كما رددت أنت . أتظن أن معرفة ذلك تفيد الآن بشيء ؟

ثم التفت نحوى مكملاً : ومع ذلك فإن لى صديقاً يقول يجب ألا يخفى الإنسان شيئاً بعد سن الخمسين . لا معنى بعد ذلك للاسرار ولا لاختفاء أى شيء . نعم ، كنت أحبها حقاً ، ولم أحب فى حياتى واحدة مثلما أحببتها . ولما طالت سنوات الاعتقال كتبت لها من السجن أنى أحررها من الارتباط بى . وإلى هنا فلم يكن هناك بأس ، ولكنى .. «بدا على إبراهيم التردد لثوان ولكنه اندفع يكمل» كتبت لها أيضاً أنها إن ارادت انتتظارى فهى حرة فى أن تسلى نفسها بالخروج مع من تشاء من الرجال ..

قلت مبهوتا : لا يقول الرجل شيئاً مثل هذا لامرأة فى بلدنا يا إبراهيم . - ولا فى أى بلد آخر يا صديقى . ولكن هذا هو ما حدث . لو سألتنى الآن لماذا كتبت تلك العبارة المشؤومة فسأرد عليك بأنى لا أعرف . هل كنت أريد بالفعل أن أحررها من الارتباط بشخص لا مستقبل له ؟ ربما . وربما كان هناك سبب آخر ، يتغير الإنسان فى السجن . العواطف المشبوبة فى خارجه تنطفىء داخل أسواره . كانت رسالتها إلى ، على قصرها ، ملتهبة بالحب والشوق ، وكانت السطور التى أكتبها إليها خابية كالرماد ، فاترة كأداء واجب ثقيل . لا بد أنها فهمت بالتدريج أن حبى لها قد مات . كانت شجاعة وأصيلة حين ظلت متمسكة بى كل هذه السنين . ربما راودها الأمل أيضاً فى أن الأمور ستتغير بعد الخروج من السجن لكنها بعد الغفران وبعد الانتظار الطويل رأت شخصاً آخر غير حبيبها القديم . رأت بالفعل كاتب تلك السطور الفاترة . وكان عبد اللطيف هناك . كانت تشعر بحبه المكتوم لها مثلما تشعر بذلك كل امرأة . وكانت تعرف أن الصراف لا يحلم مجرد حلم أن

تبادلته المحررة المهوية حبه . ظلت بالنسبة له معبودة عصية أبعد من النجوم ،
أظن أن هذا العشق العايد هو ماكانت تحتاج إليه وقتها ، هو ما كانت مستعدة
لأن تضحي من أجله بكل شيء ..
لعلها لو انتظرت قليلا ..

ولم يكمل ابراهيم ما كان يفكر فيه .

غمغمت قائلا : نعم ، لماذا ندمر أنفسنا بأيدينا ؟

لم يبد أنه سمعنى ، كان وجهه الآن يكسوه حزن عميق ولكنه هز رأسه وحاول أن
يتكلم بنوع من الاستخفاف وهو يقول : ولماذا تسألنى عن شادية وحدها ؟ ما
حدث معها تكرر مع غيرها . لم أنجح فى الارتباط بأية امرأة . عرفت فى حياتى
بعضا من النساء وحين كنت أعرف فتاة متحررة ومثقفة كنت أجد نفسى لون أن
أدرى أشعر بحنين للسذاجة والبراءة ، وحين التقى بفتاة بسيطة ينتابنى بعد فترة
الضيق وعدم الاقتناع ، أجد أنى أحتاج أيضا إلى عقل أتأاور معه ، وهكذا ..
أظن أنى ضيعت عمري أبحث عن واحدة تجمع بين كل المتناقضات ولم تخلق
بعد ..

- أوريما كان يلزمك شيء من التواضع .

- ريمما ، ولكن الوقت فات على كل حال . فى سننى الآن لم تعد المرأة تشغلنى
كثيرا ، سيكون أفضل من هذا أن نتحدث عن أشياء تفيد فى العمل . سأبقى هنا
أياما قليلة وأمامى عمل يمكن أن تساعدنى فيه .

انحنيت فى اتجاهه وأنا أخفض صوتى : إذن سأحدثك عن أول شيء يفيدك
فى العمل وإن نبعد كثيرا عن الموضوع .. هل ترى هذه الفتاة هناك ، التى تجلس
عند النافذة تقرأ فى كتاب ؟

نظر إبراهيم نحوها وكانت تعبت بخصلة من شعرها الأشقر القصير وهى
منهمكة تماما فى القراءة ، وتبدو مثل طالبة تلبس بنطلونا من (الجينز) وحذاء من
المطاط .

حول إبراهيم عينيه عنها وقال بلا مبالاة : هى صغيرة جدا وقد قلت لك إنى لم

أعد مهتما بالنساء ..

- ولكن صدقنى إنها هى مهتمة بك جدا . لاحظتها تجلس فى صالة الفندق الذى كان فيه المؤتمر بهذا الانهماك نفسه فى القراءة .

- ولكن لماذا ؟ .. ثم استدرك فجأة وهو يضحك : غير معقول ! حتى .. هنا ؟

- وبالذات هنا ! أتظن أنك تأتي مندوبا لصحيفة فلسطينية ، ويسارية أيضا ،

ثم تترك الديمقراطية تغيب عن عينها ؟

قال إبراهيم وهو مستمر فى الضحك : وهل يتابعونك أنت أيضا ؟

- لا ، أنا صحفى من بلد مسالم وودييع .

ألقى إبراهيم على الفتاة نظرة عابرة أخرى ثم هز كتفيه باستهانة وهو يقول :

هذا شيء تعودنا عليه فى كل بلد ، وبما أننى لا أفعل شيئا غير أن أكتب فهو لا

يعنينى . الأفضل أن تحدثنى عن شيء آخر ، ماذا عن البلد والناس هنا مثلا ؟

أردت التهرب لكى لا نختلف مرة أخرى فقلت له إننى لا أعرف كثيرا من

الناس هنا لأنهم لا يحبون الأجانب ولا يختلطون بهم . فرد بيقينه القديم الذى لا

يتزعزع أنت لا تختلط بالشعب . لو عرفت بعض اليساريين مثلا لرأيت صورة

مختلفة من الحياة . ورفض أن يصدقنى حين قلت له إننى لا أرى فرقا هنا بين

يسار ويمين وإنهما عندما يتوليان الحكم يتساويان على الأقل فى استغلال بلاد

عالمنا الفقير ، ويبتزوننا بالديون . كان إبراهيم يهز رأسه مستنكرا ويكرر اننى

أعيش فى أوروبا دون أن أراها ، وانها مازالت رغم كل شيء هى الأمل فى

المستقبل ..

وواصل إبراهيم بانفعال : أنا لا أتكلم حتى عن العلم أو عن الحضارة بل عن

الانسانية ذاتها يا صديقى . قل لى من فضلك كم طبيبا عندنا فى مثل سن

الدكتور مولر أو أصغر منه يتطوعون للدفاع عن المظلومين فى العالم أو حتى فى

بلادهم نفسه ؟ أو كم مهندسا أو كم قانونيا أو صحفيا ؟ .. سأقول لك شيئا .. فى

المستشفيات وفى المخيمات فى بيروت رأيت ممرضات متطوعات من السويد ومن

هولندا ومن انجلترا ومن بلاد أخرى كثيرة فى أوروبا . يعرفن ما الذى ينتظرهن

وسط الحرب الأهلية والقتل المجنون . واحدة منهن لا بد أنك قرأت عنها فقدت أطرافها برصاص الكناشب فى تل الزعتر ، لكن زميلاتها بقين هناك ..

- ولكن لا بد أنه توجد ممرضات عربيات أكثر منهن ...
أطرق إبراهيم برأسه وقال : نعم ، ويوجد أيضا صحفيون عرب مثلى ذهبوا لأنهم يؤمنون أن القضية قضيتهم ، فلا فضل لهم إذن إن ذهبوا .. نحن ذهبنا ندافع عن أنفسنا لاغير ، والبعض منا أيضا موظفون يتقاضون أجرا . ولكنى لا أتكلم عن ذلك ، أنا أتكلم عنمن يتطوع . عنمن يعطى من نفسه للآخرين ، بالفعل لا بالكلام العالى الصوت . أتحدث إن شئت عن الإنسانية التى لا تراها أنت هنا وأراها أنا هناك كل يوم . نعم أعرف من العرب عشرة أطباء متطوعين أو عشرين أو ثلاثين . مائة فدائى أو مائتين أو ألفا . ولكن هل هذه يا صديقى هى العروبة التى عشت تحلم بها ؟ .

زفرت وأنا أقول : عندى من الهموم ما فيه الكفاية يا إبراهيم فأرجوك أن تسكت . إذا سألتنى أين هم العرب فسوف أسألك أنا وأين هم عمال العالم الذين اتحدوا ؟ لا تدعنا نختلف مرة أخرى .

ثم قلت لكى أغير الحديث : ولكن جاعتنى فكرة بعدما قلت ، هى أن نتبادل أماكننا تاتى أنت هنا لتعيش فى أوروبا مع اليسار الذى تحبه وأذهب أنا إلى بيروت ..

فقال مقطبا : ولماذا لم تفعل ذلك من الأصل ؟ .. أنا لا أريد أن أعيش هنا ؟ ولكن لماذا لا تاتى أنت إلى بيروت ؟ ..

- لم تكن أمامى فرصة للاختيار . تعرف أن صحيفتنا ليس لها مكاتب فى أى بلد عربى منذ الصلح . وأنا أحتاج للمرتب لكى أربى الأولاد ، ليس لدى أى دخل آخر .

ولكنى شعرت بأن إبراهيم لا يتابعنى . كان ينظر الى ركن معين فى المقهى وقال :

- إن كنت حقيقة لاتعرف أحدا فى هذا البلد فسأعرفك أنا على أجمل واحدة فيه ..

تابعت اتجاه عينيه فوجدت بريجيت والدكتور مولر يجلسان الى منضدة قرب المدخل .

حولت بصري عنهما قائلا : أنت من المؤكد لا تعنى ما تقول ! .. دعها في حالها يا إبراهيم. يكفى ما جرى لها من تلك الترجمة التعيسة .

فنهض وهو يقول : معذرة إن لم يكن عندي وقت لمثل هذه الحساسية . أنا صحفى لدى عمل هنا وأريد أن أتكلم مع مولر ومع هذه الجميلة ...

عندما كان إبراهيم يتجه إلى حيث تجلس بريجيت ومولر ، تابعته (الطالبة) بعينها نون أن ترفع رأسها من الكتاب . وحولت أنا نظري نحو النافذة . كانت هناك سحب خفيفة تنتشر في السماء تغطي قرص الشمس وإن لم تحجبه ولكن مياه النهر فقدت التماعها وبدا سطحها المتموج بلون الزئبق وهجع البجع والبط قرب الشط ، غمر المكان كله سكون غريب لكنه لم يغمرنى .

أخذت كل الأشياء التي تحاورت فيها مع إبراهيم تتداخل ، لا تفسر شيئا ولا تضىء شيئا ولكنها تتقاطع وتتكاثر وتنتهي الى طرق مسدودة . بعثنا الماضى فإذا كل الألفاظ حية مثلما كانت في الأمس البعيد . هل عرفت مثلا لماذا انفصل هو عن شادية ؟ ليكن أنه قد فعل ما فعل فلماذا لم يشرح لها بعد خروجه من المعتقل أنه لم يكن يقصد إهانتها ؟ .. لماذا لم يشرح لها ولماذا لم تغفر له؟ ولماذا كان يجب أن تدمر نفسها بعد ذلك ؟ أين هو العطب الذى ينهشنا ويسبب الدمار ؟ ولماذا فسدت الأمور بينى وبين منار ؟ أعنى الحقيقة ولا أعنى تلك التفاصيل التي تحدث آلاف المرات كل يوم بين الأزواج ، أذكر جيدا تلك الصحراء من الصمت التي عشت فيها مع منار شهورا وشهورا قبل الطلاق . نتجنب أن نلتقى عيوننا ونهرب أن يجمعنا مكان واحد مع خالد وهنادى . كنا محاريين استسلمنا للعدو لايجرؤ أحدهما أن يرفع عينه في وجه الآخر من الخزى . ولكن من كان العدو ؟ .. ما الذى اكتشفته فى أو الذى اكتشفته أنا فيها ؟ .. أراها الآن فى ليلة بعيدة أبعد حتى من صدور كتابى الميت . كنا مدعويين إلى العشاء عند أحد الأصدقاء .

وقفت أنتظرها وهي تتزين أمام المرأة . بعد أن انتهت تحسست بيديها العقد الذي ينتهي بقلب ذهبي ، وكان هدية قديمة عدت بها مرة من أجد الأسفار . سألت متبرمة أظن أن كل صاحباتي سئمن من رؤيتي بهذا العقد . كل واحدة عندها أطقم من المجوهرات تناسب أزياعها وأنا لاشيء عندي غير هذا العقد . أفليت منى العبارة دون قصد وأنا أزفر : لم ينبج من هذا الانفتاح أحد .. هل تعمدت هي أن تتحدث عن العقد أو هل تعمدت أنا أن أذكر الانفتاح ؟ لا أظن . ولكنها التفتت نحوى فجأة بعينين محتقنتين وقالت بصوت خافت وشفقتين مرتعشتين لا تتكلم عن الانفتاح من فضلك ولا تتخذ هذه المواقف السامية . أنت .. أنت شخصيا أول الانفتاحيين ومن قبل أى انفتاح . لم أكن أنا التي طلبت السيارة المرسيدس ولا هذه الشقة فى جاردن سيتى . كنت قانعة ببيتنا الصغير فى الجزيرة ولم أطلب شيئا . قلت ولكنى كنت أحاول أن أسعدك يا منار أنت والأولاد . تعرفين أنى دفعت كل ما أملك من أجل السيارة والشقة . هل سرقت لكى أفعل هذا ؟ .. تكلمت وجسدها كله ينتفض لا ، لم تسرق . فقط كنت تدخر العملات الصعبة وأنت فى مهامك الصحفية الثورية ثم تعود لكى تغيرها فى السوق السوداء وتشتري وتشتري . قلت لم أفعل سوى ما كان يفعله غيرى ، فصرخت وهى تنزع العقد من رقبتها إذن لا تعطنى دروسا عن الانفتاح ولا عن غيره . لا تعطنى دروسا من فضلك . استبدبى الغضب وأنا أقول لها لم ألاحظ مع ذلك أنك ترفضين شيئا مما أشتريه ، لماذا قبلت السيارة والشقة دون أن أسمع منك كلمة ؟ .. فقالت وهى تلوح بسبابتها فى وجهى مع كل كلمة : أنا لم أطلب شيئا . وأنا لم أقل إنى ثورية . وأنا لم أحك قصصا عن فقرى فى القرية وعن عذاب الفلاحين وعن العدل الذى ستأتى به الثورة .. ثم ازدادت اقترابا منى وهى تقول : وأنا لم أهاجم الانفتاح ! رددت عليها .. بماذا رددت ؟ لا يهم . لا يهم . ولكن هل كان ذلك إنذارا بأنها قد تحررت من شيء ما ؟ .. ربما فبعد ذلك بقليل بدأت منار مشاريعها الخاصة ، بدأت تدخر لحسابها وبدأت تشتري الفضة من خان الخليلى ثم تعيد بيعها عندما ترتفع الأسعار . وقالت لى ذات يوم بطريقة عابرة إنها

اشترت (بيع تاكسى) وكانت تلك أول مرة أعرف فيها أن الانسان يمكن أن يشتري كسور التاكسى . وذلك قبل أن يصبح التاكسى كله ملكها وقبل أن تشتري من النقابة بالتقسيط قطعة من الأراضى التى أعلنوا عنها فى الغردقة وقطعة أخرى فى الهرم .

ولكن مرة أخرى على أى شىء تلومها ؟ لم تبتذل منار نفسها أبداً وهى تفعل ذلك . ألا تذكر أيامها زميلات محترمات كن يبعن فى مكاتب الصحيفة ذاتها الملابس المستوردة والنظارات والأبوات الكهربائية وزملاء محترمين كانوا يعملون بتجارة «الشنطة» بين القاهرة وبيروت؟ على أى شىء تلومها ؟ .. لا ألومها ولكنى أسأل : كيف وصلت الى ذلك وهى التى لم تهتم عمرها كله بالمال ولا بالاعتناء ؟ .. هل كانت تنتقم منى ؟ .. ولماذا ؟ .. أنت الذى قدمت لها المبرر على أية حال . لم تفعل سوى ما كان يفعله غيرها ولم تفعل أنت سوى ما كان يفعله غيرك . كنت أنت أيضا تشتري وتشتري .. لماذا ؟ .. ومتى بدأت الكلمات تصبح مجرد كلمات ؟ الثورة والعروية والاشتراكية والعدل ؟ .. كلمات للمقالات وللنونات ولكنها ليست للحياة ! لم أفعل سوى ما كان يفعله غيرى ! .. أن نقنع الآخرين بكلماتنا .. بالعدل والمساواة والثورة والتضحية، ولكننا نعيش مع ذلك كله فى درجة أرفع . فى رفاهية أكثر لكى يواتينا الإلهام ! لم أر ولم ير غيرى أى تناقض فى ذلك كله . ولكن منار كانت ترقبنى وفى عينيها الإدانة حين التقى بأصحابى ونطق الكلمات الرنانة .. أرايت ؟ .. الانتفاضة ! ١٨ ، ١٩ يناير .. الشعب يتحرك .. النهاية تقترب! أرايت؟ الشاه والسادات فى أسوان ، تصور ؟ .. مصر تريد أن تدفن النفايات الذرية لأوروبا فى الصحراء ! تصور ! كلمات وكلمات وكلمات نقولها ونحن نتحسس ربطات العنق الغالية ونتلف حولنا وكأن الجواسيس يسجلون كل كلمة نقولها . وكأن كل كلمة ستهد الحكم ! .. ماذا لو أننا بالفعل قد عشنا الثورة التى نتكلم عنها ؟ .. لو أننا قد عدنا لقرانا أو لأحيائنا الفقيرة نعيش مع أهلنا دون خطب ودون شعارات ؟ .. هل كان كل شىء سيموت بالفعل؟ .. وماذا فعلنا ليلة زيارة القدس ؟ .. اعتبرنا أننا أدينا كل ما علينا حين اجتمعنا فى المقهى وتناقشنا

وصرخنا وبكىنا . طظ! طظ! ما علاقة هذا حقيقة بالثورة ؟ .. وما فائدة تلك الأفكار الآن ؟ وما علاقة هذا الأفندي الجالس على المقهى المطل على النهر والجبل الأوروبى الأخضر بذلك الطفل الفقير الجائع الذى كان يمشى ساعتين كل يوم بحذاء ممزق ، يمشى فى التراب وفى الطين وفى الحر وفى البرد لكى يذهب الى المدرسة وهو يحلم طول الطريق بالجنة لأن فيها الكثير جدا من الأكل ؟ .. وما معنى أن استمر فى هذه الحياة الكذبة ؟ .. من أكون .. ولم لا أنزل الآن فى جوف النهر . أرقب من قلب الماء بطون ذلك البجع الأبيض الرجراجة وأصلى أن يحملنى التيار بعيدا جدا ، بعيدا عن البجع وعن البط وعن الأشجار والجبال وعن البشر - بعيدا إلى فجوة مدفونة وسط الصخور أندس فيها وأنزوى ثم تغمرنى الطحالب والنباتات والقواقع والأسماك وتخفينى إلى الأبد ؟

لو أنى فقط أتلاشى !

الفصل الثالث

هذا المساء أريد أن أتكلم

ربت ابراهيم على يدي فأجفقت .

قال : ماذا بك ؟

أجبت بون وعي : أنا خائف !

ضحك إبراهيم وقد ظنني أمزح وقال : إذن لا تبقى وحدك. تعال، انضم إلينا .
طلب الدكتور مولر أن أدعوك .

عرفني إبراهيم على مولر وبريجيت بكلمات سريعة وتبادلنا بعض عبارات عن عملي وعن الحياة في تلك المدينة ورأيت فيها . وكنت أحاول التركيز وأنا أجيء ولكن اللغة الانجليزية عصتني مثلما تعصاني عندما أكون شاردا ومتعبا فأثرت الصمت .

اتجه ابراهيم نحو مولر يستأنف حديثاً بدأه من قبل : معي بالطبع مستندات عن حالات محددة يمكن أن أعرضها عليك ..

وبينما كان إبراهيم يفتح حقيبة يده الصغيرة ليخرج بعض الأوراق شرح لي بطريقة عابرة: هذه حالات عن بعض الفلسطينيين واللبنانيين الذين تخطفهم دوريات إسرائيل من جنوب لبنان بمساعدة جيش سعد حداد ...

وعندما أخرج أوراقه راح يصنفها قبل أن يقدمها إلى مولر وهو يقول : بعض هؤلاء المختطفين عذبوا في إسرائيل وبعضهم اختفوا إلى الأبد . رفع مولر عينيه عن الأوراق بعد أن تصفحها وقال وهو يهز رأسه : نعم، هذه حالات تدخل ضمن اختصاصنا ولكن من بعيد . ألا يمكن أن تقدم هذه الأوراق إلى منظمة العفو؟ .. صوتها مسموع أكثر منا ..

رد إبراهيم : نحن قدمناها بالفعل الى منظمة العفو . ولكن شهادتكم كأطباء
عن حالات التعذيب بالذات ..

ولم أعد أتابع الحوار . كنا نجلس إلى منضدة بعيدة عن النافذة فاختمتني عن
عينى النهر ولكنى رحت أتطلع باستغراق إلى السماء وإلى الجبل البعيد.. مالذى
ذكرنى الآن بهذا الطفل؟.. مالذى فتح كل هذه الجروح ؟ أم أنها مفتوحة دائما
وكل مافى الأمر أننى أتلهى عنها فى بعض الأحيان؟.. وماذا عن هذا الجرح
الأخر الذى لاينسى أبدا ولا يفلح أى شىء فى أن يلهينى عنه :إننى أنا أيضا ،
صنعت شقاء لطفلين هما كل عالمى ، أو كانا كل عالمى ؟ .. بم ينفع فى هذا أى
تبرير أيها الهارب؟.. وهل يعذبك هذا حقا كما ينبغى أم أنك مازلت مشغولا
بنفسك قبل كل شىء؟ بطفلك المقهور فى داخلك منذ أكثر من أربعين عاما أو ربما
خمسين عاما؟.. لو أننى فقط أعرف أين هى الغلطة الحقيقية أو متى بدأت؟

مالت بريجيت نحوى وقالت بصوت خافت: فيم تفكر ؟

فقلت دون تدبر - فى أن هذه الحياة كذبة..

تراجعت إلى الخلف وهى تقول بدهشة خفيفة : لم أكن أظن أن هذه هى
المشكلة . كنت.. أظنها حقيقية أكثر من اللازم .

ثم عدنا نلزم الصمت . راحت تدخن وتجيل عينيها بين مولر وإبراهيم
المنهمكين فى الحوار . ولاحظت أن التعبير الذى بدأ فى وجهها فى آخر ذلك
المؤتمر الصحفى مع الفريدى إيبيانيز مازال باقيا فى عينيها الواسعتين . كانت
حدقتها الزرقاوان تتحركان بسرعة وجفناها يختلجان باستمرار وهى تحاول أن
تقلب على هذا بالاستغراق فى التدخين وببسمه ثابتة على شفيتها . واكتشفت
وأنا أنظر إليها عن قرب لأول مرة أن ملامحها كبيرة إلى حد ما . كان أنفها طويلا
وبارزا وفمها واسعا قليلا ولكن كل شىء فى وجهها يبدو مع ذلك متناسقا وجميلا
بجبهتها العريضة وشعرها الذهبى اللامع الكثيف الذى كان مفروقا فى منتصفه
وقد صنعت منه ضفيرة طويلة تلتف فى دائرة مستوية خلف رأسها ويبرز تحتها

عنقها الأبيض العالى. واكتشفت ايضا وأنا اتطلع اليها أن ابتسامتها لم تكن مفتعلة مع ذلك ، بل إن وجهها باسم بطبيعته . وحاولت أن أعرف من أين يأتى هذا الإحساس ولكنى لم أستطع أن أحدد ..

كان مولر يقول لإبراهيم وقتها : لابد أن نرسل لجنة تحقيق. ونحن فى الحقيقة منظمة فقيرة تعمل بتبرعات الأعضاء ومعظمهم عجايز مثلى.. يعنى حتى لو دبرنا الأموال فستكون هناك مشكلة فى أن نجد متطوعين للبعثة .. أعنى متطوعين شبابا قادرين على العمل ..

قال إبراهيم ألا يمكن أن تفعلوا هذا عن طريق التعاون مع منظمة أخرى ؟ وراح إبراهيم يستعرض أسماء منظمات ولجان لها فروع فى لبنان وبدا أنه مصمم على ألا يترك مولر قبل أن يحصل منه على رد: ولم يكن لنا مكان فى هذا الحوار ، فملت على بريجيت وقلت بصوت خافت: فهمت مما قاله مولر فى بداية المؤتمر أن الترجمة ليست مهنتك .

فقربت وجهها منى وقالت وهى تهمس مثلى: لو كانت مهنتى لما أفسدت المؤتمر.

ثم بسطت كفيها كالمعتزة وهى تبتسم .

قلت : ولكن ما فعلته أنت كان هو الشيء الإنسانى الوحيد فى هذا الاجتماع فاخترت الابتسامه وتصلب وجهها إلى حد ما وهى تقول : أبدا . أنا لست أفضل من غيرى . كانت.. كانت مجرد لحظة ضعف ..

قلت مستغريا: ولكن لماذا تعتذرين عن ذلك؟

هزت كتفيها وهى تقول : كل ما فى الأمر أنى لأحب التظاهر ، لا أريد أن تفهم عنى شيئا غير حقيقى . قلت إنك تكره الكذب، أليس كذلك ؟

حاولت أن أغير الموضوع فأشرت إلى زيتها الأزرق وسألتها : هل أنت مضيفة

طيران ؟

لا، ولكنى بالفعل مضيئة من نوع آخر . أنا مرشدة سياحية .
كنت أجاهد لأواصل الحديث بأى طريقة من أجلها ومن أجلى، لكى لا نرجع
مرة أخرى إلى الصمت والشroud، فسألتها : وأنت تحيين هذا العمل ؟ عادت إلى
الابتسام وقالت : لم أختره ولكنه كان العمل الممكن لى كأجنبية فى هذا البلد .
أعرف بالمصادفة عدة لغات .

بحثت عن شىء آخر أقوله ولكنى لم أستطع أن أستمر أكثر من ذلك .
عدت أركن ظهرى الى المقعد صامتة كما كنت ، وظلت لفترة تنتظر نحوى فى
تطلع ثم انسحبت هى أيضا وأشعلت سيجارة جديدة .

قطع مولر حديثه مع إبراهيم والتفت نحوها بشىء من الغضب: يكفى هذا
التدخين يا بريجيت! فمالت ورابت على يده قائلة: لاتغضب يادكتور . أنا لا أدخن
مطلقا أثناء العمل . ثم ضحكت وهى تكمل: أنت تعرف أن التدخين ممنوع فى
الأتوبيس السياحى على الأقل .

ومرة أخرى لاحظت أنها حين تضحك أو تبتسم ، أو حتى بمجرد أن تحرك
شفيتها ، تظهر فى بشرتها خطوط رقيقة متوازية فى ذقنها وعند ركنى عينيها .
وقلت لنفسى ربما كان هذا ما يعطى وجهها تعبيره الباسم باستمرار . وأمعنت
النظر فيها وأنا أتساءل: فمن أين إذن يأتى ذلك التعبير الاخر الذى لا أستطيع أن
أحدده ؟

وكان مولر يكلمها وقتها بالألمانية التى أفهم منها بعض العبارات واستطعت
أن أميز منها قوله : هل هو عقاب ؟ .. ليس هذا حسنا يا بريجيت .

اتجه ابراهيم نحوها وقال بلهجة حميمة كأنه يعرفها من زمن طويل على
طريقة الصحفيين حين يحاولون إغراء الآخرين بالحديث: بريجيت .. أنت ألمانية
أو أسبانية؟

فردت : لا هذه ولا تلك . أنا نمساوية .

قال إبراهيم: ولكن واضح أنك تجيدين الأسبانية تماما. كان بيدرو يتكلم أحيانا بسرعة شديدة وبصوت خافت فى معظم الأحيان لكنك كنت تتابعينه باستمرار. أين تعلمت الأسبانية ؟

- فى الجامعة .

ثم سكنت قليلا وقالت : وهى أيضا لغة زوجى .

خيل إلى أن صوتها تغير قليلا وهى تقول ذلك . وخيل إلى أيضا أنى لاحظت نوعا خفيفا من الدهشة فى وجه إبراهيم حين تكلمت عن زوجها ، ولكنه واصل بلهجته العادية : وزوجك أسبانى أو من أمريكا اللاتينية ؟

رنت فى صوتها نبرة من التحدى لم أعرف سببها وهى تخاطب إبراهيم :

- لا من أسبانيا ولا من أمريكا اللاتينية هو أفريقى من قارتكم. من غينيا الاستوائية .

سألها إبراهيم : وهم يتكلمون الأسبانية هناك ؟

وكنت أعرف أنه يسأل لمجرد أن يقول شيئا، ولكن بريجيت ردت والتوتر يزداد فى صوتها : أنت صحفى، ومن أفريقيا أيضا، ولا تعرف إن كانوا يتكلمون الأسبانية هناك أم لا ؟

ثم تراجعت على الفور وقالت : أنا أسفة . لم أقصد ماقلت. هو بلد صغير على أى حال ولم أقابل كثيرا من الناس يعرفون شيئا عنه.

تدخلت فى الحوار لكى أنقذ إبراهيم الذى احتقن وجهه وقلت : إذن حدثينا أنت عن البلد. أعترف أننى أنا أيضا لا أعرف شيئا عن غينيا الاستوائية . هل ذهبت إلى هناك ؟

قطبت جبينها وبدا عليها التردد لحظة قصيرة، ولكنها تغلبت على ذلك التردد بسرعة واندفعت تقول: كنت أنوى الذهاب ولكننى طلقت قبل أن أذهب .

ثم ضحكت بريجيت ضحكة مرتبكة وحل الصمت من جديد وزاد إحساسى بالتوتر فأردت أن أقوم ولكن إبراهيم قال لحظتها : سمعتك تقولين إنك مرشدة سياحية وهذه أول مرة أזור فيها المدينة فما هى الأشياء التى تنصحين بأن أراها؟

مدت بريجيت يدها إلى حقيبته الموضوعه على المنضدة وأخرجت بطاقة صغيرة قدمتها إلى إبراهيم وهى تقول: يمكنك أن تاتى إلى شركتنا فى هذا العنوان وفى هذه المواعيد المكتوبه فى البطاقة . ويمكنك أيضا أن تحجز بالتليفون، وإذا كنت أنا المرشدة فى الوقت الذى تاتى فيه فسأرشدك باهتمام خاص .

ضحكنا جميعا ضحكة بلا زوح ولكن مولر قال وفى عينيه نظرة ماكرة :

- أظن أن السيد ابراهيم كان يفضل أن ترشديه بدون الشركة . فقال ابراهيم مواصلا تلك الضحكة الفاترة: نعم بدون الشركة وبدون الإرشاد أيضا ..

لكن ابتسامه بريجيت ضاعت فجأة وراحت تنقل بصرها بيننا نحن الثلاثة ثم ركزت عينيها على مولر بنظرة ثابتة وقالت بلهجة حاولت أن تجعلها عادية تماما: أرأيت يامولر ؟ .. ألم أقل لك؟ .. ها نحن نضحك ونمزح وكأن شيئا لم يحدث . لم يعبت أحد بأصابعه فى جروح بيدرو ولم يقتل أحد أخاه فريدى . فما الداعى إذن الى التظاهر ؟

كانت تتطلع إلى مولر وحده وكأنها قد نسيتنا وعاد إلى وجهها ذلك التعبير الآخر الذى لم أستطع أن أحده من قبل . ذلك الجمود الكامل فى ملامحها وعينيها . قناع يسقط على الوجه فيخفيه . أى قناع هو ؟ .. للحزن أم للقسوة ؟ .. لا هذا ولا ذاك . فما هو؟ .. لكنها لحظتها أسندت رأسها بيدها ومالت برقبته لتبعد وجهها عنا . وقلت لنفسى ها هو القناع سيسقط ! ها هى الآن ستبكى !

وتوقع مولر ذلك أيضا على مايبدو فمد يده نحوها قائلا بشيء من الاضطراب:

- بريجيت ! ...

التفتت نحونا بعينين محمرتين الى حد ما ولكن لا أثر فيهما للدموع وقالت
بنبرة التحدى الأولى وهى تخاطب مولر : لا تقلق ...

ثم أشارت نحوى بيدها وأكملت : كل مافى الأمر أننى أردت أن أثبت لهذا
السيد أن من يتعذب يتعذب وحده. لم أتعذب أنا ولم يتعذب أحد ممن حضروا
المؤتمر . لم يتعذب أحد غير بيدرو ...

وراحت تدق على المائدة بإصبعها وتتطلع الى مولر: مهما كانت اللجان الطبية
والمؤتمرات الصحفية يا دكتور ..

سأل مولر بنوع من اليأس: وإذن فهل من رأيك أن نكف عن العمل ؟ فحولت
بريجيت نظرها عنه وهى تقول بصوت خافت : بل كنت أقصد شيئاً آخر..

ثم نظرت نحو ابراهيم ونحوى وقالت : ولكنى لم أقصدكما بالذات. أنا أسفة.
أصبح الجو ثقيلاً ومحيراً فقال إبراهيم وهو ينظر نحوى ويهز رأسه متفاهماً
على أن ننصرف : ولكن لماذا تقولين ذلك ؟.. نحن الذين يجب أن نعتذر حقيقة .

ووضع يديه على مسندى المقعد متأهباً للنهوض وهو يقول : أنا وصديقى كنا
نوشك أن ننصرف على أى حال .

غير أنها مدت يدها نحونا وقالت بنوع من الالاحاح : ولكن يمكنكما البقاء قليلاً
مع ذلك. أقصد إذا سمحتما .

عدنا نستقر فى مكانينا بشيء من الارتباك. غير أن بريجيت التى ألحت علينا
لنبقى تركتنا وأحنت رأسها وعادت إلى الصمت وزحف على وجه مولر توتر لم
أستطع أن أفهمه وهو يراقب بريجيت. بدا لى وهى تتشبث بالمقعد وتشد جسمها
الى أعلى أنها تبذل مجهوداً صعباً لكى تسيطر على نفسها. وقلت لى نفسى وأنا
أنظر إليها لماذا تقاومين البكاء يا بريجيت ؟ لم لا تبكين وتستريحين؟.. لعلك
فقدت مثلى القدرة على البكاء ؟ أنا أعرف أنى فقدتها من زمن ولكن متى ضاعت
منى؟.. ربما كانت آخر مرة بكيت فيها منذ سنين. بعد الطلاق عندما أغلقت على

نفسى باب الحجره التى أجزتها فى الفندق وأمسكت ورقة الطلاق ورحت أقرأ تلك العبارات الغريبة التى قطعت الى الأبد ما بين منار وبينى «أنا مانون حى... حضر السيد... ومعه زوجته ومدخولته .. الثيب الرشيدة .. طلقة أولى بائنة.. ولا يحق له الدخول بها إلا.. رقم ١٠٩٦٠».. لحظتها جاء البكاء من تلقاء نفسه.. جاء عنيفا لا ينقطع .. اختلطت لحظات الشقاء بلحظات الفرح.. قبلاتنا المختلصة أيام الخطبة.. وجهها الشاحب يوم ولدت خالداً وهى ترقد على العربة التى نقلوها بها من غرفة الولادة.. يدها الرخوة تمسك بيدي وتقول بابتسامه ظافرة رغم التعب: كنت أعرف أنك تريد الولد!.. تلوح لى عند باب الخروج وتشب على قدميها وتقول أسرع لا تشتتر شيئاً من السوق الحرة، لا أريد شيئاً اخرج بسرعة.. وجهها الجامد وهى تقول بحسم سأخذ الأولاد. ثم منذ متى كانت تربية الأولاد تهملك ؟ .. كل شىء فى لحظة واحدة وسط الدموع، غير أنى وقتها كنت أبكى على نفسى. كنت أرثى لحالى وأرثى لخالد وهنادى - لا أقصد الآن هذا البكاء. أقصد البكاء على أى بيدرو أو على أى الفريد. أقصد بكاء كيكائى صبيبا على «أم صابر» الشهيدة وعلى جنود البوليس الذين قتلهم الانجليز فى الإسماعيلية .. كالبكاء على جميلة بوحرید حين عذبها الفرنسيون فى الجزائر .. كدموعى على لومومبا يوم قتلوه فى الكونغو ودموع الناس فى الشارع يومها.. أعنى تلك الأشياء التى غابت الآن بعيدا جدا.. التى حدثت منذ قرون وقرون.. أقصد منذ متى فقدت الاحساس ؟ ولكن فلنقل إنى عجوز فماذا عنك أنت يا بريجيت؟... ربما كان الحق معك من يتعذب يتعذب وحده فلماذا نتظاهر ؟

غير أنها الآن تبتسم ابتسامتها العادية وهى تسحب سيجارة جديدة من علبتها وتعتذر : سامحنى يادكتور .

هز الطبيب كتفيه وعادا يتبادلان عبارات قليلة بالألمانية .

ولما انتهيا التفت مولر نحونا وقال بلهجة عاتبة، تكاد تكون لهجة حزينة وهو يشير إليها: هى تعرف أننى أعتبر نفسى مسئولاً عن كل ما يحدث لها فى هذه

المدينة. والدها هو أعز صديق لى. ذهبنا معا أيام الشباب إلى الحرب فى أسبانيا ولم نفترق من وقتها . كان يريد أن تدرس بريجيت القانون مثله ولكنها فضلت أن تدرس الأدب ووسطنتى لكى أقنعه.. ثم التفت نحوها وهو يقول : من يدرى يا بريجيت؟.. ربما لو درست القانون لكنك معنا الآن هناك فى البلد.. ربما كنت قد عملت مع أبيك وربما كنت قد واصلت العمل فى مكتبه بعد أن تقاعد..

قالت بريجيت: ولكنى سعيدة بعملى هنا يادكتور مولر. أفضله ألف مرة على الالتقيب فى كتب القانون وعلى كتابة المذكرات . وأفضل البقاء هنا على العودة الى البلد.

سألها إبراهيم بلهجة تكاد تكون مازحة : ألا تشعرين بالحنين للوطن؟ فردت مبتسمة وهى تشير بيدها بحركة باترة: على الإطلاق!

فالتفت نحوى وقال: وأنت ؟

فرددت عليه بالعربية: أرجوك أن تتركنى فى حالى ياإبراهيم . ليس هذا هو ما ينقصنى الآن.

لم يجادلنى إبراهيم الذى كان قد استرد حيويته فتحول الى مولر قائلاً: عندما اشتركت فى الحرب فى أسبانيا ، كنت مع الجمهوريين، أليس كذلك ؟

هز مولر رأسه بالايجاب فتنهد إبراهيم بارتياح ، نظر نحو الدكتور كأنه يراه للمرة الأولى. وأوشكت أن أراهن نفسى أنه سيسأله عن تلك الحرب التى مضت عليها عشرات السنين وكأنها مازالت تدور. ففى أيام شبابنا كانت تلك الحرب التى لم نعشها والتى لم نعرفها إلا من القراءة تعنى لنا أشياء كثيرة : الحلم بعالم جديد.. عالم متحد ضد الديكتاتورية وضد الظلم.. الحلم الذى انهار وإن بقيت لنا منه الرموز : همنجواى ولمن تدق الاجراس.. ومالرو والامل .. وبيكاسو والجويرنيكا.. وأشعار لوركا.. تلك الرموز التى ألهمت خيالنا فى مطلع الشباب، وقلت لنفسى: ربما سيسأل إبراهيم مولر الآن إن كان قد قابل همنجواى أثناء الحرب ! .. ولكنه فاجأتى حين سأله وهو ينظر نحوى :

- إذن ربما تستطيع أن تعطيني صورة أفضل عن الأوضاع هنا ..
وأشار نحوى وهو يقول : صديقى يدعى أن اليسار مات فى أوروبا وفى العالم فهل هذا صحيح ؟

ضحك مولر ضحكة عابرة وهو يقول : أخشى اننى لا أستطيع أن أفيدك فى هذه المسائل . تركت الاهتمام بالسياسة منذ زمن .

فقال بريجيت : أو لم تجد أن هذا أفضل يادكتور ؟

غير أن ابراهيم لم يهتم بتدخلها وقال بشيء من الاحتجاج : ولكن لماذا ؟ ..
أغلب الظن أنك كنت ماركسيا أيضا عندما ذهبت لتحارب فى أسبانيا .

فهز مولر كتفيه مرة أخرى وبدا أنه يفكر فيما يمكن أن يقوله وخطر لى شيء فقلت لإبراهيم : ربما أستطيع أنا أن أوضح شيئا . أذكر أنني كنت هنا فى أوروبا سنة ٦٨ أيام غزو تشيكوسلوفاكيا ، تابعت أيامها حملات الاستقالات من الاحزاب الشيوعية وكثيرون أيامها كان رأيهم ..

فقاطعتنى ابراهيم قائلا بشيء من الاشمئزاز والغضب : غزو تشيكوسلوفاكيا .. هؤلاء الرفاق الاوروبيون حساسون حقا! كم مات فى هذا الغزو؟ واحد أم عشرة ؟ وهل سمعت عن رأسمالى استقال من الرأسمالية عندما دارت الرشاشات وقتلت آلاف الشيوعيين فى استاد شيلى وشوارعها ؟ .. أو قبل ذلك عندما أصبحت مياه الأنهار فى أندونيسيا حمراء قانية بدماء من ذبحوهم هناك .. غزو تشيكوسلوفاكيا حقا !!

قلت دون انفعال - رأيت ؟ .. ها أنت توافقنى على ما أعنيه . دماء الأمم الفقيرة لا تهم ولو كانت دماء ملايين . أما تشيكوسلوفاكيا فشيء آخر ..

وكنت أتكلم لكى أغير جو الجلسة ولكن مولر هو الذى انفعل لأول مرة حين خاطب ابراهيم وقال مقطبا حاجبيه الأشيبين : لم أشهد غزو تشيكوسلوفاكيا

ياسيدي، ولكنى شهدت غزو المجر قبلها. كنت هناك بالمصادفة وكنت أعمل طبيباً متطوعاً قبل أن تبدأ الأحداث .. رأيت الدبابات ورأيت القتلى - لم يكن الجنود الروس المساكين يعرفون أنهم فى بودابست . كذب عليهم قادتهم وقالوا لهم إنهم يحاربون الغزاة الانجليز فى بورسعيد، فى بلدكم ...

غير أنى لم أتابع الحوار. لم يعد يعينى ذلك كله .. رأيت ابراهيم يفعل ماكان يلومنى عليه منذ قليل. كان يتكلم بحماس كعادته من ربع قرن عن اشيء مضى عليها أكثر من ربع قرن، سمعته يتكلم عن حرب بورسعيد وهو يلوح بيديه وقد أحمر وجهه وكان سفن الانجليز تحاصرها فى تلك اللحظة بالذات. ورأيت الطبيب العجوز لا يقل عنه انفعالا وهو يتكلم عن بودابست ورذاذ خفيف يتناثر من فمه، وسمعت أسماء ناصر وستالين ونهرو وخروشوف وأسماء أخرى كثيرة ، بل وجاء ذكر نكروما فى الحوار وإن لم أعرف السبب..

حولت عيني الى بريجيت . كانت فى البدء تزر عينيهما باهتمام وهى تتابع النقاش ثم بالتدرج انطفأ ذلك الاهتمام واختفت وراء دخان سجائرها المتلاحقة.. كانت بين الحين والآخر تنظر الى مولر وتبدو فى عينيهما هذه النظرة الجامدة التى حيرتني فتنقل عدوى تلك النظرة الى الطبيب المنهمك فى الحوار دون أن تلتقى عيناه بها وأشعر بنوع من التوتر يسرى فى صوته وفى جسمه ، توتر لا يكاد يلحظ ، ولكن بريجيت تشعر به ايضا فتحول وجهها الى ناحية أخرى وكأنما انتابها الندم. ما الذى بينها وبينه؟.. لماذا ترفض تلك الأبوة التى يحاول يأسا أن يفرضها عليها منذ جلسنا معا؟ وما شأنى أنا بذلك؟... ولماذا يعيدنى أنا أيضا هذا الجو الغريب الذى لا أعرف سببه ويزيدنى هما ؟

ولكن مولر انتزعنى فجأة من نفسى وهو يقول: معذرة لهذا السؤال ، وارجوك ألا تسيء فهمى. صديقك يقول لى إنك ناصرى، وأنا رغم كل شىء كنت معجبا بناصر أيام ثورته ، ولكن ألا تظن أن عصر هذه الثورات القومية قد انتهى ؟

ولكن عن أى شيء يتحدث هذا الطبيب الآن؟ ولماذا ينظرون إلى جميعا بهذا الفضول وكأننى سأحل لهم مشكلة تتوقف عليها المصائر؟ .. وما أهمية أن أقول أى شيء فى هذه المدينة الغربية لهذين الغربيين أو لإبراهيم الذى لا يحبنى؟ وما الذى لدى فى الحقيقة لكى أقوله؟ .. يمكن إن أرابوا أن أحدثهم عن منار.. ذلك هو الشيء الوحيد الذى أفكر فيه. لا ، ولا حتى هذا. أى شيء عرفته عن منار بعد كل تلك السنين التى عشناها معا؟ قلت : سامحنى يادكتور ، ولكننى الآن مثلك. تركت الاهتمام بالسياسة منذ زمن ولعلنى فى الواقع لم أعرفها أبدا. كنت متطفلا عليها. توهمت فى وقت من الأوقات أننى أفهم والآن أعرف أننى كنت مخطئا .

قال ابراهيم والغضب يستبد به : وتلك النظريات التى كنت تجادلنى بها ساعات طويلة ونحن فى صالة التحرير؟ .. وساطع الحصرى والقومية التى تحرك التاريخ وكل تلك الأفكار ؟ .. وقولك لى مرات ومرات إنهم بنوا قوتهم فى الغرب بفضل الدولة القومية وانهم يحاربون الآن وحدتنا لكى لا نصبح أقياء مثلهم؟ .. لماذا لا تقول ذلك كله بدلا من أن تغمغم بعبارة «لا أفهم .. لا أعرف .. كنت مخطئا؟ ..» لماذا تتلذذ الآن بإهانة نفسك؟ .. أم أنك تدارى وراء تلك الإهانة نوعا من الترفع كعادتك ؟ أم أن هذا صحيح وأنت تعتبر نفسك ميتا بالفعل؟ .. وإن كان هذا صحيحا فلماذا لا تقوم وتلقى بنفسك فى هذا النهر؟ ..

قال مولر بمزيج من الدهشة والذعر: لا داعى لكل هذا العنف ياسيد ابراهيم ربما كان صديقك لا يشعر بالرغبة فى أن يتكلم فما الداعى الى هذا العنف؟ ..

قلت للطبيب : لا تهتم . تعودنا على هذه الطريقة فى النقاش من زمن طويل. ثم التفت مخاطبا ابراهيم: لا شيء مما قلته صحيح. كل مافى الأمر أننى اكتشفت اليوم شيئا مهما جدا. ربما بفضل بيدرو ايبانيز أو ربما كنت أنت السبب أو لعلها بريجيت أو لعلها منار : اكتشفت أننى أكذب .

قال ابراهيم نافذ الصبر : عدنا مرة أخرى لهذه النغمة !

ولكنى لم أعد أشعر بالغضب من ابراهيم ولم يستطع أن يستفزنى . كنت بالفعل بعيدا عن الحوار وبعيدا عن الغضب وبعيدا عن المكان كله وحل بى

الاجهاد فجأة فوقفت قائلاً لإبراهيم : أنا متعب قليلا ويجب أن أنصرف الآن. هل تريد أن أوصلك الى مكان ؟

فرد ابراهيم بشيء من الارتباك : لا، أنا أعرف الطريق الى الفندق، ولكن أنت.. هل تنصرف الآن لأنى أغضبتك ؟ .. أرجوك ألا تفهم أنى.. فقلت محاولا الابتسام: بالطبع لا . سأمر على فندقك غدا كما اتفقنا وسواصل هذا النقاش . غدا ساكون جاهزا لك !

وبينما كنت اصافح ابراهيم نهضت بريجيت فجأة وقالت بحسم : خذنى معك. انحنى تلتقط حقيبتها ولوحت لابراهيم بيدها ثم طبعت قبلة سريعة على جبين مولر.

كانت بريجيت تجلس الى جوارى فى السيارة واكتفتت بمتابعة ارشاداتها لكى نصل من أقصر الطرق الى بيتها. سألتنى ونحن نخرج من المقهى عن طريقى ولما قلت إنى ذاهب الى البيت طلبت أن أصحابها الى أقرب محطة أتوبيس أو تاكسى ، ثم لم تمنع كثيرا حين عرضت أن أوصلها الى المكان الذى تريده. كنت أنظر بين الحين والآخر الى وجهها فى مرآة السيارة وأرى ذلك القناع ، ذلك الانسحاب الكامل الى الداخل فأوشك أن أقول شيئا . أوشك أن أقول ياابنتى مازالت الدنيا كلها أمامك فلا تتركى نفسك لتصبحى مثلى ! عودى الى زوجك إن كنت تحبينه وإن كان هذا هو سبب كل الهم الذى يطفو على وجهك . ولكنى كنت أتراجع وأقول أنا بالكاد أعرفها . لا يحق لى أن أقتحم صمتها . ولما أوقفت السيارة اخيرا أمام العمارة التى تسكنها فى حى هادىء فى طرف البلد عرضت بريجيت على أن أضعدها معها لكى أشرب شيئا . قلت لها إننى متعب وأريد أن أذهب الى البيت لأرتاح. ولم أكن أكذب لكنها وضعت يدها على كفى الممسكة بعجلة القيادة وقالت وهى تبتسم : إذن تعال. سأصنع لك قهوة قوية تزيل هذا التعب. تعال إذا سمحت . وأنارت بسمتها المفاجئة وجهها .

كانت تسبقنى فى مدخل العمارة الذى تحف به المرايا على الجانبين وهى تمشى بخطوات سريعة فأراها خمس أو ست مرات على اليمين وعلى اليسار بزيتها الأزرق ، طويلة منتصبة القامة ، وأرائى خلفها بخطوتى البطيئة وثوبى الداكن نقيضين كاملين. وقلت لنفسى هازناً الربيع والخريف . النهار والليل. تعال يا ابراهيم هانذا اتلذذ بإهانة نفسى !

كانت شقتها فى الدور العاشر ، شقة من غرفة واحدة واسعة أو تبدو كما لو كانت واسعة لأن الاشياء القليلة المتناثرة فى جوانبها تترك وسطها كله خاليا . بعد المدخل كانت هناك (كنبه) ، كبيرة الى اليسار خمنت أنها تحولها سريرا فى الليل والى جوارها مقعدان صغيران يحيطان بمائدة صغيرة من الخيزران عليها مفرش صغير منقوش بورود صفراء وحمراء ، وفى نهاية الغرفة كان هناك ساتر اسود تغطيه صورة فتاة تلبس كيمونو ابيض بحواف مذهبه وتخفى نصف وجهها بمروحة وردية. ومن السقف كانت تتدلى كرة ورقية بيضاء تحتضن مصباحا وحيدا كبيرا . تركنتى بريجيت ودخلت وراء الساتر، الذى يخفى وراءه المطبخ والحمام. سمعت صوت الماء من صنوبر وقالت لى من هناك بصوت مرتفع قليلا : دقيقة وساكون معك، اعتبر نفسك فى بيتك وخذ راحتك ...

تجولت فى الغرفة شبه الخالية ، ووجدت فى ركن بجوار الشرفة الواسعة رفا صغيرا عليه مسجل للموسيقى وبعض الأشرطة لأغان خفيفة ، والى جوار تلك الأشرطة كان هناك عدد من الكتب . قرأت العناوين وكانت معظمها روايات بوليسية بالألمانية والانجليزية أغلفتها مهترئة وعلى واحد منها صورة فتاة مذبوحة جاحظة العينين وعلى غلاف آخر صورة رجل بيده مسدس يخرج دخانا ويختفى وجهه تحت قبعة . ولكنى وجدت ايضا وسط هذه الكتب ديوان شعر بالألمانية لهائنى ومجلدا يضم اشعار لوركا بالاسبانية . وجاء من رائى صوت بريجيت وهى تقول بنبرة اعتذار : لن تجد فى هذه الكتب شيئا يهكم .

عدت نحوها وهى تتقدم من المنضدة الصغيرة حيث وضعت فنجانى القهوة. كانت قد خلعت سترتها وحذاها وظلت بالبلوزة البيضاء الخفيفة والجونلة الزرقاء وخف منزلى.

قلت وأنا أجلس على المقعد قبالتها مشيراً الى الغرفة والى فتاة الكيمونو:

- من أين جاءت هذه الافكار اليابانية ؟

فقلت بابتسامة خفيفة : لم تأتني أفكار يابانية ولا صينية . عندما سكنت هنا لم أكن أملك شيئاً ابداً وكانت هذه ارحص طريقة لتأثيث المكان ..

وبينما تمد لى يدها بفنجان القهوة سألتها هل أنت بالفعل سعيدة هنا كما قلت؟ ألا تريدان حقا العودة الى بلدك ؟

فهزت رأسها تؤمن على كلامى وكررت مثل تلميذة تحفظ درساً : نعم، أنا بالفعل سعيدة هنا، وأنا لا أريد العودة الى بلدى .

ثم نظرت الى وسألتنى : وأنت ؟ .. عندما سألك صديقك هذا السؤال رفضت أن تجيب، فهل أنت سعيد هنا ؟

- لا ، لست سعيدا هنا .

- هل ستكون أحسن حالا لو رجعت الى بلدك؟

فكرت قليلا قبل أن أرد ثم قلت وأنا أحك جيبينى : ليست المسألة سهلة . أنا مثلك مطلق، وأسرتى تعيش هناك. ولكنك صغيرة تستطيعين أن تبدئى من جديد لو رجعت أما أنا ..

لم استطع أن أكمل فتوقفت وقالت هى بعد فترة :

- معذرة ولكنى لم أفهم شيئاً . ربما كان ماقاله صديقك صحيحا ، أنت تجد سعادتك فى تعذيب نفسك .

- ربما

شعرت بريجيت أننى لا أريد أن أتكلم فقالت وهى تسند رأسها الى يدها : لا تهتم ثم سألتنى : هل تريد أن تشرب شيئاً ؟

- ألا نشرب القهوة بالفعل ؟

- إذن بعد إذنك أنا سأشرب .

تركت فنجانها كما هو تقريبا واختفت وراء الساتر مرة أخرى ثم رجعت وفي يدها كوب طويل تهزه في يدها وعادت تجلس قبالي. ولفترة لم يكن هناك غير رنين الثلج في الكوب ولكنني فجأة وجدت نفسي أقول لها دون تدبير:

- هناك شيء حيرني مع ذلك ونحن نجلس في المقهى . شيء عن الدكتور مولر.. اسف للسؤال ولكن اقصد لماذا عندما كنتما نتحدثان معا كأن هناك بينكما ..

ثم تلجلجت ولم أكمل ماكنت أريد أن أقول .

غير أنها شربت جرعة كبيرة من كأسها ثم وضعتها على المائدة وثبتت عينيها الزرقاوين على وجهي وهي تبتسم ابتسامة واسعة حركت كل تلك الغضون الرقيقة في ذقنها وحول عينيها وقالت : بيننا أشياء كثيرة.. أول شيء أنه كان عشيق أُمي . تراجعت للخلف كالمسروع وأنا اغمغم : أنا.. أنا متأسف للسؤال . لماذا تبوحين لي بذلك؟ أنا لم أتصور أن ..

قاطعتني دون أن تغير ابتسامتها: ولماذا لا؟ ألم تقل إنك تكره الكذب؟

- لم أقل ذلك . قلت إنني اكتشفت اني أعيش في الكذب.

نهضت وأخذت تمشي في الغرفة ويدها كأسها تواصل هزها وهي تتكلم على ايقاع رنين الثلج : حسبت أنك قلت ذلك. رأيت شيئاً في وجهك ..

- ولكن أرجوك مرة أخرى لماذا تبوحين لي بهذا السر أو غيره . نحن لم نكد نلتقي. أشك حتى في أنك تعرفين اسمي .

- ألم تسألني عن مولر ؟

- نعم ، سؤالاً عابراً. سؤالاً خاطئاً ولكنني لم أكن أريد أن أعرف اسراراً، نحن غريبان .

وقفت وتطلعت نحوى قليلا قبل أن تقول: ولكن هذا أفضل كما تعرف. الناس لا تبوح بأسرارها للأصدقاء وإنما للغرباء ، فى القطارات أو فى المقاهى العابرة . ولكن هذه ليست هى المسألة الآن . المسألة أنى أريد أن أتكلم . هذا المساء أريد أن أتكلم . ألا تستبد بك أحيانا هذه الرغبة ؟

- أتكلم طوال الوقت، ولكن مع نفسى. فى رأسى حوار لا ينقطع .

- وكذلك أنا ، ولكنى سئمت ذلك .

ذهبت بريجيت نحو (الكنية) ولكنها لم تجلس عليها، بل جلست على الأرض المكسوة ببساط رمادى ثم أسندت ظهرها الى الكنية وفردت ذراعها الخالية فوقها. بالكاد مست الكأس بشفتيها ثم وضعتها بجوارها على الارض وفكت الضفيرة الملتفة خلف رأسها وبدأت تحلها ببطء. كانت الشمس تغمرها وهى تجلس هناك ولكنى رأيت من الشرفة السحب البيضاء الرقيقة تزحف مرة أخرى بهدوء نحو القرص الذهبى الذى قارب الغروب . وبدأت بريجيت تتكلم بصوت خافت دون أن تنظر نحوى، كأنما لا يعينها بالفعل أن أسمعها أو لا أسمعها وإنما المهم أن تتكلم.

قالت : بالأمس جاء مولر ولم أكن قد رأيت من سنين طويلة فرجع كل شىء من جديد. رجعت بريجيت الطفلة بالرغم منى . كنا نسكن.. أقصد نحن نسكن حتى الآن مدينة صغيرة فى الغرب. وكنت ابنة وحيدة . لم أعرف فى صغرى أبى كما وصفوه لى فى شبابه . لم أر فيه ذلك الحماس الذى قاده الى الحرب فى اسبانيا قبل أن أولد بكثير. رأيت فقط ما صنعت به عشرون سنة بعد ذلك. قيل لى إنه كان محاميا قديرا، ولكنى عرفت أنه لا يقبل غير القضايا الصعبة، القضايا الخاسرة فى الغالب . يقبل الدفاع عن الفقراء وعن النقابات بأتعاب زهيدة لمجرد أن يرفع ظلما أو يثبت حقا قانونيا ما للنقابات . خطر لى فيما بعد عندما كبرت أنه اراد أن يعوض الهزيمة فى اسبانيا بأن ينتصر بالقانون لكل المظلومين فى العالم ، أو على الأقل فى النمسا . ولكن النتيجة مع الأسف كانت هزائم كثيرة جديدة . لم يكن حظه مع القانون أفضل من الحرب. كل ما حدث هو أن أصحاب القضايا

المهمة التي تحقق مكاسب كبيرة أصبحوا يتجنبونه، ثم قاطعوه بالفعل. وها هو الآن، بعد كل السنين التي عملها، يعيش في المنزل الذي ورثه عن جدي، لا يملك غير معاش الشيوخة الضئيل وإعانة صغيرة من النقابة. ومع ذلك فما زالت أذكر عندما كنت طفلة كيف كان منهمكا تماما في عمله الفاشل، كأنه نسينا أنا وأمي. كان وقته كله لمكتبه أو للمحكمة أو لغرفة المكتب في البيت يقَلِّب المجلدات أو يكتب المذكرات. أحببته كثيرا جدا. كنت أشعر حتى وأنا طفلة صغيرة أنه مهزوم وأشفق عليه كأمي لا ابنته. أحمل إليه في غرفته القهوة أو العصير ثم أجلس أمامه فترات طويلة أراقبه وهو يقرأ أو يكتب ويحك جبينه باستمرار. وحين يلاحظ وجودي يسألني بدهشة عما أفعله هناك، يسألني لماذا لا أذهب كي ألعب أو أنام، فأذهب إليه وأقبله في وجنته. أطلب منه أن يحكي لي حكاية لكي أذهب وأنام. يبدو في وجهه التذمر لأنني أعطله عن عمله لكنه يحيطني بذراعه ويبدأ في تأليف حكايات صغيرة ينتصر فيها العدل والخير دائما. أذكر باستمرار أنه كانت هناك حمامة يطاردها ثعلب شرير ولكنها كانت تستعين بسرب الحمام فتنتصر رغم كل شيء على مكائده. نعم، لم ينجح أبي في الحرب ولا في القانون ولكن كان من المستحيل أن تنهزم حيواناته المسكينة! ... أما عمي مولر فكان يختلف. عمي مولر كان باستمرار طبييا ناجحا. واعتاد أن يأتي إلى البيت كثيرا في وجود أبي وفي غيابيه. في الحقيقة كان يأتي أكثر في غيابيه. دائما يحضر لي الحلوى ويحملني ويقبلني. يسأل أمي التي كانت صحتها عليلة دائما: كيف تشعر سيدتنا اليوم؟.. يمسك معصمها ويمسك يدها ويتحسس صدرها. يأخذها إلى الداخل ليواصل هذا الكشف أو يصرفاني إلى الخارج بحجة ما. وكنت على ما أذكر في الثامنة من عمري عندما واجهت مولر. فتحت له الباب حين أتى، ولما قدم لي الحلوى رميتها وأخذت أضربه في بطنه ورجليه بقبضتي معا وأنا أصرخ: اذهب.. اذهب.. أنا لا أريد أن أراك.. لا أريد الحلوى التي تحضرها.. اذهب!.. أنا لا أحبك!.. وقف لا ينطق بحرف وكانت أمي أيضا تقف خلفي تضع راحتها على فمها وقد اتسعت عيناها. ويعدها لم يعد مولر يأتي، ولكن أمي هي التي أصبحت

تخرج كثيرًا . وسكنت بريجيت قليلا ثم قالت : هذا قبل أن تموت أمي . قبل أن تذهب الى المصححة وتموت هناك .

كنت أرهف السمع منذ بدأت ، حريصا على ألا تفوتني كلمة وقد تيقظت حواسي التي كانت منذ قليل هامة ومخدرة نفذت الى قلبي نبيرة ما في حديثها ملأنتني حزنا واشفاقاً عليها . وأوشكت أن أقوم فأجلس الى جوارها هناك على الارض لأحكي لها ايضا كل ما أوجعني ، بون كذب ولا كبرياء ولا تستر وراء كلمات أحافظ بها على تلك الواجهة التي تخفي وراءها الانهيار والخراب . غير أنني لم أفعل شيئاً . ظللت أتطلع اليها مجمداً فوق ذلك المقعد الصغير ، وكانت قد نجحت في حل ضفيريته وتركت شعرها الذهبي الطويل ينسدل فوق كتفها اليمنى ثم أخذت تمشطه بأصابعها . ولكن قيل أن اجد ما يمكن أن أقوله فاجأنتني بأن ضحكت وهي تتطلع في وجهي مباشرة وتقول : ولكن هذه ذكرى طفولية . تعلمت من زمن أن اغفر لأمي بل وحتى أن أفهمها وكان يمكن ايضا أن أغفر لمولر .

ووجدتني أقول بعد فترة: هو عجوز جدا .

فرددت ورائي كعادتها : نعم ، هو عجوز جدا .

مدت يدها الى كأسها التي نسيتهها ، رفعتها الى فمها ثم عادت تضعها الى جوارها ويقول بصوت مرتفع الى حد ما : اسمع . كل شيء يمكن غفرانه إلا أن تكذب علي نفسك وتكذب على الناس عن عمد . أنت الذي قلت ذلك ألم تقله ؟ أقصد ، ماذا أقصد ؟ .. أريد أن أقول إن اخطأت فكن شجاعا . على الانسان أن يحاول على الاقل أن يتصرف على أنه مخطيء لا أن يواصل الخداع ..

لم أفهم ماتريده بالضبط . هل تتكلم الآن عنى أم عن مولر؟ أى أخطاء يجب أن أصلحها وهل بقي وقت؟ .. لكنني بدلا من ذلك واصلت الكلام عن مولر ، قلت: ربما كان الآن يكفر عن اخطائه هو الآن يحاول حتى في هذه السن . يحاول أن يساعد الآخرين ..

قالت بأشمزاز وكأني أسأت إليها: يساعد الآخرين حقا! ...
- أليس مايفعله الآن، في هذه اللحظة هو نوع من...
فقطاعتني بشيء من الغضب.. لا ليس نوعا من أى شيء! .. قلت لك إننى
أوشكت أن أغفر له لولا هذه اللجان والأشياء المضحكة..
قامت فجأة وأخذت تسير فى غرفتها شبه الخالية وهى تعقد يديها أمام
صدرها. ومرة أخرى استبدت بى الحيرة والاحساس بأنى لست فى مكانى فأردت
أن أترك هذه الحكاية كلها وهذا المكان وأن انصرف : ولكنها جاءت ووقفت أمامى
وقالت بهدوء ولكن بلهجة قاطعة : مولر هو الذى دمر حياتى ...
قلت فى ذعر حقيقى.. هل كان معك أنت أيضا ؟ .. أقصد هل اصبحتما أنت
وهو ..

ابتسمت ابتسامة خفيفة وقاطعتنى قائلة: عشيقين؟ لا . أى خيال هذا؟ ..
مولر!؟ قلت لك انه ساعدنى على طريقته فدمر حياتى.. أقصد إن كنت لا
تستطيع أن تساعد غريقا فلماذا تتظاهر بأنك تمد اليه يدك ..؟ لماذا تعجل
بغرفة؟.. ولماذا تكرر هذا التظاهر مرة ومرتين ومائة مرة حتى تجعل منه حرفة؟..
كان الغروب قد حل ولكنها لم تضىء المصباح، وفى الغرفة شبه المعتمة بدأت
تروى حكايتها الحقيقية. عادت تتمشى وهى تتكلم . ترجع احيانا وتجلس الى
جانبى ، ثم تقوم مرة اخرى لتجلس على الكنبه أو لترجع الى جلستها المفضلة
على الارض تحتها نون أن تتوقف عن الكلام . راحت تخرج أمام إنسان آخر ،
تصادف أنها قابلته عندما كانت تريد أن تتكلم ، كل الحوار الذى ظل يدور لسنين
فى رأسها . فى مرة أو مرتين لمعت الدموع فى عينيها ولكنها فى هذا المساء
ايضا لم تبك . على الاقل لم تبك أمامى إلى أن تركت شقتها بعد ذلك اليوم
الطويل..

أضاعت النور قبل أن أخرج فأجفلنا معا وكأنا ، كلينا ، نفيق من حلم ،
أمسكت بكتفيها عند الباب المفتوح وقبلتها فى جبينها.

مالت هي أيضا وقبلتني فى وجنتي وهى تقول : شكرا لك أنت لا تعرف أى
هدية جميلة قدمتها الى !

ثم قالت وهى تصافحني : اليوم عيد ميلادى السابع والعشرون ..

الفصل الرابع

هشة كفرأشنة

فى مطلع الشباب ، عندما كنت فى كلية الآداب وتعلمت قراءة الأدب الأجنبى ، كانت العبارة التى استهل بها تولستوى رواية «أنا كارنيينا» تحيرنى : كل الأسر السعيدة تتشابه ولكن كل أسرة شقية فريدة فى شقائها . كنت أسأل نفسى لماذا يبدأ روايته العظيمة بهذه الحكمة التى لا تقدم ولا تؤخر ؟ ..

الآن فى آخر العمر أدرك أنه كان على حق . لا أعرف الكثير عن الأسر السعيدة ، بل تتشابه أفرانها أم لا ، لكنى أعرف أن الشقاء ندبة فى الروح ، إن بدأت فى الطفولة فهى تستمر العمر كله . وأفهم أنه لا توجد ندبة تشبه أخرى . ولكنى أسأل نفسى أيضا - حتى وإن لم تتشابه تلك الندوب ، أليس ذلك الشيء المخفور فى أنفسنا علامة يتعرف بها بعضنا على البعض ؟ .. ألا تتشابه نحن أيضا ؟

لماذا اختارت بريجيت أن تحكى لى أنا كل ما قالته ؟ .. هل كنت حقا ذلك العابر المجهول الذى أرادت أن تحكى له أسرارها لكى تفرغ منها أم كان هناك تصميم واختيار ؟ .. ولماذا استطاعت حكايتها البعيدة عن عالمى وعن كل ما أعرف أن تنفذ إلى قلبى بهذا العمق ؟

لماذا حزنت كل هذا الحزن على ذلك الأب المهزوم وعلى بريجيت الوحيدة بل وعلى زوجها الأفريقى الذى جعلتنى كلماتها أراه وأشفق عليه ؟ .. فهمت حكاية عالمك النائى عن دنياى ، فلعلك كان يمكن أن تفهمى أنت أيضا لو حكيت لك . ربما كان يمكنك أن ترى مثلى عالما بعيدا عنك . قرية صغيرة لا تشبه قرينتك فى شيء ، قرية فقيرة فى آخر الصعيد ، ولكن يعيش فيها أيضا طفل وحيد مع أبيه .

ومع ذلك فانا أعرف أنى لن أحكى لك ، وأعرف باليقين نفسه أنى لن أهرب من هاتين العينين ، عيني ذلك الطفل الذى يطارى منى منذ الصباح . لا يجدى ما أرهقنى به ذلك اليوم المشحون . لا يجدى أنى أنقلب فى الفراش بحثا عن نوم لا يجىء . لا يجدى أنى أسأله ما الفائدة ؟ .. ما الفائدة من أن تلازمنى فى مغرب العمر ؟ .. أية دروس سأتعلمها الآن ؟ وبم يفيد تعلم الدروس وقد هات الوقت ؟ .. أم أنك لا تريد أن تعلمنى شيئا ، بل تطلب حقا ما . ولكن ما هو ؟

نعم أراك . أراك كما تاتينى دائما طفلا وحيدا . طفلا ماتت أمه بالملايا وهو فى الرابعة من عمره . أول ما يذكره هو وجهها فى تلك الليلة ، وجه كالشمع الأبيض يغسله عرق لا ينقطع وأسنانها تصطك . تنتفض وتطلب ماء . يرى أباه يرفع رأسها ليسقيها الماء فيتوقف ذلك الانتفاض فجأة وتميل برأسها على يده يرى حتى الآن حدقتيها تسبحان ببطء فوق بياض عينيها . يرى حتى الآن أباه يوسد رأسها فيبرز وجهها الأصفر وحده صغيرا جدا من ثوبها الطويل الأسود . يراه ينتصب واضعا يديه على كتفيه الصغيرتين متطلعا نحوه فى دهشة وهو يقول «خلاص يا ولدى» . يغمره خوف حين يرى نسوة يندفعن إلى الغرفة مولولات وهن يلوحن بطرحهن السوداء فيدفن وجهه فى جلباب أبيه .

تاتينى بعد ذلك دائما فى يومك الأول فى المدرسة . كم كان فخورا يومها وقد ارتدى البذلة لأول مرة وأبوه يصحبه معه ليذهب إلى المدرسة البعيدة فى المدينة . يتذكر كيف كان فى أيامه الأولى يفرح عندما يقول له أحد المدرسين أن يخرج من الفصل ويطلب من أبيه أن يحضر بعض الطباشير أو حبرا للأقلام أو أن يحمل له إحدى الخرائط الكبيرة التى يضعونها على السبورة . بل وأفرح عندما يطلب منى أبى أن أساعده فى نهاية الأسبوع بعد أن يخرج كل التلاميذ والمدرسين فيشمر جلبابه ويربطه فى وسطه ويرفع كميته حتى كتفيه بينما أحمل له جرادل الماء ونمر على الفصول كلها وهو ينتقل من فصل إلى آخر يمسح الأرض بخرقته المبللة مقرصا فى الأرض . ومتى بدأت أشعر بالعار ؟ .. عندما كبرت قليلا ؟ .. عندما

يشهد في وجهي أحد المدرسين وهو ينظر في ساعته قائلاً «لماذا لم يضرب أبوك
المسطول الجرس يا ولد ؟ .. اخرج صحياً!» عندما كان التلاميذ يعيرونني إن ما
تشاجرنا في الفسحة ؟ .. أيامها كنا نحن الفقراء حفنة صغيرة في المدرسة
وسط أبناء ملاك الأرض وأبناء الموظفين في المدينة . يجدون في إهانتنا متعة
وفخراً ويزيد العداوة لو تفوقنا في الدراسة . نجح البعض في ستر فقرهم ، أما أنا
فكيف كنت أستطيع ؟ .. وكيف كنت أملك أن أخفي درجاتي العالية في كل
المواد؟ ولكن حتى بعد أن خرج أبى إلى المعاش وأنا مازلت في المدرسة
الابتدائية ظل لقبى متوارثاً لدى أجيال المدرسين . عندما يأتى مدرس جديد ويبدأ
كالعادة في قراءة أسماء التلاميذ ثم يسأل ذلك السؤال الذى لا مفر منه «ما هى
مهنة الوالد؟» .. يتطوع أكثر من تلميذ في الفصل قبل أن أرد «كان فراش
المدرسة» ، فيعرف المدرس وأعرف أنا أنه لن يجد سبباً يمنعه من أن يسبني
ومن أن يتزل بى كل العقاب الذى يخاف أن يصيب به أبناء الآخرين . كم مرة
تشاجرت مع التلاميذ الذين أهانونى بسبب أبى ؟ .. كم مرة ضربتهم وضربونى
وأسلت دماغهم وأسألوا دماغى دون أن أجسر مرة واحدة أن أبوح لأبى بسبب
جروحي ؟ .. وكما بالفت في الفخر به بعد ذلك فى الصحيفة وفى الاتحاد
الاشتراكى وأمام منار أول ما تعارفنا ! أحكى للجميع عن أبى فراش المدرسة
الذى قتر على نفسه وادخر الملايم والقروش لكى يعلمنى فى الجامعة . ولكن هل
شفت تلك الخطب الكبيرة الجروح الأولى ؟ هل أزال المهانة ؟ .. ربما .. عندما
كان الرئيس واحداً منا ، نحن أبناء الفقراء ، وعندما انحاز إلينا . عندما لم يكن
الفرق عاراً . ولكن ألم أشعر بالعار القديم نفسه عندما كان على أن أملاً «كشف
الأميرة» وأن أذكر مهنة الأب والجد يوم فكر خالد بعد الثانوية العامة أن يدخل
الكلية الحربية ؟ .. فما الداعى إذن إلى التظاهر ؟ .. ما الداعى إلى الكذب ؟
الاهتم جنة الفقراء . لم توجد يوماً جنة للفقراء . كانت تلك أيضاً كذبة يجب أن
تسأها ..

أتلذذ بإهانة نفسى حقا يا إبراهيم ! ولكن إبراهيم معه حق ! .. كيف يمكن أن يأتى النوم وأنت تعذب نفسك بهذه الأفكار ؟ .. لم لا تذكر بدلا من ذلك الأشياء الحسنة التى فعلتها ؟ .. لم لا تفكر مثلا فى أنك صممت على أن تعلن فقرك وعلى أن تقهر فى داخلك إحساس المهانة بسبب هذا الفقر ؟ .. لم تفعل مثل آخرين تعرفهم يقضون عمرهم فى محاولة الهرب من أسرهم الفقيرة وفى إخفاء نشاطهم المتواضعة . لم لا تذكر أنك عندما وقع الانقلاب فى الصحيفة رفضت أن تساير الركب ؟ .. لم لا تذكر ما قلته لمن جاء يوسوس لك : ابعث برقية تأييد للرئيس ! .. الرئيس معجب بك ويعرف أنك صاحب قلم . اكتب افتتاحية ضد مراكز القوى ! صرفته بأدب قائلا لن أرسل برقية ولن أكتب افتتاحية . كنت تعرف أنه سينقل ذلك وأردت أن ينقله . لم تقل خطبة عصماء ولكنك أردت فقط أن يعرفوا أنك لست للبيع فعرفوا ودفعت الثمن . ولم لا تتذكر أنك حاربت السقوط بعد أن تركتك منار ؟ .. إنك حاربت أن تنهار أمام مهانة الحب المخذول ؟ .. إنك رفضت أن تشكو وأن تتاجر بجراحك ؟ .. إنك حاولت فى كل الظروف أن تتجو من السقوط فى بئر الرثاء لحالك ثم أن تجعل من هذا مبررا لكل سقوط ؟ ..

ألا يغفر لى هذا يا إبراهيم ؟ .. ألا يغفر لى أنى حاولت يا إبراهيم ؟ .. ولكن ما أهمية . هذا كله الآن ؟ .. ومتى يسمح لى ذلك الطفل بأن أعقد الصلح معه ؟ .. متى يتركنى ؟ .. لو يأتى النوم ! ..

لكنه لا يأتى .. أغفو قليلا فتدهمنى أحلام أصحاب منها فى فزع دون أن أذكر ما هى . أجلس فى الفراش مرة أخرى وأقاوم الرغبة فى أن أقوم وأدخن . أستعين بتحذيرات الطبيب لأمنع نفسى . يزورنى وجهه المتجهم بعد أن فحصنى وقاس الضغط فى آخر مرة . عندما طلب منى يهدوء ألا أرجع إلى عيادته مرة أخرى إن واصلت التدخين . أذكر الصداع العنيف فى أزمة الضغط الأخيرة فتهدأ رغبتى فى التدخين لكن النوم بعيد .

إذن ما رأيك فى الشعر ؟ .. جريته فى مثل تلك الليالى ... أسترجع كل أبيات الشعر التى أحفظها إلى أن يغلبنى النوم . نبدأ بالشعر الجاهلى ؟ .. بطرفة بن

المعبد الذي تعشقه ؟ .. ليكن : لخولة أطلال ببرقة ثهد ، تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد .. هل هي في ظاهر اليد أو في باطن اليد ؟ .. لا يهم . أكمل . دعك من وصف الناقة . ادخل على : فإن تبغنى في حلقة القوم تلقنى وإن تلمسنى في الحوانيت تصطد ... ثم ماذا ؟ .. آه . ومازال تشرابى الخمور ولذتى وبيعى وإنفاقى طريفى ومتلدى .. إلى أن تحامتنى العشيرة كلها وأفردت أفراد البعير المعبد .

نعم ، بالضبط أيها الأستاذ البعير المعبد ! .. هذا هو أنت - تحامتك العشيرة مع أنك لم تذهب إلى الحوانيت ولا إلى حلقة القوم ! .. ولكن ربما لأنك لم تذهب إلى الحوانيت ولا إلى الحلقة ؟ .. هكذا لن نصل إلى شيء . ليست هذه ليلة طرفة على أى حال . لا تصلح لما نحن فيه . دعك من الشعر الجاهلى كله لكى لا يأتى بيت : أو لم تكن تدرى نوار بانئى وصال عقد حباتل جذأماها . لكى لا تجر نوار منار . أدخل على المتنبى - ولكن هناك أرق على أرق ومثلنى يأرق . دعك منه الآن أيضا .. لأن يجلب نوما . من إذن ؟ .. البحترى ؟ .. صنت نفسى ؟ .. جعجة أكثر من اللازم فى الليل . صلاح عبد الصبور ؟ .. جارتى مدت من الشرفة حبالا من نغم ؟ .. ولكننا سننصل مباشرة إلى طلع الصباح فما ابتسمت وكل ذلك الحزن . أمل بنقل ؟ .. سيجرنا على لا تصالح فنظل حتى الصباح فيما نهرب منه . نريد شاعرا هادئا .. زهير ؟ .. عمر بن أبى ربيعة ؟ .. كثير عزة ؟ .. السياب ؟ .. أحمد شوقى ؟ .. من ؟ .. من ؟ .. شاعر مريح .. شاعر طيب .. لكنى أدخل فى بهو طويل على جانبيه صفان من رجال صلح الرؤوس عرايا الصدور بيتسمون فى مكر وأنا أمر بينهم مسرعا .. شيء مهم يجب أن أفعله وإن لم أدرك تماما ما هو . أصعد منذنة أو برجاً . أصعد جريا لكن يدا ضخمة تدفعنى إلى أسفل .. أصرخ محتجبا - يجب أن أنقذها .. يجب أن أنقذها ! .. يكون مركب صغير وسط أمواج عاتية ومن فوقه طيور كالنسور تحوم وتنقض فوق المركب كالنذير .. يظهر شخص فوق صخرة عالية يرتدى زيا رسميا ويده عصا كالصولجان .. يشير

أتلذذ بإهانة نفسى حقاً يا إبراهيم ! ولكن إبراهيم معه حق ! .. كيف يمكن أن يأتى النوم وأنت تعذب نفسك بهذه الأفكار ؟ .. لم لا تذكر بدلا من ذلك الأشياء الحسنة التى فعلتها ؟ .. لم لا تفكر مثلاً فى أنك صممت على أن تعلن ففرك وعلى أن تقهر فى داخلك إحساس المهانة بسبب هذا الفقر ؟ .. لم تفعل مثل آخرين تعرفهم يقضون عمرهم فى محاولة الهرب من أسرهم الفقيرة وفى إخفاء نشاطهم المتواضعة . لم لا تذكر أنك عندما وقع الانقلاب فى الصحيفة رفضت أن تساير الركب ؟ .. لم لا تذكر ما قلته لمن جاء يوسوس لك : ابعث برقية تأييد للرئيس ! .. الرئيس معجب بك ويعرف أنك صاحب قلم . اكتب افتتاحية ضد مراكز القوى ! صرفته بأدب قائلاً لن أرسل برقية وإن أكتب افتتاحية . كنت تعرف أنه سينقل ذلك وأردت أن ينقله . لم تقل خطبة عصماء ولكنك أردت فقط أن يعرفوا أنك لست للبيع فعرفوا ودفعت الثمن . ولم لا تتذكر أنك حاربت السقوط بعد أن تركتك منار ؟ .. إنك حاربت أن تنهار أمام مهانة الحب المخنول ؟ .. إنك رفضت أن تشكو وأن تتاجر بجراحك ؟ .. إنك حاولت فى كل الظروف أن تتجو من السقوط فى بئر الرثاء لحالك ثم أن تجعل من هذا مبرراً لكل سقوط ؟ ..

ألا يغفر لى هذا يا إبراهيم ؟ .. ألا يغفر لى أنى حاولت يا إبراهيم ؟ .. ولكن ما أهمية . هذا كله الآن ؟ .. متى يسمح لى ذلك الطفل بأن أعقد الصلح معه ؟ .. متى يتركنى ؟ .. لو يأتى النوم ! ..

لكنه لا يأتى .. أغفو قليلاً فتدمنى أحلام أصحاب منها فى فزع دون أن أذكر ما هى . أجلس فى الفراش مرة أخرى وأقاوم الرغبة فى أن أقوم وأدخن . أستعين بتحذيرات الطبيب لأمنع نفسى . يزورنى وجهه المتجهم بعد أن فحصنى وقياس الضغط فى آخر مرة . عندما طلب منى بهدوء ألا أرجع إلى عيادته مرة أخرى إن واصلت التدخين . أذكر الصداع العنيف فى أزمة الضغط الأخيرة فتهدأ رغبتى فى التدخين لكن النوم بعيد .

إن من رأيك فى الشعر ؟ .. جريته فى مثل تلك الليالى ... أسترجع كل أبيات الشعر التى أحفظها إلى أن يغلبنى النوم . نبدأ بالشعر الجاهلى ؟ .. بطريقة بن

العبد الذى تعشقه ؟ .. ليكن : لخولة أطلال ببرقة شهيد ، تلوح كباقي الوشم فى ظاهر اليد .. هل هى فى ظاهر اليد أو فى باطن اليد ؟ .. لا يهم . أكمل . دعك من وصف الناقة . ادخل على : فإن تبغنى فى حلقة القوم تلقنى وإن تلتسنى فى الحوانيت تصطد ... ثم ماذا ؟ .. أه . ومازال تشربى الخمر ولذتى ويبيعى وإنفاقى طريفى وامتلى .. إلى أن تحامتنى العشيرة كلها وأفردت أفراد البعير المعبد .

نعم ، بالضبط أيها الأستاذ البعير المعبد ! .. هذا هو أنت - تحامتك العشيرة مع أنك لم تذهب إلى الحوانيت ولا إلى حلقة القوم ! .. ولكن ربما لأنك لم تذهب إلى الحوانيت ولا إلى الحلقة ؟ .. هكذا لن نصل إلى شيء . ليست هذه ليلة طرفة على أى حال . لا تصلح لما نحن فيه . دعك من الشعر الجاهلى كله لكى لا يأتى بيت : أو لم تكن تدرى نوار بآننى وصال عقد حبائل جذأماها . لكى لا تجر نوار منار . أدخل على المتنبى - ولكن هناك أرق على أرق ومثلى يأرق . دعك منه الآن أيضا . لن يجلب نوما . من إذن ؟ .. البحترى ؟ .. صنت نفسى ؟ .. جعجعة أكثر من اللازم فى الليل . صلاح عبد الصبور ؟ .. جارتى مدت من الشرفة حبالا من نغم ؟ .. ولكننا سننصل مباشرة إلى طلع الصباح فما ابتسمت وكل ذلك الحزن . أمل دنقل ؟ .. سيجرنا على لا تصالح فنظل حتى الصباح فيما نهرب منه . نريد شاعرا هادئا .. زهير ؟ .. عمر بن أبى ربيعة ؟ .. كثير عزة ؟ .. السياب ؟ .. أحمد شوقى ؟ .. من ؟ .. من ؟ .. شاعر مريح .. شاعر طيب .. لكنى أدخل فى بهو طويل على جانبيه صفان من رجال صلح الرؤوس عرايا الصدور بيتسمون فى مكر وأنا أمر بينهم مسرعا .. شيء مهم يجب أن أفعله وإن لم أدرك تماما ما هو . أصعد منذنة أو برجاً . أصعد جريا لكن يدا ضخمة تدفنى إلى أسفل .. أصرخ محتجا - يجب أن أنقذها .. يجب أن أنقذه ! .. يكون مركب صغير وسط أمواج عاتية ومن فوقه طيور كالنسور تحوم وتنقض فوق المركب كالنذير .. يظهر شخص فوق صخرة عالية يرتدى زيا رسميا وييده عصا كالصولجان .. يشير

بعصاه بطريقة أمرة .. ينهرنى قائلا تأخر الوقت ! .. أحول عيني إلى حيث يشير بعصاه .. أسمع صرخة وأرى عربات إسعاف كثيرة مقبلة .. فأجرى . لا أعرف إن كنت أجرى منها أو أجرى خلفها ...

★★★

مددت يدي وأنا فى الفراش وأسكت المنبه .

★★★

فى الصباح أخذت حبة علاج الضغط مع كوب العصير .

كنت أشعر بتعب شديد ولكنى اتصلت بإبراهيم فى فندقه لأقول له إننى أخذت موعدا مع أحد الصحفيين وإننى سأمر عليه فى الفندق لكى نذهب معا .

وكنت قد حددت بالفعل موعدا مع برنار ، هو أول من طرأ على بالى عندما طلب منى إبراهيم أن أقدمه لمن أعرفهم من الزملاء فى البلد . لم تكن علاقتى بالصحفيين تتجاوز المقابلات العابرة فى المؤتمرات أو فى الحفلات الرسمية . واكتشفت بسرعة أن الأمور هنا تختلف عن بلدنا ، حين تدعو من تتعرف عليه بعد أول أو ثانى مقابلة لكى يزورك فى بيتك ، عرفت أن الصحفيين هنا ، مثل غيرهم ، لا يرحبون بالعلاقات الاجتماعية التى لا تفيد . ولم أكن أنا مصدرا مهما للمعلومات أو على علاقة بجهات ذات نفوذ تجعلهم يسعون إلى معرفتى ، فاعتبرت هذه العزلة جزءا من فترة العقوبة التى أقضيها فى المنفى التى لم أكن أعرف لها نهاية .

ومع أن برنار أيضا لم يدعى إلى بيته فقد كان يختلف عن بقية الصحفيين الذين أقابلهم . حتى مظهره كان يختلف . هندامه دائما فى الحد الأدنى المقبول ولكنه بعيد جدا عن تلك الأناقة المحكمة التى تميز الصحفيين البارزين، والذين أراهم دائما بياقات القمصان العالية وربطات العنق «الموقعة» ، والسترات من بيوت الأزياء الراقية إلخ .. إلخ . على العكس ، كانت سترة (برنار) تبدو دائما

أوسع قليلا مما ينبغي ، ربما لكى تخفى بطنه الكبير . ولم أراه مرة واحدة فى البرامج التى تستضيف الصحفيين فى التلفزيون . لا أظن أنه كان يستطيع أن يتغلب على تلقائيته فى الحديث وأن يعرض أفكاره على الشاشة بطريقة منمقة لا تغضب أحدا كما يفعل الآخرون . ولا أظن أيضا أنه كان لديه الوقت لذلك . كنت أعرف أنه أرملة وأنه يتبنى طفلا فييتاميا من لاجئى القوارب ويرعاه بمفرده منذ ماتت زوجته .

وبينما كنا فى الطريق إلى المقهى الذى تواعدت فيه على اللقاء مع برنار راح إبراهيم يرتب مرة أخرى الأوراق التى يحملها فى حقيبته الجلدية الصغيرة ، وبدأ أميل إلى الصمت والشرود . أما أنا فكان خمول الصباح قد فارقنى وحل محله ذلك النشاط الزائف الذى تولده عندى القهوة مع قلة النوم . ولم أكن أستطيع أن أسيطر على رغبتى فى أن أتكلم عن أشياء جادة وأشياء فارغة ، ولكن إبراهيم كان يرد على باقتضاب وكان يحول دفة الحديث دائما إلى العمل الذى جاء من أجله ، ويسألنى عن اتجاهات الصحف التى تصدر فى البلد ، وأيها يمكن أن يساعده فى عمله . وحتى عندما كان يسأل عن ذلك كان واضحا أنه يفكر فى شىء آخر .

وجاءت خيبة أمله الأولى فى الصحافة عندما قابلنا برنار .

تقابلنا فى المقهى المقابل للدار التى يعمل فيها ، وكان ملتقى للصحفيين ، تحرص صاحبته (إيلين) على أن تضع فى أركانها صورا فوتوغرافية للكتاب المشهورين وهى تقف إلى جوارهم أو تضع يدها على كتف واحد منهم . وفى صدر المكان كانت هناك لوحة زيتية كبيرة ، يبدو عليها القدم لا الأصالة ، لامرأة ممتلئة إلى حد ما تلبس ثيابا شفافة وتمسك بيدها اليمنى ريشة طائر بيضاء طويلة وباليه الأخرى ميزانا متوازى الكفتين .

قال برنار بمجرد أن عرفته على إبراهيم : قادم من لبنان ؟ .. لا بد إذن أن لديك آخر الأخبار .

فنظر إليه إبراهيم طويلا واعتقدت أنه لن يرد ولكنه قال أخيرا بهدوء :

- ما الذى تود أن تعرفه عن لبنان ؟

- ما يود أن يعرفه كل إنسان . أن أفهم سر هذه الحرب الأهلية الطويلة وأن أعرف ما الذى يدور هناك .

- ولكن لا يوجد أى لغز . أنت تعرف أن إسرائيل تسلح جيشا فى الجنوب وتسلح الكتائب فى الشمال لكى تستمر الحرب أليس كذلك ؟

هز برنار رأسه قائلا : ليست المسألة بهذه البساطة . اللبنانيون ليسوا دميّ مع ذلك يحركها من يشاء . لا بد أن هناك غلطة ما فى لبنان ذاته .

لم يعلق إبراهيم على ذلك وأخذ بدلا من ذلك يحدثه عن دوريات إسرائيل التى تخطف الفلسطينيين واللبنانيين من الجنوب . ثم أخرج من حقيبته مجموعة الأوراق التى كان قد رتبها وقال لبرنار :

- خذ مثلا . هذه حالة السائق اللبناني سعيد دكر . أوقف الجنود عربية الإسعاف التى كان يقودها فى جنوب صيدا واعتبروه إرهابيا لأن السيارة كانت تتبع الهلال الأحمر الفلسطينى . عصبوا عينيه ووضعوه فى سيارة عسكرية أخذته إلى إسرائيل وانهالوا عليه ضربا بالعصى وكعبوب البنادق حتى حطموا عظام ساقيه فلم يعد يستطيع المشى . تعرض أيضا للتعذيب بالكهرباء مثلما سمعت بالأمس من بيدرو إيبانيز بالضبط . ها هى صور لأثار التعذيب بالكهرباء حول حلمتيه وهناك بالطبع آثار فى المواضع الأخرى . ومعك شهادة طبية محايدة عن حالته .

قال برنار وهو يتصفح الأوراق ويقرأ سطورها بسرعة : نعم ، هى حالات واضحة ولو أن اللغة المكتوبة بها رديئة جدا .

قال إبراهيم باستغراب : حقا؟ .. قال لنا الزميل اللبناني الذى ترجم هذه الأوراق إلى الفرنسية إنها لغته الأم !

فقال برنار - هو إذن ابن ميثوس منه ، وإن لم تكن هذه هي المشكلة .
أستطيع بسهولة أن أعيد صياغتها وأن أكتبها لك باللغة التي تجعلها قابلة
للنشر غير أن هذا لن يحل شيئاً ..

ثم أكمل بهدوء وهو يعيد الأوراق إلى إبراهيم : لن تجد صحفياً هنا مستعداً
لنشر هذا الكلام .

قال إبراهيم : لماذا ؟ .. أنا أعطيك حالات محددة بالأسماء وبالشهادات من
مصادر محايدة .

فقاطعه برنار - وأنا أصدقك مائة في المائة ، ومع ذلك فأتأ لا أستطيع أن
أنشر هذا ...

قال إبراهيم في خيبة أمل : ولكن لماذا ؟ ..

تطلع إليه برنار من خلف نظارته السمكية وهو يقول ببطء : أنت تعرف لماذا .
إن قلنا إن هناك جنوداً مسلحين يخطفون مواطنين عزلاً من السلاح من دولة
أخرى فهذا اتهام خطير ..

قاطعه إبراهيم : ولكني أعطيك دليلاً على ما أقول وأعطيك أسماء حقيقية ...

تردد برنار قبل أن يقول : لا يكفي . قلت لك أنا أصدقك ، ولكن كيف يصدقني
رئيس التحرير ؟ ماذا أفعل أنا أو يفعل هو لو جاعنا تكذيب رسمي وقيل لنا إن
هؤلاء فدائيون وإننا بذلك نشجع الإرهابيين ، أو قيل أخطر من هذا ، إننا نعدى
السامية بالدفاع عن هؤلاء الإرهابيين ؟

تمتم إبراهيم وكأنه يحدث نفسه : تعادى السامية ؟ ما الذى جرى للعالم ؟ ..
كنت أعرف أنى سأجد صعوبة ولكن ليس إلى هذا الحد .

فضحك برنار وهو ينظر نحوى قائلاً : لماذا تبتسون بسرعة ؟

لوح إبراهيم بالأوراق التي فى يده وقال : بسبب ما نراه .

سكت برنار لحظة ثم قال : ولكنك تعرف أن الصحفى كالتبيب . يجب أن

يبتعد مسافة ما عن الحالات التي يعالجها . يجب ألا تكون هي همه بالليل
وبالنهار إن أراد أن يعيش ...

قلت مازحا - إبراهيم صحفى ملتزم .

قال برنار - وحتى الصحفى الملتزم له حياته وله أفراحه وهمومه الخاصة .
أعرف صحفيا يعتبر نفسه ملتزما مثل إبراهيم .. تتوالى عليه منذ الصباح أنباء
العالم ومشاكله : الحروب والمجاعات والجرائم ، يهتم بها كثيرا ويحزن لها . ولكن
ما يوجع قلبه بالفعل طول الليل والنهار هو أن ابنه الذى أحبه ورياه ما إن كبر
قليلا ويكون أسرة حتى نسى أباه تماما . لا يكلف نفسه أن يطلبه بالتليفون مرة كل
أسبوع أو حتى كل شهر ليسأل عن حاله أو ليعرف حتى إن كان حيا أو ميتا ...
كان صوت برنار يمتلىء الآن بالمرارة ، ولم يبد لي أنه يتكلم عن مجرد
صحفى يعرفه . وسألت نفسى إن كان له ابن من صلبه ؟

غير أنه استرد نفسه بسرعة وقال وهو يلتفت إلى ابراهيم : أرأيت ؟ هذه
مشكلة صغيرة جدا ولكنها يمكن أن تشغل الصحفى أكثر من حرب لبنان .
اهداً... منذ جلسنا معا وأنت مشدود كالوتر ، مع أنك تعرف بالتأكيد ما هي
مشاكل المهنة . فلنفكر إذن فى حل لمشكلة هذه الأوراق التى تعذبك ...

وفى هذه اللحظة كانت إيلين صاحبة المقهى تتقدم نحونا بقامتها القصيرة
وشعرها الأشقر المصبوغ وهى تحمل فنجانى القهوة . وضعتهما أمامى وأمام
إبراهيم وهى تقول بابتسامة عريضة : صباح الخير ياسادة ..

وقالت لي : هذه هى قهوتك الطيبة كالعادة يا سيدى ! .. القهوة بنون كافيين..
وتحولت إلى برنار تسأله : كويا آخر يا سيد برنار ؟

نظر برنار إلى الكوب الذى فى يده متأملا ما بقى فيه قبل أن يتخذ قرارا ثم
قال لإيلين كأنما بشيء من الأسف - لا ، لا بد أن أعود إلى العمل . ولكنى سألتك
عن زوجك على ما أظن . إن كان هنا فقولى له إننا نود لو نراه ..

ظلت إيلين منحنية على المائدة وقالت : بالطبع هو هنا ولكنه فى المطبخ ، لابد من إعداد الغداء للزيائن كما تعلم ، هل أقول له ؟

- نعم .

انسحبت إيلين وتطلعنا إبراهيم وأنا فى تساؤل نحو برنار الذى قال لى :
- عندى لكما الآن مفاجأة .. سأقدمكما لمصرى مثلكما ، ولكن هذه ليست هى المفاجأة بالطبع . فالمصريون كثيرون هنا .. المفاجأة هى أنه زميل فى المهنة ! ..

دهشت حين رأيتة وهو يتقدم منا بمريلة المطبخ البيضاء . ترددت خطواته قليلا قبل أن يصل إلينا ثم عاد وخلع (المريلة) وعلقها فوق مشجب وجفف يديه جيدا فى فوطة قبل أن يتجه نحونا من جديد . كنت قد رأيتة مرات عديدة من قبل، وفى أول مرة لمحتة شعرت أنه مصرى مع أنه كان أشقر ولم تكن ملامحه تختلف كثيرا عن الأوروبيين . كان فى سحنته ذلك الشىء غير المحدد الذى يجعل أبناء كل بلد يتعرفون على بعضهم البعض . ولكنه فى المرات التى رأيتة فيها فى المقهى لم يظهر أى إقبال ولم يحاول أن يتحدث معى فقلت لنفسى ربما أخطأت فى تخمينى . أما ما أدهشنى الآن فهو اكتشافى أنه زوج لإيلين . كان أصغر منها فى السن بكثير ، وقلت لنفسى إن الفارق لا يقل عن عشرين عاما بأية حال . صافحنا بيد رطبة بما تشربته من المياه رغم ما بذله من جهد فى تجفيفها ، بينما كان برنار يشير إليه قائلا : السيد «يوسف» . ويعد التعارف سحب مقعدا وجلس على طرفه مطرقا ومحرجا .

قال برنار مشجعا : هيا يا يوسف . أدخل فى الموضوع بسرعة . السيدان صحفيان ومن بلدك .

قال يوسف : المسألة ليست سهلة وتحتاج إلى وقت .

قال برنار : مفهوم، المطلوب الآن أن تحكى الخبر باختصار . ألا تريد أن تكون صحفيا ؟ .. يجب أن تتعلم الإيجاز .

ثم التفت برنار نحوى وقال : وباختصار يوسف يريد أن يصدر صحيفة عربية من هنا . ويريد استشارتك فى الموضوع .

نظرت إليه باستغراب : تريد أن تصدر صحيفة مرة واحدة ! ... أنت مليونير ؟ فضحك يوسف وقال : لا . ولكن معى المليونير .

قلت : حتى ولو كان هذا صحيحا فهو لا يكفى . هل لك خبرة سابقة فى الصحافة ؟

قال متقلبا على خجله : نعم ولا . أقصد لم يسبق أن أصدرت صحيفة ولكنى كنت طالبا فى كلية الإعلام فى جامعة القاهرة ... منذ عدة سنوات .
سألته : ولماذا تركت مصر ؟

ضحك يوسف بصوت خافت وقال : هذا تحقيق صحفى أو تحقيق فقط ؟ قلت بما يشبه الاعتذار : لا ، هو مجرد فضول . لا ترد إن كان هذا يضايقك .
— لا يضايقنى على الاطلاق . كنت فى السنة الثالثة بكلية الإعلام وكان محكوما على بالسجن ستة أشهر ، لأننى اشتركت فى مظاهرة هتفت ضد السادات واشتبكت مع حرس الجامعة . هربت إلى ليبيا بعد صدور الحكم ومن ليبيا جئت إلى هنا .

قال إبراهيم بابتسامة صغيرة : إذن يا صديقى حالك من حالنا ...
فأشار يوسف بأصبعه لليمين واليسار قائلا : لا . حالى ليس من حال أحد .
ما رأيته منذ خرجت من مصر يكفى لكى ..
ثم سكت ..

فقال له إبراهيم : ولكن كيف وصلت إلى .. وتوقف قائلا لا ، لن أشارك فى هذا التحقيق .. معك حق يا يوسف ، كأننا نحاكمك .

وكانت تلك بالفعل هي المرة الوحيدة التي تدخل فيها ابراهيم في الحوار ، ظل يتابعنا بعينيه ولكنى لاحظت أنه بعيد إلى حد ما ..

وفى تلك الاثناء كانت (إيلين) تحوم فى المقهى ، تضع على الموائد الخالية المفارش والشوك والسكاكين ولكنها تختلس نظرة نحونا بين الحين والحين . وكان يوسف يتابعها أيضا بنظره وهى تتنقل بين الموائد .

قال برنار : طبعا أنا فهمت كل ما قلتموه باللغة العربية ، ولكن هل كل شىء على ما يرام ؟ .. هل اتفقتم ؟

قلت له : نحن بالكاد نتعرف على بعضنا البعض !

فضحك وهو يزيح كوبه - أخشى أنه لا يوجد وقت لأكثر من ذلك !

وبالفعل كانت إيلين تقترّب منا ووضعت يدها على كتف برنار وهى تسأله : هل انتهيتم ؟ .. يسألون عن يوسف فى المطبخ . هو الرئيس كما تعلم ! ..

ظلت هناك ابتسامة على شفثتها ولكن نظرة صارمه أطلت من عينيها وهى تقول : أليس كذلك يا يوسف ؟ .. يحتاجون إليك هناك .

لم يرد يوسف ولكنه قام قائلا : سأتصل بك بالتليفون يا أستاذ . أعرف اسمك وسأستخرج رقمك من الدليل .

هز رأسه محييا وهو يبتعد وإيلين وراءه . وعندما اختفى قلت لبرنار :

- هل هذه القصة الحقيقية أم أنها مجرد أحلام ؟ .. هل يوجد بالفعل

مليونير؟

رد برنار ببطء وهو يهز رأسه مؤكدا : هو ليس مليونيراً فقط ، بل أمير عربى أيضا . ليس أميراً فقط بل أمير تقدمى أيضا .

كررت باستمتاع : ليس أميراً فقط ، بل تقدمى أيضا .

فقال برنار : أنا لا أمزح . هو أمير من بلد فى الخليج ، كان يوسف يعمل معه فى وقت من الأوقات ، وهو الآن يريد أن يصدر هنا صحيفة باللغة العربية ، وكلف يوسف أن يدرس له المسألة ..

مدينة هو الأشجار والخضرة . ومع الشيخوخة أصبحت أبحث عن كل ما يذكرني
بطفولتي .. بمجرى النيل وبأشجار الجميز والصفصاف . أنا فلاح كما تعلم! ...
يمكن أيضا أن نذهب إلى مقهاك بجانب النهر .

- سنذهب إلى هناك للغداء إن أردت . ولكن هناك حديقة صغيرة بالقرب من
هنا وأنا أيضا أحبها . أسميها حديقتي السرية .

وبينما كنا فى طريقنا من وسط المدينة المزدحم نجتاز شارعاً جانبياً يهبط
نحو النهر سألتني إبراهيم بطريقة عابرة :

- إلى أين أخذت بريجيت بالأمس ، أو أين أخذتك هي ؟

فقلت : أوصلتها حتى بيتها .

.. هل أقول له أيضا لو سألتني إننى صعدت إلى شقتها ؟ وماذا سيظن لو قلت

له ذلك ؟

لكن إبراهيم لم يسألنى عن شيء .. وعندما وصلنا إلى واجهة بناية قديمة
دلّفنا من بوابتها المقوسة واجتزنا ممرا صغيرا فأصبحنا فى الحديقة التى
تتوسط باحة كبيرة بين عمائر قديمة ترجع إلى قرن مضى على الأقل . وكانت
بالفعل حديقة سرية جميلة لا تراها من أى مكان فى الطريق .

توقف إبراهيم فى مدخل الحديقة مبتسما وظلل يديه بعينيه وهو يدور ببصره

بين أشجارها وقال لى بطريقة عابرة : هل تأتى هنا لتحب ؟

فرددت أيضا بلهجة عابرة :

- ألم تكن أنت الذى قلت بالأمس إننا تجاوزنا هذه السن ؟

لم يرد إبراهيم وراح يسير ببطء وأنا أتابع خطواته وسط الممرات التى تحف
بها أشجار الحور العالية بخضرتها الكثيفة وأشجار الكستناء التى بدأت تطرح
ثمارها الخضراء المستديرة . سار يتأمل أيضا أحواض الزهور على جانبي
الممرات ، وكانت ورودا تشرع أوراقها الحمراء والصفراء فى زهو الفتوة مع

الصيف الجديد ، و إلى جوارها أحواض أخرى لزهور البانسيه ، فى ألوان مختلفة بيبضاء وبنفسجية وبنية ، وفى قلب كل منها خاتم أصفر مستدير من نقط صغيرة كالوشى المنمنم . ويدا إبراهيم مستغرقا تماما فى تأمل تلك الزهور فلم تتبادل كلمة إلى أن جلسنا على مقعد فى ركن يشرف على الحديقة كلها .

ظللنا نجلس صامتين وكل منا مستغرق فى أفكاره . ولكن إبراهيم هو الذى قطع ذلك الصمت حين سألنى دون أن ينظر نحوى :

– ما هو عمر ابنك ناصر ؟

التفت نحوه فى شىء من الدهشة : اسمه خالد كما قلت لك . عما قريب سيصبح عمره ٢٠ سنة . ولكن غريب حقا أن تسألنى عنه الآن . كان خالد على بالى فى نفس اللحظة التى سألتنى فيها عنه . ولكنى كنت أفكر فى أن اليوم هو موعد مكالمتى معه . أما أنت فما الذى ذكرك به؟

– تذكرت عندما كنت فى مثل عمره .

قلت بقلب مثقل : بالتأكيد أنك كنت تختلف عنه

– كيف ؟

– خالد تغير كثيرا فى الفترة الأخيرة . كان شابا عاديا يحب الرياضة ويحب قراءة الأدب والشطرنج بصفة خاصة . كنت أنا الذى علمته الشطرنج ولكنه بدأ يهزمنى حتى وهو فى سن ١٤ أو ١٥ وأسعدنى ذلك مثل كل أب .

وتوقفت قليلا قبل أن أكمل : وكان أيضا متدينا طول عمره ، أما الآن فقد ذهب بعيدا ..

– تقصد أنه انضم إلى الجماعات أو شىء من هذا النوع ؟

– لا ولكنه أصبح يغالى كثيرا ، حتى طريفته فى الكلام تغيرت .

ثم غلبنى الحزن وأنا أقول له : هنادى تقول لى الآن إنه لم يعد يشاهد التلفزيون وإنه يريد منها أيضا ألا تشاهده .

ضحك إبراهيم وقال : فى هذا بالذات معه حق ! .. التليفزيون عندنا جهاز للتخلف العقلى.

أراد إبراهيم فى الغالب أن يغير الجو وحين رأى أنى لم أستجب له قال :

- اسمع يا صديقى، هذه مرحلة من العمر . هل يدهشك لو عرفت أننى فى مثل سنه أو عندما كنت أصغر منه قليلا لم أكن أغادر المسجد ؟ لم أكن أكف عن الصلاة ، وأكرر الوضوء لأن وسواسا أتانى أنى قد نقضت وضوئى وأستغفر الله لذنوب لم أرتكبها . استغفر لمجرد أفكار محرمة طافت فى ذهنى. كنت أبكى وأنا أدعو الله أن يغفر لى هذه الأفكار الشريرة وأعد بالتوبة عنها ..
- كلنا مررنا بذلك .

- وإذن فلماذا تخاف على خالد ؟ .. هو أيضا سيجد طريقه . هيا - مرة أخرى أنا أسف لأنى أبعث أفكارا مزعجة . هيا .. فلنترك هذه الأفكار .. سأقول لك الآن شيئا يدهشك بحق ! .. هل تصدق أن حديقة منزلنا فى القرية كانت بمثل هذا التنسيق والجمال ؟ .. لم يكن أبى يتساهل مع البستانية أبدا لو حدث أى إهمال .

حاولت الابتسام وأنا أقول : سمعت أنه كان قصيرا لا منزلا .

- لا ، هذه مبالغة . كان بيتا كبيرا ، ولكنه كان بيتا جميلا ..

ثم سكت لحظة قبل أن يضيف وقد غلبه هو الاكتئاب فى هذه المرة :

- ولكنى لم أعرف فيه السعادة أبدا ..

- حتى أنت ؟

تطلع إبراهيم نحوى وقال فى ببطء : ماذا تقصد حتى أنا ؟ .. نعم ، حتى أنا! .. سمعتك مرات تتحدث عن طفولتك الفقيرة وصدقنى أننى فى بعض الأحيان كنت أحسدك ! .. كنت أسأل نفسى لماذا لم أكن أنا أنت ؟ .. لماذا لم أكن أى إنسان آخر بدلا من أن أكون أنا ؟ .. أحيانا ما تأتينى هذه الأفكار الغريبة ..

- هل كانت طفولتك شقية حقا إلى هذا الحد ؟

ولكنه واصل كأنه لم يسمعني : أسأل نفسي كثيرا في هذه الأيام ، ما هي تلك المصادفات التي تتحكم فينا وتصنعنا ؟ هل كان من الضروري حقا أن أولاد ابنا لمالك الأرض في القرية ؟ .. وهل كان من الضروري أن يملأ أبي البيت بالكتب التي يقتنيها ويجلدها ويطبع عليها اسمه بالخط النسخ المذهب دون أن يفتح منها كتابا ، ثم يترك لي أنا هم القراءة منذ تعلمت القراءة ؟ .. ماذا لو أن شيئا من ذلك لم يحدث ؟ هل كانت حياتي ستفسد من أولها ؟ .. هل كانت عيني ستقع على العطب في كل شيء ؟ .. لماذا لم أستمتع بهذه الحياة مثلما يستمتع بها كل إنسان؟..

بدأ إبراهيم أسئلته بهدوء ثم تسللت نبرة من التوتر إلى صوته . وأوشكت أن أقول له إن هذه الأفكار ليست «علمية» ، ولكني أمسكت لساني حين رأيته يحك جبينه بيده ويحديق أمامه مباشرة ، وكأنه يبحث الآن في هذه الحديقة ، عن إجابة للأسئلة التي عذبتة طويلا .

عاد ينظر نحوي أخيرا ويكرر سؤاله بصوت خافت : لماذا ؟ الآن أسأل نفسي: متى بدأت همومي . هل كانت أمي هي السبب؟ .. ربما . هي أول حزن وعيت عليه في حياتي دون أن أفهم سببه . ما زلت أراها هناك في بيتنا الكبير في القرية .. في البيت الكثير الغرف ، المملوء بالأثاث وبالصور وبالكتب .. تتحرك وحيدة من غرفة إلى أخرى .. ترفع أشياء ثم تضعها مكانها . تقول للخدم الكثيرين أوامر ، ولكن بصوت غير واثق كأنها تتوسل إليهم ثم بسرعة تسحب ما أمرت به .. تقول للخادم : إن كنت متعبا أجل هذا العمل لبعد الظهر ولا داعي للعجلة .. الدنيا لن تطير .. تكاد تعتذر له عن وجودها . في الصباح كانت تشغل نفسها بوضع الزينة .. أحمر الشفاه والكحل للعيون وتلبس ثوبا للخروج ومجوهرات كثيرة ثم لا تخرج من البيت ، ونادرا ما يزورها أحد . فقط تتحرك في غرف البيت وتتهدد . أما أبي فلم أسمعه يناديها باسمها أبدا . كان يقول لها دائما

الفصل الخامس

كم أنت جميل !

عندما فتحت باب الشقة أطل على عبد الناصر مبتسما من صورته الملونة على الحائط . وكانت فى يدي الأشياء التى وجدتھا فى صندوق البريد : أعداد من الصحيفة مرسله من القاهرة وأوراق الإعلانات الكثيرة . فرزت الصحف ولم أجد من بينها عدد الخميس الذى تكتب فيه منار بابها الأسبوعى ، فوضعت الأعداد الجديدة على المكتب فى الصالة فوق الصحف الأخرى .

جلست الى المكتب وبدأت أحاول الاتصال بالقاهرة . بدأ قلبى يدق كالعاده وأنا أطلب الرقم متطلعا إلى صورة خالد وهنادى فى البرواز الموضوع على المكتب . حاولت مرات كثيرة دون جدوى . كالعاده كانت هناك إشارة الخط المشغول حتى قبل أن أنتهى من إدارة الرقم، أو صمت مطبق بعد أن أنتهى من إدارته يستمر طويلا فأضطر إلى معاودة الطلب من جديد . كنت معتادا على ذلك وأعرف أنه لا حل غير تكرار المحاولة مرات لا حصر لها فبدأت أدير الأرقام بأصبعى فى القرص بصورة آلية وأنا أختلس النظر إلى عناوين الصحيفة التى أمامى . وفجأة دون أن أشعر ودون رنين مسبق أتانى صوت هنادى كالمفاجأة :

« ألو .. بابا ؟

- أيوه يا حبيبتي .. إزيك يا هنادى ؟

- هلكانة من المذاكرة ، والدنيا حر جدا .

- معلش شدى حيلك يا هنادى هانت .. الامتحان الأسبوع الجاي ، مش

كده ؟

- أيوه . ادعى لى يابابا ؟

- بادعى لك دايميا يا حبيبتي بس عايزين مجموع حلو فى الإعدادية السنة

دى .

- حلو يعنى كام كده يا سى بابا ؟
- على قد ماتقدرى. يعنى نقول ٩٠ فى الماية مثلا ؟
- نعم!؟ ده إحنا ٦٠ فى الماية نبوس إيدنا وش وضهر .. و ٥٠ فى الماية حلو برضه ، مالها الخمسين ؟ هو أنا حادخل الجامعة بالإعدادية ؟
- ماهو لو ماكنتيش من دى الوقت .. ولا أقول لك ! خلاص إنتى ذاكرى ويس .. وما تفكريش ولا فى مجموع ولا فى أى حاجة تانية ..
- أنا مش بافكر فى المجموع ، بس أنا با أفكر فى حاجة تانية مهمة جدا .
- إيه هى ؟
- هدية النجاح طبعا ياسى بابا !
- يعنى ؟
- يعنى تتقل جيبك كويس جدا، لأنى السنة دى عايزة تعمل لى اشتراك فى النادى بتاع الفروسية . عايزة أتدرب على ركوب الحصان .
- ودى حاجة كتيرة يعنى ؟
- قول مثلا خمسمائة ، ألف إزاي ما حضرتك تحب .
- ألف؟ معقولة ؟ وكل ده عشان ٦٠ فى الماية ، أمال لو كانوا ٩٠ ؟
- كنت حا أقول لك اشتري لى عربية طبعا ! .. خد يابابا .. أهو خالد الصمام بتاع الامتياز والتسعين فى الماية والحاجات ده . باى باى بابا .
- باى باى يا هنادى . ألو ؟
- جاعنى صوت خالد عميقا ووقورا وهو يقول بالفصحى :
- السلام عليكم .
- وعليكم السلام ياخالد .. إزيك يا ابنى ؟
- الحمد لله يابابا .. وأنت إزاي صحتك ؟ كويس إن شاء الله ؟
- كويس جدا . صحيح جيت امتياز يا خالد؟

- يا بابا ما تصدقش البنت اللمضة دى . النتيجة لسه ماطلعتش .
- حا تطلع إمتى ؟
- الأسبوع الجاى إن شاء الله .
- وحاتي على طول بعد النتيجة . مش كده ؟
- بعد النتيجة ؟ .. لا . أصل أنت عارف يا بابا .. لازم أحضر للمشروع بتاع السنة الجاية .. وحاجات تانية ..
- يعنى حا تيجى إمتى يا خالد ؟ .. أنا مشتاق لك جدا يا ابنى ، وعازيك تقعد معايا أسبوعين أو ثلاثة قبل ماتروح على مسابقة البطولة بتاعتك .
- أنا كمان مشتاق لك جدا يا بابا .
- يعنى حا تتأخر قد إيه يا خالد ؟
- بصراحة يا بابا .. مش عارف .
- ليه يا ابنى ؟
- سكت خالد لثوان قبل أن يقول : اسمع يا بابا أنا بصراحة اعتذرت عن السفر للمسابقة .
- اعتذرت ؟ ليه يا خالد ؟ مش عاز تشوفنى ولا ايه ؟
- لا سمح الله يا بابا . الحقيقة صعب إنى أقول لك مش حا آجى أشوفك لأنى مشتاق لك فعلا . لكن أنا ما أحبش الكذب ...
- تكذب ؟ .. فيه إيه يا ابنى ؟ .. إنت تعبان ؟ فيه حاجة ؟
- لا يابابا ، أنا كويس جدا الحمد لله . بس بصراحة أنا قريرت فتوى بقول إن الشطرنج حرام .. وأنا مقتنع بالكلام ده .
- حرام ؟ الشطرنج ؟
- سكت خالد لثوان قبل أن يقول بلهجة قاطعة : أيوه يابابا .. حرام .

★★★

ظلت فترة بعد المكالمة أقف مستندا بيدي إلى المكتب ثم دخلت المطبخ لأعد فنجان القهوة الذي كنت أنتويه . ولكنى بدلا من ذلك جلست على المقعد الصغير هناك ورحت أتطلع ساهما من نافذة المطبخ إلى العمائر المقابلة وإلى السماء والأشجار ، مشئت الذهن ، لا أستطيع أن استجمع فكري .. وأخيرا وجدتني أتمتم بصوت خافت :

- حرام . بالفعل حرام !

★★★

كان إبراهيم ينتظرنى فى صالة الاستقبال بالفندق ولوح لى بيده ميتسما بمجرد أن رأتى أدخل من الباب . ولكن عندما اقتربت منه وقف ويدا فى وجهه الانزعاج وهو يسألنى : ماذا بك ؟ أنت مريض ؟ قلت : لا ، أقصد هو مرضى العادى ، الضغط المرتفع . أحيانا يشتد ويسبب صداعا شديدا كما تعلم .

- ولكن لماذا خرجت ما دمت متعبا ؟ .. كان يمكن أن تتصل بالتليفون وكنت سأفهم .

- لا تهتم يا إبراهيم . أخذت حبة العلاج للضغط وسأصبح عاديا بعد قليل .

وكنا قد اتفقنا منذ الظهر أن نأخذ فى هذه الليلة هدنة من كل شىء وأن نذهب معا الى السينما . رأى إبراهيم إعلانا عن فيلم لورانس العرب وقال إنه شاهده منذ عشر سنين ويود أن يراه مرة أخرى لأنه أحب موسيقى الفيلم كثيرا . وأخذ يحاول أن يثينى عن الذهاب الى السينما قائلا : إن الافضل أن أرتاح ولكنى أقنعتة بأننى محتاج أيضا إلى شىء من الترويح وأن لورانس قد يكون مفيدا الآن .

قال إبراهيم : إذن سنتكلم عن ذلك فيما بعد . الآن ستأتى معى لنمر على الدكتور مولر . وعدنى بالأمس أن يعطينى قائمة كاملة بالمنظمات والجمعيات التى يمكن أن أرسلها .

- اتفقنا على هدنة من العمل في هذا المساء ، أليس كذلك ؟

قال إبراهيم مبتسما : نعم ، ولكنى أخذت الموعد مع مولر منذ أمس ، وإن تستغرق المقابلة طويلا على كل حال .

كانت المسافة قصيرة حتى الفندق الآخر . وبينما كان إبراهيم يحاول إقناعي مرة أخرى أن أرتاح هذه الليلة ، لم أتمالك نفسي «فحكيت له كل شيء عن مكالمة خالد . كنت أغالب دموعا وأنا أحكى له ولكنه قال لى بهدوء :

- لا تلمه يا صديقى . قلت لك هو الآن في سن البراعة . ليس معنى هذا أنه لا يحبك أو أنه لا يريد أن يراك . ولكن ما يؤمن به الآن أهم من حبه لك ومن حياته ذاتها . ألا تذكر أنت كيف كنت ؟ .. هل فكرت في حياتك عندما دخلت بورسعيد تحت غارات الانجليز ؟

- المسألة تختلف . أيامها كانت هناك قضية ..

قاطعني إبراهيم : تؤمن بها ؟ .. وهو أيضا يؤمن بقضيته ، فلماذا تختلف المسألة ؟ في مثل سنه تقريبا أنت أردت أن تضحي بحياتك ذاتها ، وهو ضحى بشئ أقل بكثير . ضحى برحلة كان يمكن أن يلقاك فيها .

- المسألة تختلف . في رأسي فكرة لا أستطيع أن أشرحها لك بوضوح ولا حتى أن أشرحها لنفسى .. أقصد .. إن ما كنا نفعله في شبابتنا كان من أجل المستقبل .. من أجل الحياة .. ما ألاحظه بالتدريج عند خالد نوع من النفي الكامل للحياة .. المستقبل هو مابعد الموت فقط .. بالأمس أنت شرحت كيف كنا في مثل سنه .. تلك الأحاسيس بالذنب حتى على الفكرة أو الخاطرة الشريرة .. ألم يكن هذا قبل أن نكتشف أننا لسنا ملائكة ولا شياطين ؟ اننا بشر نخطئ وننوب ؟

قال إبراهيم ضاحكا : كنت أحدثك عن ذكرياتي ولكنى لست حجة في شؤون التوبة . أنا الآن إن كنت قد نسيت رجل ماركسى ! .. وعلى العموم فانت لم تبق مع خالد لى ..

توقف إبراهيم عن الكلام وغمغم باعتذار ولكنى تابعت فكرته :

- أفهم ماتريد أن تقول . لو بقيت معه لكان يمكن أن أوثر عليه . ولكن

كيف كان يمكن أن أبقى ؟ .. منار وأنا عودنا خالد وهنادى منذ الصغر على الإقناع والاقتناع وعلى حرية الاختيار . بعد الطلاق اختار هو أن يبقى مع أمه وأخته ، وكان هذا من الأسباب التي دعنتني الى السفر . كان صعبا على أن أكون فى المدينة نفسها مع أولادى ولكنى بعيد عنهم . ترتب مواعيد للقاء مثل الأصدقاء والغرباء . مثل ..

سكت قبل أن يختنق صوتى بالدموع التى كنت أقاومها ، وكنا قد اقتربنا من فندق مولر فحاولت أن أهدىء نفسى قبل أن نترك ظلام الطريق الى صالة الفندق .

★★★

كان مولر يجلس فى البهو ومعه بريجيت ، يحتسيان البيرة صامتين وواجمين . فهمس إبراهيم فى أذنى ونحن نتقدم منهما :

- يبدو أنه هنا أيضا قد حدث شيء ما ، ولكن ماهو ؟

كان وجه مولر الذى يشبه القناع عادة مكفهرًا ومتوترا فى هذه اللحظة . ولكننا عندما جلسنا أخرج من جيبه ظرفا أبيض كبيرا وقال :

- لم أتسك ياسيد إبراهيم . ستجد هنا كل العناوين .

فتح إبراهيم الظرف ورأيت ورقة طويلة مقسمة الى خانات مكتوبة بخط اليد لكنها منظمة ومنسقة تماما أكثر من أية ورقة مطبوعة .

وقال إبراهيم بعد تصفح الورقة : شكرا يا دكتور مولر . لن نعطلك أكثر من هذا . وهم بأن يقوم .

ولكن مولر قال : انتظر ، لو سمحت . ربما يمكن أن تساعدانى .

ثم التفت نحوى وقال : ربما أنت أيضا بالذات يمكن أن تساعدنى .

ثم سكت لحظة قبل أن يقول : بيدرو اختفى .

قلت : من بيدرو ؟

تذكرت فجأة وخجلت من نفسى لأنى نسيته قبل أن يرد دكتور مولر قائلا :

– بيدرو إيبانيز ، الذى كان فى المؤتمر الصحفى ، أخذ حقايبه وترك

الفندق .

بدأ الدكتور مولر يشرح لنا أنه تعب كثيرا حتى حصل على تأشيرة الدخول لبيدرو لكى يتحدث فى المؤتمر ، فهم لا يرحبون هنا باللاجئين من شيلي ولا من أى بلد آخر . ولذلك فإن التأشيرة لا تسمح لبيدرو بالبقاء ، أكثر من أسبوع واحد . ورغم علمه بذلك فقد أخذ حقايبه وترك الفندق دون كلمة .

قال إبراهيم : ولكن لماذا تعلق الى هذا الحد يادكتور ؟ .. بيدرو ليس طفلا وهو يستطيع أن يتحمل مسئولية ما فعل .

رد مولر فى توتر ولكن بتلقائية : المشكلة الآن ليست بيدرو لكنها المنظمة .
اختلفت لحظتها النظر الى بريجيت فبادلتنى النظر وعلى شفقتها ابتسامة باهتة ، ولكن دكتور مولر لم يلاحظ شيئا واندفع فى شكواه قائلا إنه يخشى ألا يظهر بيدرو قبل انتهاء موعد التأشيرة فتواجه المنظمة متاعب فى البلد : ربما يقولون إن المنظمة تشجع الهجرة غير المشروعة فتسوء سمعتها هنا ، وهو يخشى إن حدث ذلك أن تهتز صورة المنظمة فى البلاد الأخرى أيضا .

سأل إبراهيم فى شىء من الحيرة :

– ولكن ما هى المشكلة بالضبط مع ذلك يا دكتور مولر ؟ لماذا هرب بيدرو؟
قال مولر مبتسما : هذا ما أود أن أعرفه .

ولكن بريجيت وضعت كوب البيرة بعد أن رشفت جرعة كبيرة وقالت :
ولكنك بالتأكيد تعرف يادكتور ! تعرف أنه منذ هرب من شيلي لم يحصل على إقامة شرعية فى أى مكان . وتعرف أنه كان يقيم فى النمسا فى مركز الاستقبال للهاربين من بلادهم وأن هذا المركز يشبه السجن .

قال مولر محتجا : كانوا يبحثون حالته وكانوا سيقبلونه لاجئا فى النهاية.
من المؤكد أنه كان سيخرج من مركز الاستقبال .

فواصلت بريجيت بلسان ثقيل الى حد ما ولكنها تحاول مع ذلك أن تكبح

انفعالها : وكم كان سينتظر يا دكتور ؟ ... شهورا أم سنوات ؟ وكم تظن أن الإنسان يحتمل البقاء فى معسكر الاستقبال هذا ؟ .. أنت رأيتهم هناك فى المعسكر المجاور لبلدتنا . دك من قسوة الحراس ، كم تظن أن الإنسان يحتمل نظرات العداة والكراهية من سكان بلدتنا الوديين ؟

غلب الغضب مولر فقال بالرغم منه : هو كان هاريا من شىء أسوأ .. وكان يجب أن يقدر ما فعلته المنظمة من أجله !

قالت وهى ترفع الكوب مرة أخرى الى شفيتها : نعم .

ثم رجعت تسترخى فى مقعدها . كانت تلبس بنطلونا من الجينز وبلوزة بيضاء خفيفة وقد تركت شعرها يسترسل فى إهمال ، وبدت فى جلستها صورة للهمود والاستسلام .

ألقى إبراهيم نظرة سريعة نحوها ثم التفت الى مولر وقال بحرارة وانفعال حقيقيين : هذه مسألة تستحق أن نعمل من أجلها بالفعل يا دكتور . أصارحك أننى منذ حضرت ذلك المؤتمر بالأمس وأنا أشعر بالهم وينوع من الذنب نحو هذا الإنسان . أنا ساكتب عنه فى صحيفتى الصغيرة ، ولكن كيف يفيد ذلك ؟ والآن أنت تقول إننا يمكن أن نساعدك ، صديقى وأنا ، كيف ؟

قال مولر : نعم . «ثم التفت نحوى وأكمل» .. لايد أنك كصحفى مقيم هنا تتصل بجهات كثيرة وبأشخاص يمكن أن يساعدونا فى البحث عنه . أقصد بالطبع بعيدا عن الشرطة ..

ولكن قبل أن أرد هتفت بريجيت فجأة وهى تحدق فى إبراهيم : أيها الرجل كم أنت جميل !

ساد الصمت لحظة ، وصعد الدم إلى وجه إبراهيم ويدا على مولر نوع من الغضب ولكنه ابتسم فجأة للمرة الأولى وهو يقول بلهجة يائسة : ابنة هانز شيفر! ثم تحول نحونا وأكمل : هكذا أبوها منذ عرفته من نصف قرن ! يفاجئك دائما بالعبارات الغريبة فى الوقت غير المناسب ..

قالت بريجيت : ولكن كل الأوقات مناسبة لتقول المرأة للرجل إنه جميل !

فتدخلت أنا : دائما ما كنت أقول لإبراهيم إنه أخطأ طريقه للصحافة ،
وإنه كان سيصبح نجما عالميا لو اشتغل بالسينما !

لكن إبراهيم صاح غاضبا : كفى !

كان وجهه محتقنا وعابسا ولكن بريجيت اعتدلت فى مقعدها وتابعت
تخاطبني وهى تنظر الى ابراهيم : لا . نجوم السينما كالدمى ، أشياء مرسومة
بالسنتيميتر المربع ! الجميل فى إبراهيم تلك الحياة فى وجهه ربما لو تأملته
بالتفصيل فستجد مثلا أن فمه ..

فهتف ابراهيم مرة أخرى ولكن بما يشبه الضراعة : كفى أرجوك ! ..
نحن نتكلم عن شيء أهم ..

فقال بريجيت : هل أغضبتك ؟ أنا أسفة !

وقال مولر بلهجة حكيمة : فى مثل سن إبراهيم ، لا يسعد الرجل بأن يقال
عنه إنه جميل . بل أن يقال إنه ذكى مثلا ...

فردت بريجيت متشككة - تعتقد ذلك ؟ لا أفهم ماتعنيه بالسن . ولكنى
أعرف رجالا أنكيااء مستعدين للتنازل عن كل ذكائهم مقابل أن يسمعوا ..

ثم وضعت بريجيت كوب البيرة على المنضدة أمامنا وأصبح وجهها جادا
تماما ..

حدث لها ما يحدث للأشخاص الذين يشعرون أنهم يتكلمون بتأثير الخمر ،
فسكنت دون مقدمات .

وبعد فترة التفتت الى ابراهيم بتلك النظرة الجادة وقالت : أسفة إن كنت
قد أغضبتك .. غير أنها لم تتمالك نفسها فتابعت وهى تضحك : ولكن ماذا أفعل
إن كنت جميلا فعلا ؟ أنا لا أعازك ولا أى شيء ، أريد فقط أن أقول إنك جميل !
وتابعت ضحكات قصيرة متقطعة وهى تضع يدها على فمها .

نظر إبراهيم الى ساعته ولكنى قلت له : لا تنظر الى الساعة . لورانس
العرب يركب الآن جملا فى الصحراء وقد قطع به مسافة طويلة !

ثم سألتني : هل تضمن له أو يضمن له الدكتور شيئا أفضل مما يحاوله هو بنفسه؟ ولم يكن عندي رد ولكن برنار وافق مع ذلك على أن يقابل مولر . وظل يصحبنا في أمسيات الأسبوع مع ابراهيم ومولر الى الجمعيات التي تعنى باللاجئين والى الأحياء الفقيرة التي تأوى الأجانب المقيمين بصورة غير شرعية، غير أننا لم نعرثر على أثر لبيدرو حتى أوشك الأسبوع ان ينتهى .

وفى خلال تلك الأيام أيضا كنت أذهب الى إبراهيم فى الصباح لكى أصحبه الى مواعيده المختلفة مع الصحفيين ورجال الأحزاب السياسية ومع بعض العرب المقيمين فى البلد . أراد أن يكتب سلسلة من المقالات بعد أن يعود إلى بيروت ، وبدأ يجمع المعلومات التي تفيده وظل فى أثناء ذلك كله يعرض وثائقه عن المختطفين فى لبنان فيعدونه بتهذيب شديد بأن يبحثوا المسألة ولكنهم يختفون بعد ذلك . وكنا بين الحين والآخر نرى «الطالبة» فى صالة الفندق أو نجدها فجأة فى أحد المقاهى التي نجلس فيها ؛ يظهر معها فى بعض الأحيان شاب رياضى ويتصرفان كحبيبين يتعانقان ويقبلها وتقبله ولكن دون أن نغيب عن بصرهما . غير أنها كانت «تهجر» حبيبها فى بعض الأحيان فيضطر الى أن يتبعنا وحيدا .

وكان المكان الوحيد الذى صمم ابراهيم ان يذهب اليه بمفرده هو مكتب الحزب الشيوعى . يومها قابلنى فى المطعم بعد عودته مشرق الوجه وعيناه تلمعان بالزهو . قال لى : أخيرا رأيت أوروبا الحقيقية ! أخيرا عرفت أوروبا التي لم تعرفها أنت ! تصور أنهم هنا أيضا يضطهدون الشيوعيين كما يضطهدونهم فى بلدنا .. تصور أن الشرطة تلاحقهم وتراقب تليفوناتهم وأنهم يضيقون عليهم فى الوظائف والأعمال التي يجدها بكل صعوبة ، بل تصور أنهم أحيانا لا يوافقون على إسكانهم فى البيوت الرخيصة التي تبنيها الدولة لمجرد أنهم شيوعيون !

سألته فى دهشة : ولكن ما الذى يسعدك فى كل هذا يا إبراهيم ؟

فرد بفخر : وجدت الرفاق هنا فى منتهى الصلابة ، رغم كل هذا

الاضطهاد !

وبصعوبة منعت نفسى من الابتسام أو هكذا ظننت ، لأنه تابع حديثه

بغيرة تأنيب : أنت تسخر من هذا ؟ اسمع !.. كل ذلك الاضطهاد يملؤنى بالأمل على عكس ماتظن . هم هنا أقلية صغيرة ، أعرف ذلك جيدا ، وصحيفتهم بحجم الكف كما قلت أنت ، ولكن لماذا يخافون منهم إلى هذا الحد وهم أقلية ؟ لا يوجد حزب شيوعي فى أوروبا يحمل السلاح أو سيحمله فى أى يوم لكى يسقط الحكم ، فلماذا يخافون منهم ؟ .. هل تريد أن تعرف الجواب ؟ لأنه طال الزمن أو قصر فهم البديل لأزمة أوروبا ومشكلة العالم .. هم المستقبل وهم حتمية التاريخ .

قلت فى ذمهم : ولكن يا إبراهيم ولا أعتى الشيوعيين يقولون ذلك الآن ! .. ولا حتى الكرملين نفسه يحلم بأن يحدث هذا فى الغرب ، ما الذى جرى لعقلك ؟

وهكذا كان يمضى بيننا النقاش على الغداء أو فى السيارة . نعاود الشجار والخلاف كما كنا نفعل أيام الشباب .. ورغم أننا لم نتفق على شىء أبدا فقد كان صادقا تماما عندما قال أول ما التقينا محا الموت أسباب العداوة بيننا . نما بيننا فى خلال أيام قلائل نوع من التقارب والود الحقيقى رغم استمرار الخلاف . وكاننا كنا فى عمق دفين من نفسينا لا نأخذ كل ذلك الخلاف مأخذ الجد .. نتناقش لجرد المحافظة على الشكل غير أننا نشعر أننا شبحان من عصر مات .. نعرف أن عبد الناصر لن يبعث من جديد وأن عمال العالم لن يتحدوا . ولكننا لم نقل ذلك أبدا ، بل كنا نقول عكسه باستمرار . كنت أقول له لكى أقنع نفسى قبل أن أقنعه إن الشعب لن ينسى ما فعله من أجله عبد الناصر .. إن الناس فى قريتنا لن ينسوا أنه هو الذى بنى الوحدة الصحية فى بلدة مات نصف سكانها من الملاريا ذات يوم ، ولم تكن تعرف قبله غير طبيب الصحة الجوال الذى يأتيا مرة كل شهر .. لن ينسوا أنه بنى مدرستين ووزع على الفقراء الأرض وأنه عين أبناء هؤلاء الفقراء فى المصانع التى بناها . وكنت مثل إبراهيم أتمس اليقين فى أشياء صغيرة . أقول له إننى منذ أيام جعلت أحد الأصدقاء يستمع الى جزء من خطبة لعبد الناصر فلمعت فى عينيه الدموع ! .. أنكره بأن الناس فى مصر بعد أن قيل عن عبد الناصر كل ما قيل خرجوا سنة ٧٧ يحملون صورته ويهتفون باسمه .. أقول له معنى هذا أن ثورته ستصحو على أيدي الناس مرة أخرى ذات يوم ، أقول أشياء كثيرة وإبراهيم يستمع إلى وهو يهز رأسه فى عناد ويكرر :

ولكنه حارب حلفاءه وقرب أعداءه فضيعوا كل شيء . ثم من الذى أتى بالسادات ؟
- وأحاول الرد فيبدأ من جديد الانفعال والشدة والجذب .

ولكن مرة ونحن فى نومة النقاش توقف إبراهيم فجأة وسألنى : اسمع ..
بم تحاول أن تقنعنى ؟ .. أن أغير الآن رأيى وأنضم اليك ؟ فى هذا العمر ؟ ..
الأفضل أن أنتحر !

فعلمت أنه مثلى .. يتشبث بيقينه لكى لا ينتهى عالمه . لكى لا يضيع الحلم
الذى دفعنا فيه ثمننا عمرا بأكمله !

ولكن قرب نهاية الأسبوع قل اهتمام إبراهيم كثيرا بهذه المناقشات . كان
فى البداية يغمغم بشكوى مبهمه .. قال لى مرة إننى وإن يكن زواجى قد فشل
ومررت بمحنة ، إلا أننى أسعد منه حالا لأننى عرفت على الأقل فى حياتى حبا
حقيقيا كاملا . كرر لى ما قاله من قبل : إن حاجزا كان يقف بينه وبين كل امرأة
عرفها وإنه لا يدرى ماهو ؟ ... ثم ما الفائدة أن يجد الإنسان ما ظل يبحث عنه
طول عمره ولكن بعد فوات الوقت ؟ ولم أكن فى العادة أرد على أسئلته ، أعرف
أننى يمكن أن أساعده بالصمت أكثر . مما أساعده بالثرثرة .

وقبل أن يسافر بيومين التقينا على العشاء فى المطعم المطل على النهر ..
ولم يكن هو إبراهيم الذى أعرفه . جاء متأخرا قليلا عن الموعد وجلس فى مواجهة
شاحبا وهو يشبك يديه أمامه على المائدة وإن لم يوقف ذلك ارتجاف أصابعه
ويديه . خيل لى أن كل شيء فيه يرتجف وهو يهز ساقه بعصبية تحت المائدة ،
فقلت له برفق قدر ما استطيع : ما الذى جرى يا إبراهيم ؟

ولكنه بدلا من أن يرد سألنى : هل يمكن أن تقول لى أنت ما الذى جرى ؟
أقصد لماذا لم نعد نعرف أبدا أية فرحة حقيقية ولا حتى أى سكينة حقيقية ؟ هل
تعرف كيف صدر الأمر بحرماننا من السعادة ؟

تابعت حديثى معه بالرفق نفسه وقلت : قبل أيام تحدثت أنت عن
مصادفات تصنعنا . حدثتني عن والديك وقلت لى إن ما عذبك طول حياتك هو
الظلم .

فقال بشيء من الحيرة : أنا قلت ذلك ؟ وما أهميته ؟ .. هل هذه هي المشكلة ؟ أظن أن الظلم عذبنى مثلما عذب غيرى من الناس لكن هذا لم يكن معناه أن تنتهى حياتهم . الحياة تقبل العدل وتقبل الظلم أيضا .
قلت فى شيء من الحذر : ماذا تقصد بذلك ؟

- ماذا أقصد ؟ .. لا أقصد شيئا .. عندما وصلت الى هنا سألتنى عن شادية ومن وقتها وأنا أفكر .. ولكن ماهو الذى أردت أن أقوله؟ .. نعم . لم أكن أريد أن أظلمها معى . أردتها بالفعل أن تتركنى ، لم يكن نعرف ونحن فى المعتقل متى سنخرج أو إن كنا سنخرج فى أى وقت . فكرت أنها معتقلة مثلى .. تجلس وتنتظر ، قلت أستطيع على الأقل أن أحررها هى ..

- ولكن بينما كان هذا قصدك يا إبراهيم فإنك بدلا من أن تحررها قد دمرتها .

ندمت بمجرد أن قلت ذلك ، وأردت أن أعتذر لإبراهيم . ولكن رد على دون انفعال بل فى شرود كامل : أو لا يمكن أن تكون هى أيضا قد دمرتنى ؟ أولا يمكن أن أكون قد قضيت عمري كله أبحث عن شادية التى كانت والتى ضاعت ؟

شرب كوبا كاملا من الماء فى جرعات كبيرة ثم ملاء مرة أخرى وراح يتطلع الى النهر فى صمت . كانت هناك بجة وحيدة مؤرقة تنزلق ببطء فوق سطح النهر الأسود وهى تحنى رقبتها البيضاء الطويلة وتدفن منقارها فى صدرها ، وراح إبراهيم يتابعها حتى اختفت ثم قال دون أن ينظر نحوى : أنا أحب بريجيت .
- أعرف .

- نعم ، أظن أنك تعرف ولكن مالعمل ؟

- لا داعى لأن أقول لك يا إبراهيم ما تعرفه أنت أيضا بالفعل . أظن أنها صغيرة وأنا أصبحنا عجوزين ..

- ولماذا أصبحنا عجوزين ؟

والتفت نحوى مكلا فيما يشبه الغضب : لماذا يمر الزمن دون أن يترك

فى النفس علامة ؟ .. دون أن يقول هنا تتوقف عن الحب ، وهنا تترك الأمل ، وهنا تكف عن التفكير ؟

قلت وأنا أشعر أن توتره يعدينى : ربما تأتى العلامات ولكننا نتجاهلها .. فقال وهو يلوح بسبابته أمام وجهى بالنفى : أبدا ، أبدا .. أنا لا أجد فى داخلى هذه العلامات . أنا مازلت الطفل الذى يعذبه شقاء أمه. مازلت أعيش نفس الفرحة حين قالت شادية إنها تحبنى ، مازلت أراها تسبل عينيها وهى تقولها . أسمع الآن لسعة السوط على جسمى فى السجن وأول قبلة فى بيروت تدوى فى أذنى . كل ذلك يحدث الآن ، هنا على شاطئ هذا .. النهر فما معنى أن تحدثنى عن الزمن ؟ أقصد .. هل تتابعنى ؟ .. أفهم الموت ، ولكن ما معنى الزمن ؟ ... ما معنى أن أقول لك إنى أحبها فتحدثنى عن الزمن ؟ أية علاقة ؟ سكت وكانت أنفاسه تتلاحق بسرعة كأنه سيختنق .

قلت بعد لحظة : اسمع . هل قالت هى إنها تحبك ؟ .. سمعتها تغازلك تلك الليلة حين التقينا عند مولر فهل قالت لك بعدها إنها تحبك ؟ هز رأسه لليمين واليسار فى ببطء ولكن بصورة قاطعة . قلت : إذن على أى شىء تلومها ؟ أخذ يحك جبينه بيده ثم قال : هل قلت أنا إنى ألومها ؟ كل ما قلته إنى أحبها .

وسكت مرة أخرى قبل أن يقول : أنا عائد الآن من عندها . تقلص شىء فى داخلى حين قال ذلك لكنى لم أنطق . ثم بدأ يتكلم بصوت خافت ، محايد ، كأنه يحكى عن شىء حدث لشخص آخر ، يتطلع الى النهر عبر زجاج النافذة ، ويتطلع فى وجهى أحيانا ولكنى أكاد أجزم أنه لا يرانى .

قال : من البدء .. ربما فى اليوم التالى لمقابلتنا عند مولر حدثتها عن حبى .. لم أكن أستطيع أن أقاوم ، لأنى لم أكن أفكر فى أحد أو فى شىء آخر منذ

انصرفت هي في تلك الليلة معك . حتى كلمة الحب لا تنفع في وصف ذلك الشيء الذي حدث لي . ماهو ذلك الشيء ؟

كرت سنوات عمرى كله وتلخصت الحياة كلها في شيء واحد . إبنى أريد هذه الجميلة لي ، أريدها هنا وأريدها الآن . سيصلح ذلك كل شيء ، كل الأخطاء وكل خيبات الأمل . سيرد العدل للعالم ، كنت أمثل حين أتناقش معك أو مع غيرك . كنت أكذب . حتى عندما قلت لها إننى خجل لأنى أحدثها عن حبي وهي في هذا الشباب وأنا في هذه السن لم أكن صادقا . كنت أشعر أنها من حقي . إنه لا يوجد في الدنيا شيء طبيعي أكثر من أن تكون لي . وأعفتنى هي من الكذب حين قالت لماذا أنا ؟ فتيات كثيرات يتمنين أن تغازلهن فلماذا أنا ؟ أنا لا أصلح لك . لم ترد أن تقول أنت لا تصلح لي .

وابتسم إبراهيم في حزن وهو يفرد يديه أمامى : لم تكن الحكاية هي السن ولا الشباب ولا أى شيء آخر ، يخجلنى أن أقول لك هذا ولكن كانت لي علاقات بفتيات أصغر منها ، وكانت مشكلتى هي أن أتخلص منهن ، لا أن أطاردهن . كل مافى الأمر أنها لم تحبني . كانت تستمع إليّ في أدب ولكنها بعيدة وعصية . ظلت دائما بعيدة وعصية . غير أنها في هذه الليلة كانت غريبة . تشرب كثيرا وتضحك . تقول أحتفل بعطلتى غدا . وكانت أكثر قسوة من المعتاد على الدكتور مولر . هل لاحظت مثلى أنها توجه له دائما تأنيبا خفيا ، وأن نظراته نحوها محملة بالذنب ؟ هل طاردها مثلى بحبه ؟ .. ولم لا ؟ لن ألومه ، أى فرق إن زاد هو عنى عشرين سنة أخرى أو ثلاثين ؟ .. كانت تقول له يا عمى مولر وكأنها تهينه .. تخرج كلمة عمى من فمها كما لو كانت سبة . تضحك دون سبب وترتبت على يده . ظل صبورا . قال لها لا تشربى أكثر من ذلك يا بريجيت . لكنها قالت له مارأيك أن نختم القائمة يا دكتور في النهاية ؟ ما رأيك أن نتوقف بعد بيدرو ؟ .. فلم أفهم ماتقصده .. أما هو فقد أحمر وجهه فجأة وانفجر فيها بعاصفة طويلة باللغة الألمانية وكانت تقاطعه وترد عليه ولكن في برود شديد وعندما انتهيا نظرت نحوى وقالت لا تهتم ، اعتدنا أنا والدكتور مولر على هذه المناقشات مثلما اعتدت أنت عليها مع صديقك ، لكننا صديقان أيضا ، دكتور مولر وأنا . أليس

كذلك ؟ لم يبد أنه سمعها كان يجلس فى مقعده مطأطء الرأس وهو يستند بذراعيه على جانبي المقعد ، ثم قامت هى . كانت تترنح تقريبا .. قالت لى أما أنت فلن تسمح شهامتك بأن تتركنى هكذا .. ستوصلنى حتى البيت أليس كذلك ؟

سكت ابراهيم لحظة واعتمد نقهه بيده . وانتظرت أن يستأنف الحديث ، لكنه غاب تماما فى شروده .

ولم أستطع أن أسيطر على لهفتى وأنا أسأله: ثم ماذا ؟ .. ماذا حدث ؟
انتبه الى مجفلا وقال : لم يحدث شيء .

- كيف ؟

همس وهو يركز على أسنانه كأنه يمنع نفسه من الصراخ : قلت لك لم يحدث شيء ! لا تسألنى كيف . كانت تمسك بيدي ونحن فى التاكسى . تقبض عليها تشنج ، ألم يكن هذا ما حلمت به ؟ بمجرد أن دخلنا شقتها أخذتها الى صدرى . قبلت وجهها وقبلت كل شبر وكل أنملة فيها وكانت هى تلهث مغمضة العينين وتحاول التخلص من ثيابها وهى بين ذراعى وتقول بهمس متوتر : نعم ، نعم ، قبلنى هكذا ، هكذا ، هيا ..

ثم خبط ابراهيم المنضدة بيده خبطة صغيرة وقال : فما الذى حدث، قل لى أنت ؟ ألم يكن هذا هو ماتمنيت ؟ أم ربما لم يكن هو هذا ماتمنيت ؟ كانت تنتفض بين يدي . كانت تصيح فى غضب وهى تسألنى ماذا حدث لكنى كنت أقف أمامها مشلولا يكاد يقتلنى الخجل واليأس وهى تضربنى بقبضتها فى كتفى وتسألى فى غضب : إذن لماذا ؟ لماذا ظللت ورائى كل هذا الوقت ؟

قلت مخافتا وبلهجة مواسية : فى مثل سننا تحدث مثل هذه الأمور . فضحك بعصبية وقال : ولكنك لم تفهم . ما حدث لم يكن هو العجز ، أقصد لم يكن جسدى هو الذى عجز ، بل روحى . كان جسدى مستعدا تماما . مستعدا أكثر من أى وقت بقدر لهفتى إليها .. ولكن رعبا آخر كان يشلنى كائى

لومستها فسنموت لتونا معا .

انتظر لحظة ربما لم أفهم . تقول إنك كنت تريدها وإنك لم تكن عاجزا جسديا ولكنك توقفت ؟ لماذا ؟ .. لا أفهم .

- ولا أنا فهمت ، ولا هي فهمت . اعتقدت أنى أسخر منها ، أنى أتلاعب بها فراحت تقذفنى بالكتب وبالاشياء ، التى تطولها يدها ، وهى تسبنى قالت إنى مجنون وجبان وأشياء أخرى ، ولكنها فجأة توقفت وراحت تتطلع نحوى بدهشة . رأيت دموعا غزيرة تنزل من عيني ورأت شيئا فى وجهى جعلها تتوقف عن سبابها وعن ثورتها وتتقدم منى ثم تحيط رقبتي بذراعيها العاريتين وتدفن وجهى فى صدرها وتقول : لا تهتم . سامحنى أرجوك أن تسامحنى . ربما هى غلطتى أنا .. لا أفهم ما يحدث ولكن ربما هى غلطتى . بدأت تهدهدنى على صدرها وتحديثى برقة كما لو كانت تحدث طفلا . بل لعلها كانت هى أيضا تبكى . فقتلتنى تلك الشفقة أكثر من صراخها الأول . وجريت . هربت . صدقنى كنت أجرى فى الشوارع مثل شخص مطارده . لم يسبق أبدا أن حدث لى شىء كهذا من قبل ، فلماذا يحدث لى مع تلك التى لم أرغب امرأة كما رغبتها ؟ .. هل تعرف أنت ؟

هزرت رأسى بالنفى ولزمت الصمت .

فابتسم ابراهيم ابتسامته الحزينة وهو يحول وجهه بعيدا عنى وهمس . ولكنى قلت لك من قبل : هى شادية ترجع لى فى آخر العمر : ترجع هذه المرة كعقاب .

وتحولت ابتسامته الى ضحكة خافتة وهو يمسك يدي الموضوعه على المائدة بكلتا يديه وينظر فى وجهى طويلا قبل أن يقول : كان الله فى عونك أنت ؟

فهتفت : ماذا تقصد ؟

الفصل السادس

طبول لوركا لدم الشاعر

فلماذا إذن كنت حريصا على ألا يمر يوم دون أن ألقاها ؟ .. لماذا كنت أذهب إلى (مقهاانا) قبل موعد حضورها بكثير مسمرا عيني على باب المدخل .. يقفز قلبي بمجرد أن أراها وهي تخطو بزيتها الأزرق .. تمشى كعادتها على أطراف قدميها وابتسامتها تغمر وجهها كله وتغمر الدنيا من حولها ؟ لماذا كنت أخفى خجلي وحيرتى بالأحاديث الطويلة عن بلاد زرتها وعن أناس قابلتهم وعن أى شىء آخر غير أن أتكلم عن نفسى وعنهما هي ؟ .. ولماذا كنت أخاف نظرتها المستقيمة وهي تفتش فى وجهى خلف كل الكلمات الفارغة عن الحقيقة ؟ .. ولماذا شحبت صورة منار وأصبح وجه بريجيت هو الذى يلازمنى فى ليالى الأرق ؟ .

ورغم ذلك فلم يكن الحب المكبوت الذى حدسه إبراهيم هو كل شىء . أردت أيضا - أنا المكشوف الجراح - أن أحميها وكأني أكفر عن ذنب ما غير أنى لا أعرف ما هو . وكنت أدرك عجزى . أعرف أنى لا أستطيع أن أصحح ما فات ولا أن أشفى تلك الندوب التى تخفيها بسمتها الدائمة ولا أن أجعلها تبكى . ولعلها هى أيضا شعرت أن هناك شيئا آخر يربطنى بها - غير الاشتهاء والحب - جعلها تحكى لى بكل تلك البساطة منذ الليلة الأولى فى شقتها فرأيتها وعرفتها .. رأيت بريجيت الطفلة تدق بقبضتيها الصغيرتين صدر مولر .. ورأيتها فى المدرسة ، لم يتشكل جسدها الجميل بعد ، طويلة بالنسبة لسنها لكنها أميل إلى البدانة .. تلبس تلك النظارة الطبية السميقة ، قبل أن تظهر العدسات اللاصقة .. تتجمل من مظهرها وتجد أنفها أطول مما ينبغى .. تنزوى فى غير ساعات الدرس فى أركان

بعيدة فى المدرسة وبيدها كتاب تقرأه .. أحببت الكتاب الذين أحبهم أبوها .. همنجواى ولوركا وجوته .. تتجنب الأولاد بالذات .. وقتها لم تكن تحب الرجال تقول لى وهى تضحك ، هذا قبل أن أكتشف أنى لا أستطيع الاستغناء عنهم .. ومرة ، إذ تجلس فى الحديقة منكبّة على كتابها يأتى واحد من التلاميذ ويلقى رسالة فى حجرها .. ولم تصدق نفسها ، كان هو بالذات يوهان ذلك الموسيم الذى تطارده نصف فتيات المدرسة وإن لم تفز به إحداهن .. هل كان هو أيضا خجولا مثلها ؟ .. هل كان ما اجتذبه هو ابتعادها ووحدها ؟ .. تقول بريجيت : كان كلانا يحتاج إلى الآخر لكى يكتشف نفسه وجسده .. وحين اشتبكت أيدينا معا استطعنا أن نخرج للعالم الواسع من ثقب الخوف الضيق .. ثم حين نضجنا افترقنا .. مازلنا صديقين حميمين .. عرفت بعده آخرين .. كانوا لطافا ولكن أحدهم لم يترك علامة .. وفى الجامعة كان هناك الأجانب أيضا .. وكانت البنات أيامها يتهاوسن عن الأفريقيين .. لم يكن معنا فى الجامعة غير ستة منهم أو سبعة ولكنهم كانوا محبوبين جدا من البنات ومكروهين جدا من الطلبة .. أو هكذا، ظننت، أقصد ظننت أنهم محبوبون من البنات . لم أكتشف حين عرفت ألبرت أن المسألة بالنسبة لهن لم تكن تزيد على الفضول لمعرفة الشيء الغريب .. لذلك الرقص الجنونى بالساعات فى النادى .. لتلك الفرحة الأفريقية التى لا تنتهى والجسد يرقص .. وأهم من ذلك الفضول للتحقق من متعة ذلك الجنس الأفريقى الذى يحكى عنه الجميع ، ثم بعد التجربة يرجع كل شىء إلى أصله .. ترجع البنت إلى صديقها النمساوى ويرجع الأفريقى إلى مكانه فى الغابة.

وكان ألبرت يختلف .. لم يكن هو أقدرهم على الرقص ، بل على العكس كان أكثرهم اهتماما بالدراسة ، وكان لديه همه الخاص ، فهو لا يعرف متى سيعود إلى بلده ..

كان هاربا من النظام فى بلده ومطاردا منه . لا يعرف كيف سينتهى كابوس ذلك الحكم الجاثم هناك .. حدثنى من أول لقاءاتنا عن ذلك الطاغية الذى كان يحكم أيامها ، والذى خرب البلد . قال لى إن بلده قبل أن يحكمها (ماسياس) المجنون كان واحة سعيدة فى ذلك الركن من أفريقيا : لكل إنسان عمله الذى يكفيه

وبيته الذى يأويه .. الكل يعرف على الأقل القراءة والكتابة .. والذين يريدون أن يكملوا تعليمهم يذهبون إلى الجامعات فى الخارج .. يذهبون إلى أسبانيا فى الغالب التى كانت تستعمر البلد والتى خلفت لغتها هناك .. سكان البلد ولا يتجاوز عددهم مئات الألوف لا يكفون لاستغلال كل خيراتة فيستوردون العمال من بلاد مجاورة .. من نيچيريا ومن الكاميرون ليساعدوا فى زراعة البن والكاكاو وليستخرجوا الذهب والنحاس .. ولما جاء المجنون فرُّ هؤلاء الأجانب بجلودهم ، وهرب أيضا من استطاع من أبناء البلد .. أما الآلاف الذين وضعهم فى السجون فقليل منهم من نجا من القتل .. وفى بلدتنا ، فى النمسا ، كان هناك مصنع للشيكولاتة يستورد الكاكاو من هناك .. هذا قبل أن تكف غينيا حتى عن تصدير الكاكاو - وتجمع فى بلدتنا قليل من المعارضين يطبعون المنشورات ويراسلون صحف أوروبا .. وكنت أخاف على ألبرت .. ظللت طوال حياتنا معا أخاف عليه بعد أن اختفى اثنان من زملائه ولم نعرثر لهما على أثر .

وهكذا فإنى لم أعرف ألبرت فى المرقص ولكنى عرفته فى المكتبة .. كان يعد رسالة عن لوركا .. فى البدء كان يحتاج إلى مساعدتى لكى يكتب بالألمانية السليمة الأفكار التى فى رأسه ، وكنت أحتاج إليه ليساعدنى فى اللغة الأسبانية .. كنا نخرج من المكتبة أحيانا ونتمشى على شاطئ النهر بالساعات .. نتكلم لغة غريبة اخترعناها معا .. بعضها من الألمانية التى لا يجيدها وبعضها من الاسبانية التى أحاول أن أتعلمها وكلمات أخرى بالانجليزية أو الفرنسية .. نتحدث عن لوركا وعن شيلر .. عن كتاب افريقيين لم أسمع بهم قط ولكنه جعلنى اقرأ لهم وأحبهم .. أشيبي وسيمبيني وسوينكا وغيرهم .. هؤلاء هم الذين مازلت أذكرهم .. ومعه لم اكتشف قراءات جديدة بل عالما آخر سحرنى .. وحين كنت اقرأ عملا لا يعجبنى يستبد به الغضب .. يقول إننى مثل بقية البيض .. انظر للآخرين من فوق وإن حاولت أن أخفى ذلك .. أسأله فى حيرة ولكن كيف يريدنى أن أفهم فى هذه القصيدة تلك الطقوس والأساطير الأفريقية التى لا أعرفها ؟ .. فيرد وكيف عرفت أنا الأفريقى أساطيركم الأوروبية ، كيف عرفت أوديب وفاوست ؟ يتعلم الإنسان إن أراد أن يفهم .. ولم يكن سهلا أن أتعلم ولكنى حاولت .. ولم يكن سهلا أن أقتعه

بحبى ولكنى حاولت .. جاء الحب طبيعيا كالمشى أو الكلام .. إذ أقبض على يده فى الطريق .. إذ أقبله فى وجنته كصديق حين ألقاه .. ولكن حين تبادلنا أول قبلة حقيقية على شاطئ النهر سألتنى إن كنت أنا أيضا أحب أن أجرب الافريقيين . بالكاد منعت نفسى لحظتها من أن أصفعه، غير أنى سببته بشتائم ألمانية نابية أعرف أنه لا يفهمها وتركته واقفا هناك .. قررت ألا أعود أبدا إلى هذا المفرور .. وحين مرت أيام دون أن يأتى ليصالحنى ، حين لم يعد فى الحياة شىء غير الشوق إليه ، سعيت أنا إليه فى مكانه فى المكتبة .. جلست إلى جواره صامتا وأنا أفتح أحد المراجع بيد ترتعش بينما جسدى كله يناديه .. مد نحوى يدا مترددة فقبضت على يده .. تطلع إلى بوجه مذنب وحزين لكنه لم يقل شيئا .. هكذا كان كبرياؤه ..

ومع ذلك فلم يكن ألبرت يبالى حين يسمع داخل الجامعة أو خارجها تلك الكلمات الغليظة عن الأفريقيين والسود .. يقول هؤلاء لا يعنوننى فى شىء .. أنت التى أحب وأنت التى تهميننى لأنك ستصبحين واحدة منا .. أما الآخرون ، حين أسمع شخصا يقول شيئا من عينة هؤلاء الافريقيين القرد ، أو لماذا يبقى هنا هؤلاء السود فأنا أعرف نوعية عقله ولا أضيع وقتى حتى فى التفكير فيما قال .. لست مثل الافريقيين الذين يريدون اعتراف الآخرين بهم .. فليذهب الآخرون إلى الجحيم .. أنا أريد أولا أن أعترف بنفسى .. همومى أكبر بكثير من معالجة هؤلاء المرضى .. همومى هناك بعيدا ، مع ماسياس ..

وكننت أواقفه تماما . ما أهمية الآخرين وما يقولون مادام هو ، وحده ، كل عالمى ؟ مادمت حتى لا أرى هؤلاء الآخرين وهو معى ؟ ..

ولكن ذلك لم يكن كافيا لعمى مولر . كان يحتاج أيضا إلى ألبرت لكى يواصل حربه الخاصة .. أيامها بدأ مولر حكاية حقوق الإنسان هذه بعد أن تقاعد وأغلق عيادته .. وكان ألبرت واصدقاؤه يذهبون إليه لكى يساعدهم فى معركتهم ضد ماسياس .. لا أكاد أغفر لنفسى حتى الآن أننى أنا التى قدمته إلى مولر .. ألف الدكتور فى بلدتنا الصغيرة جمعية لمكافحة العنصرية ضم إليها ألبرت وبقية الافريقيين وبعض الأجانب ممن كانوا يدرسون فى الجامعة .. وكان مولر يدعو

أصدقاءه النمساويين القلائل ويلقى خطبا وينظم مظاهرات فى الميادين العامة ضد العنصرية . ويقيم احتفالا بيوم افريقيا . ويعقد ندوة باسم «من أجل عالم واحد» إلخ الخ .. ومن وقتها تغيرت البلدة .. قبلها كانت الأمور تسير ، أما الآن فقد صار الناس إما مع جمعيته وهم على الأكثر عشرة أفراد من أهل البلدة وإما ضد جمعيته وهم بقية الناس .. حتى الذين كانوا يخفون عنصريتهم أصبحوا يتباهون أيامها بأنهم ضد وجود السود فى البلد ويظهرون العداء لكل الملونين .. كانت فرصة مثيرة لأن يحدث شئ فى حياة مدينتنا الصغيرة الراكدة .. لأن يكون هناك موضوع كبير يهتم به الناس .. موضوع يذكرهم بأيام الحمى الآرية وألمانيا فوق الجميع وهذه الأشياء ..

وفى تلك الأيام بالذات صار يلح على أنا وألبرت لكى نتزوج .. كنا نعيش معا منذ مدة وكنا سعيدين .. لكم كنا سعيدين ! .. نقضى الليل معا وإيقاع كل منا يسيره الآخر .. نقرأ فى وقت واحد .. نذاكر .. نتكلم .. نرقص .. نمارس الحب .. كل شئ فى وقته .. نداء خفى من العقل ومن الجسم ومن الكيان كله يستجيب له الآخر .. لأن ذلك النداء كان يأتينا معا فى اللحظة نفسها .. وكنا متفقين ، لا .. لا أكذب .. لم يكن هناك اتفاق ولكننا كنا متفاهمين على أننا سنذهب معا إلى بلده بعد أن يسقط ماسياس ، وهناك نتزوج ثم أعطيه وقبيلته عشرة أبناء كلهم ذكور ، غير مسموح بالبنات . يقول لى أبناء يشبهونك فأقول بل فى مثل جمالك .. يظن أنى أسخر منه ويغضب فأقبله وأنا أقول صادقة ولكنى لم أعرف مثل جمالك ! .. لم أعرف أجمل من التماع هاتين العينين حين تغرورقان بالحب وحين تشتعلان بالغضب .. لم أعرف فما مكتملا كالأذى تصنعه هاتان الشفتان المكتنرتان .. يضحك ألبرت ويسألنى : هذا من شعر رامبو ؟ فأقول ، بل هو أنت ! ..

فكيف ضاع ذلك كله بعد أن تزوجنا ؟ .. كيف ضاع حين لم نعد هو وأنا وحدنا ، بل هو وأنا ومولر والعالم ؟ .

لم يرد أبى أن نتزوج . قال لى على طريقته فى الكلام ولكنك لست عاملة فى بار ! .. يمكن أن يمر هذا الزواج لو كنت عاملة فى بار .. كأنه كان يرى كل شئء . نصحنا أن ننتظر كما كان قرارنا الأول ، ننتظر إلى أن ينتهى ألبرت من الجامعة

ومن ماسياس ثم نرحل بعد ذلك معا . قال لنا ما لم نكن حتى تلك اللحظة نفهمه جيدا . قال إن الناس فى بلدنا يغمضون عيونهم عن العلاقة بيننا على أنها نزوة عابرة . حرية محكومة يسمحون بها للشباب على ألا تتجاوز الحد . أما الزواج فهو جريمة . دنس للجنس الأبيض كله لا يفره أحد فى بلدنا . ولم نصدق . مرة أخرى خسر أبى القضية . مزة أخرى كسب مولر وهو يلح على ألبرت : فلنلقنهم درسا ! .. فلنعلم أهل هذه البلدة البليدة أن الدنيا قد تغيرت .. يجب أن يفهموا أخيرا أن العنصرية تحط من آدميتهم .. كلام كثير راح مولر يردده على أذان ألبرت مثل ذلك الكلام الذى كان يكتبه فى منشورات جمعياته الوهمية حتى أثر عليه فى النهاية . أما أنا فبالنسبة لى لم يكن هناك فرق . قلت لأبى حتى لو قاطعتنى البلدة كلها فإن بلدتى هى ألبرت . لا يعينى أحد غيره .

كنت صادقة ، ولكن أبى كان على حق ..

فبعد الزواج لم يعد يزورنا فى بيتنا حتى هؤلاء الذين كانوا يأتون إلينا من قبل ، ولم نهتم . وفى الجامعة كان الطلاب يسبون خلفنا . فى مجموعات لا ينطقون ولكنهم يلاحقوننا فى كل مكان بنظرات الكراهية ، ولم نهتم . وحين ذهبنا إلى المطعم الذى اعتدنا من قبل أن نأكل فيه وقف الجرسون بالباب وهو يشبك يديه على صدره وقال إن كل الموائد محجوزة . ورأينا معظم الموائد خالية ، ولكننا لم نهتم . بل ضحكنا . رحنا نذرع شوارع البلدة وهو يحيط كتنفى بذراعه . نرد على صفير من يهزأون بنا بالصفير مثلهم ونحن نغنى بصوت عال ، وحين يقوم من يجلسون بجوارنا فى الأتوبيس أو السينما وهم ينظرون نحونا فى استنكار وحقد كنت أرمى معطفى على مقعد وحقيبتى على مقعد آخر وأنا أتتهد فى ارتياح . لم نهتم .

ولكن هل حقيقة لم نهتم ؟ .. أم أنى أنا وحدى التى لم أكن أهتم ؟ .. لم ألاحظ فى الوقت المناسب أن ألبرت أصبح يكره الخروج فى الليل . لم ألاحظ أنه أصبح يقضى أياما فى غرفتنا الصغيرة دون أن يذهب إلى الجامعة . لم ألاحظ أنه بدأ يشرب أكثر من المعتاد .. فهتمت معنى ذلك فيما بعد ، ولكنى أيامها كنت مشغولة بشئى أهم .. فعندما بدأ ألبرت يتغير كنت أنا أيضا أتغير ، كان فرح جديد

يغمرنى .. أقصد أنه حين بدأ يستقبل أصدقاءه الافريقيين وحدهم ويبقى معهم فى ركن من الغرفة ، وهم يشربون ويتكلمون لهجة لا أفهمها ، كنت مشغولة عنه . كان طفله الذى بدأ يتخلل جسمى يصرفنى عن سواه . يصرفنى حتى عن المذاكرة لامتحان آخر السنة الذى اقترب ، فلم أفهم إلا فيما بعد معنى تلك النظرة الفاترة فى عينيه وتلك الضحكات العصبية .. كنت مستغرقة تماما فى فرحى الخاص ..

ومع ذلك فقد كان من الممكن أن يستمر كل شئ ، أن نسترد نفسينا بعد قليل ، أن انتبه أنا وأفهم ما الذى يحدث لألبرت ، أو أن يرجع هو إلى ازدرائه القديم لذلك الغباء وألا يبيالى به . كان كل شئ ممكنا حتى ليلة السبت تلك ، حين خرجنا معا ، مثلما كنا نفعل فى القديم ، نتمشى على شاطئى النهر ..

كانت ليلة سلام . لم يزره أحد من أصدقائه ولم يشرب هو . ورجعنا كما كنا فى البداية نتحدث عن الشعر وعن لوركا . واستجاب هو لرجائى فراح يقرأ بصوت عال تلك السطور العذبة من رثاء أجنائيو سانشين . لم أعرف فى حياتى أحدا مثل ألبرت يقرأ الشعر . ولم يهزنى شئ حتى الآن مثل طريقته وهو يردد رثاء لوركا المجمع لصديقه مصارع الثيران . لم يكن صوته يتهدج أو يتغير . كانت الأصوات تخرج عادية من حنجرة ألبرت القوية وكأنه يواصل الحديث الذى كان يتبادلته معى قبل أن يقرأ الشعر . وبالتدريج تتحول تلك الأصوات الهامسة ، تلك الأصوات الحزينة ، إلى أغنية أفريقية شجية . أصوات المد فيها طويلة ممطوطة مثل أهات عميقة متصلة ، كأن الشفتين لا تنطبقان أبدا ، لكى تظل تلك اللوعة تتدفق باستمرار من ذلك الصدر الواسع ومن شلال تلك الحنجرة الهادر .. وشيئا فشيئا تختفى أشجار السرو المنسقة على شاطئى النهر النمساوى وتتلاشى البيوت الحجرية الصلدة التى تصطف على جانبيه لكى تتشكل غابة بكر ، غابة حارة تحتضن أكواخا متناثرة تحت قمر فضى كبير .. فجأة يخلع لوركا قبعته وثيابه الاسبانية لكى يقف عاريا أسود ، لكى يقرع الطبل هناك فى تلك الغابة وهو يطم أيضا أهاته الملتاعة على اجنائيو .. فما هى الحماسة تصارع فهدا ، فى الساعة الخامسة عصرا .. وجذع الرجل مع قرن وحيد ، فى الساعة الخامسة عصرا ..

والثور وحده يغنى زهوا ، فى الساعة الخامسة عصرا .. والموت يلقي بيضه فى الجروح ، فى الساعة الخامسة عصرا .. وتابوت على عجلات هو سريره ، فى الساعة الخامسة عصرا .. والجروح تلتهب كشموس ، فى الساعة الخامسة عصرا .. وكل الساعات تشير إلى الخامسة عصرا .. والظل هو ظل الساعة الخامسة عصرا ..

الخامسة عصرا ...

الخامسة عصرا ...

وأنا فى قلب الغاية ، مع الطبل ، مع لوركا مع اجناثيو ، مع ألبرت ، وقد توقف العالم فى الخامسة عصرا .. كان ألبرت يضع يده على كتفى ، يحملنى إنشاده الى ذلك القرع الحزين البعيد ، وقد غبنا معا فى تلك النشوة لأننا بعد لحظة واحدة - لحظة لا أكثر ! - سنكتشف ذلك السر العصى ، وسنعرف لماذا أصبح حزنه على إجناتيو هو كل الحزن فى العالم ولماذا تتولد من حزن هذه الكلمات تلك الموسيقى التى تعلو بقلوبنا فوق الأرض وفوق الزمن .

لكن تلك اللحظة لم تأت أبدا !!

لم نكن قد انتبهنا إلى الضجة التى تآتى من خلفنا ، بل ولم نفهمها فى أول الأمر . ألبرت هو الذى كف عن الإنشاد حين أصبحت تلك الضجة خلفنا مباشرة على شاطئ النهر المهجور ...

كانوا سبعة أو ثمانية من الشبان ، مخمورين تماما ، خرجوا لتوهم من أحد (البارات) التى تتأخر ليلة السبت ، واستطعت أن أميز بينهم وجهين لطالين معنا فى الجامعة أما الباقون فلم أعرفهم . كانوا يغنون إحدى الأغنيات التى كانت شائعة فى تلك الأيام ويحورون كلماتها لكى يقولوا : هى أكثر من امرأة .. أكثر من امرأة .. هى كثرة من العاهرات فى وقت واحد .. ثم يضحكون ويكررون ذلك بصوت يزداد ارتفاعا فى كل مرة .. وشعرت بجسد ألبرت وقد تصلب كله ، فضغطت على ذراعه وأنا أهمس ، هيا بنا ، هم مخمورون ، فلنسرع من هنا .. وكنت اجذبه بعيدا لكنهم تقدموا منا وصنعوا دائرة واسعة حولنا لكى لا نهرب

وراحوا يرقصون مباعدين بين سيقانهم .. يرفعون أرجلهم عن الأرض إلى أقصى ما تستطيع أجسادهم المخمورة ، مقلدين ما رأوه فى الأفلام عن الهنود الحمر أو عن الأفريقيين فى الغابات .. وحاول ألبرت أن يصرفهم فصفق وقال براقو .. غدا نكمل هذا الفيلم يا طرزان .. وأزاح واحدا منهم لكى نخرج من الدائرة لكنهم لم يتحركوا .. بل تقدم أحدهم منا وهو يترنح ، ثم فك بنطلونه وأنزله عن وسطه وقال وهو يتحسس سرواله : أنظرى ! .. هل الأفريقى أفضل من هذا ؟ .. لماذا تذهبين بعيدا ؟ .. بضاعة النمسا أفضل ! .. دعنا نقارن يا كنج كونج .. ومد يده إلى بنطلون ألبرت يحاول أن يفكه وقد سقط بنطلونه هو عند قدميه .. ولم يكن فى سكره يحتاج إلى أكثر من دفعة واحدة من ألبرت لكى يسقط فى الأرض متعثرا فى ثيابه المحلولة .. ولم يكونوا هم أيضا بحاجة الى أكثر من ذلك لكى يهجموا على ألبرت بقبضاتهم وركلاتهم وسبابهم البذئ .. واستطاع ألبرت أن ينتزع حزامه من وسطه وراح يدور حول نفسه ملوحا بالحزام لكى يبعدهم عنه وهو يصرخ بى .. اهربى أنت - اطلبى الشرطة . أو اطلبى النجدة ..

ولكن فى لحظتها بالذات وأنا أحاول أن أخرج من الدائرة التى تفككت حلقتها قليلا دفعنى أحدهم فى ظهرى دفعة قوية فسقطت على الأرض وأنا أصرخ :

ألبرت .. ألبرت .. قتلوا طفلى !

ولما سمعوا ذلك .. ولما رأونى ممددة هناك أتلوى ويدي بين فخذى ، صمتوا لحظة ثم لانوا جميعا بالهرب ..

ولكنى كنت بالفعل قد فقدت طفلى .

لم أفقد طفلى وحده ولكنى فقدت ألبرت ...

لم أفقد ألبرت وحده ولكنى فقدت نفسى ..

كانت تلك هى ساعتى الخامسة عصرا .

بعد الأيام الأولى فى المستشفى ، وبعد تحقيقات الشرطة رجعت إلى البيت . كان مولر مشغولا بتنظيم مظاهرة وتجهيز لافتات كتب عليها «القتلة» .. ورسم أيادى تقطر بالدماء وأشياء من هذا النوع . وصممت أنا ألا أخرج فى هذه

المظاهرة ، ولكنه أخذ معه ألبرت . قال لى ألبرت إنها كانت أكبر من كل مظاهرات مولر السابقة وإن الناس كانوا يتابعونها على الأرصفة صامتين . ولم يرحنى هذا أبدا ، بل شعرت بالغضب . كأنما كان لابد أن أفقد طفلى لكى يشعر هؤلاء بالذنب . وصرخت فى ألبرت : كفى ! .. قل لمولر أن يكف عن هذا العبث . قل له أن يخرس ! .. قل له أن يموت ! ..

وكانت تلك من المرات القليلة التى قلت فيها أى شىء ، أيامها كنت معظم الوقت فى الفراش . أرقد صامتا مفتوحة العينين وألبرت هناك على مقعده فى الركن ، يشرب ويتظاهر أنه يقرأ . أحيانا كان النهار بطوله يمر دون أن تتبادل كلمة ودون أن نأكل ودون أن نتذكر حتى أننا لم نأكل . واعتاد أبى وقتها أن يأتى كل يوم تقريبا . يحمل لنا الطعام وينظف بنفسه القذارة التى تتراكم فى غرفتنا . يغسل الأطباق والأكواب ويصرخ فىنا - لماذا نترك الغرفة دون تهوية ؟ .. وكنا نتركة يفعل ما يشاء ، مع عبارات اعتذار وغمغمات : لا داعى لذلك . لا تتعب نفسك . كنا على وشك أن ننظف البيت ، إلخ .. إلخ . ولم يكن بيالى بما نقول . هو وحده الذى ظل واقفا على قدميه ، هو ، أبى الذى كان قد قرر أيامها أن يتقاعد ، رجع من جديد شابا غاضبا ومحاربا . صمم أن يجد هؤلاء الشبان وأن يأخذهم للمحكمة . اشتغل مخبرا ومحققا ومحاميا . ولما طلب منى ذات يوم أن أذهب معه لكى أتعرف فى الجامعة على واحد من هؤلاء الشبان كنت قد أعطيت أوصافه وظن أنه توصل إليه . قلت إننى لن أخرج من البيت وطلبت منه أن يهدأ . قلت له أن يترك هذا العمل للشرطة وسألكه إن كان هذا سيعيد طفلى . فصفعنى أبى على وجهى وحملنى من الفراش وأرغمنى على أن ألبس ثيابى ودفعنى دفعا ليخرجنى من البيت . صمم هذه المرة أن يكسب القضية ولأول مرة كسبها بالفعل . استطاع أن يعثر عليهم وأن يقدمهم جميعا للمحكمة ، كانت مراقبته قوية وحجته دامغة فوضعوا ثلاثة منهم فى السجن . وهكذا انتهى الأمر وارتاح ضمير كل إنسان . صمم أبى أيضا فى هذه الأيام أن نرجع إلى الدراسة وأن ندخل الامتحان . كان يأتى بنفسه فى الليل بعد أن ينتهى من العمل فى مكتبه لكى يتأكد من أننا نفتح الكتب على الأقل وأننا نقرأ . ولا أدرى كيف نجحت أنا فى الامتحانات ولكن ألبرت رسب .

وشعرت بالخجل من نفسى تقريبا لأنى نجحت شعرت بالخجل لأنه كان لدى أبى الذى يقف إلى جانبى بينما كان ألبرت وحيدا دون أسرة ودون أقارب فى هذه المدينة التى تكرهه . وكنت قد بدأت أسترد نفسى . غلط . لم أسترد نفسى أبدا . مع تلك الدماء التى خرجت من بين فخذى فى ليلة السبت تلك خرج شئ لم يعد أبدا . ظهرت بريجيت أخرى . لا أعرف بالضبط ما الذى ضاع ، ربما كان أول ما لاحظته هو أن الشعر لم يعد يهزنى . لم أعد أطلب من ألبرت أن يقرأ لى كما كنت أفعل دائما ولم يكن هو وقتها يقرأ شعرا أو غيره فقط يجلس فى البيت ويشرب . وحاولت كل ما كنت أستطيعه . ذهبت الى أصدقائه الأفريقيين وطالبتهم أن يزوروه كثيرا وأن يشجعوه على الخروج من البيت ، أن يطلبوا منه كتابة المقالات ضد ماسياس كما اعتاد أن يفعل من قبل بل ذهبت إلى مولر ورجوته أن يستدرجه مرة أخرى إلى جمعيته الأفريقية وإلى حقوق الإنسان فربما يرجع ألبرت الى طبيعته . وكان مولر يأتى بالفعل ويتكلم مع ألبرت الذى يظل صامتا أو يضحك بلا معنى أو يناقش مولر بجدية مزيفة ، ولكنه ذات مرة قال فيما يشبه الهمس : اسمع .. إن كنت لم أستطع أن أحمى طفلى فكيف تريدنى أن أدافع عن الغريباء ؟ فقال مولر ستحمى أطفال الآخرين وستحمى طفلك المقبل . لن نغير العالم فى ليلة واحدة ولكن يجب أن نعمل .. إن كانوا قد أهانوك فلماذا تستسلم ؟ ويظل مولر كلما جاء يكرر هذه الخطب الرنانة فيقوم ألبرت ويخرج معه وأشعر أنه يصحبه لمجرد أن يسكته عن الكلام . أما ذلك الطفل الآخر الذى تحدث عنه مولر فلم يأت أبدا ، ولعلنا كنا ، علانا ، نحرص على ألا يأتى .

ثم تشبث ألبرت بعناده فلم يعد يذهب الى مولر أو إلى أى مكان . ولم يعد الأصدقاء الأفريقيون يظهرون أيضا . قلت لنفسى لعلمهم سئموا منه ، فكل ما كان يفعله الآن هو أن يشرب حتى يسكر ، وكنت أنا أشتغل فى الصيف لكى نعيش ولكى أوفر مصاريف الدراسة للعام الجديد .. أما ألبرت فلم يكن يعمل . كان يعيش ويسدد مصاريف دراسته من مبلغ شهرى ترسله له أسرته التى فرت إلى اسبانيا بعد حكم ماسياس واستطاعت أن تهرب معها بعض اموالها . وعندما عرفته كان حريصا على ألا يتجاوز ما نصرفه معا هذا المبلغ . لم يقبل أن أنفق

شيئا فى البيت أو أن أطلب مساعدة من أبى . أما الآن فبالكاد أصبح هذا المبلغ يكفيه أسبوعا لشرب الليل والنهار ولم يعد يخجل أن يطلب منى نقودا ، وحين كنت أرفض إعطائه شيئا لعله يكف عن الشرب ويستجمع نفسه ، كان يبكى ويتوسل ويعدنى أن هذه هى المرة الأخيرة وأنه منذ الغد سيبحث هو أيضا عن عمل . ولكن هذا لم يحدث أبدا . على العكس بدأت ألاحظ نقودا تختفى من حقيبة يدى وحين أسأله عن النقود التى كانت فى الحقيبة يظل ينكر ويقسم ويتظاهر بالغضب .

ومرة حين عدت من العمل فى المساء سمعت وأنا على السلم أصواتا كثيرة حادة فى غرفتنا . دخلت مفزوعة فوجدت اصدقاء الافريقيين جميعا هناك . كانوا يحيطون به وهو يجلس على مقعده مخمورا ورأسه يهبط بين كتفيه كعادته فى تلك الأيام .. كانوا يشتمونه ولم يبالوا بى عندما دخلت .. بالعكس أمسكه أحدهم من ياقه قميصه ورفع قليلا وهو يقول : انطق ! ثم عاد يرميه مكانه ولكن ألبرت لم ينطق.

هتفت وأنا أحاول الوصول إلى زوجى : ماذا حدث ؟ .. قولوا لى ما الذى حدث؟

فرد أحدهم وهو ينتفض غضبا : هذا الكلب .. هذا الخائن يكتب إلى ماسياس! .. حدث أم لم يحدث ؟ .

تطلعت نحوه مثلما كانوا يتطلعون جميعا .. كنا ننظر إليه وظل هو صامتا لفترة وهو ينقل بصره بيننا ثم ثبت نظرتة على أنا طويلا وقال ببطء وهدوء ، بصوت ألبرت الحقيقى القديم : أنا لم أذن أحدا ..

وعاد يجيل بينهم عينيه الواسعتين المحمرتين لينظر اليهم واحدا واحدا وعلى شفثيه ابتسامة غريبة قبل أن ينفجر بالضحك وهو يقول : لأنكم سعداء هنا حقا؟ .. ردوا على .. لأنكم سعداء هنا لا تريدون العودة إلى هناك ؟ ... ويصق جانبا حين قال ذلك فصفعه أحدهم على وجهه . وقال آخر وهو يصوب نحوى عينين محتقتين أيضا بالغضب : هذه المرأة الاوروبية هى السبب . ولكنهم جذبوه بعيدا وخرجوا

وهم يغمغمون لى باعتذارات . غير أنى أنا وحدى كنت أعرف ، كنت متاكدة ، أنه على حق .

نعم ، هذه المرأة الأوروبية هى السبب .

★★★

عشت طويلا مع كلمات بريجيت التى تدفقت فى تلك الليلة فى غرفتها اليابانية . عندما انتهت هى كان المساء قد انقضى وكان الليل قد تقدم ولكنها ظلت تجلس على الأرض ، فى الغرفة المعتمة ، وقد انسدل شعرها يكاد يخفى وجهها وتهدل كتفها ، وقالت لى بون أن ترفع رأسها :

- كيف بدأ كل هذا الكلام على أية حال ؟ .. لماذا وقد رضيت بسنوات من الصمت أشعر الآن وكأنى مرغمة أن أحكيه ؟ .. ومع ذلك فأنا لم أتخفف من أى حمل ، بل أشعر بكل الوجع القديم يرجع من جديد . فلماذا كان يجب الآن أن أحكى ؟ ..

ثم رفعت رأسها ببطء وقالت : سامحنى ، ولكن هل يمكن الآن أن تتركنى وحدى ؟

تركتها ، وتصرفت بعدها بالفعل مثل ذلك الجار العابر فى القطار الذى يحكى له الإنسان أسراره . كنت ألقاها فى أمسيات عديدة مع إبراهيم ومولر قبل أن يسافر كلاهما . فلا أشير من قريب أو بعيد إلى ليلة المصارحة تلك ، ولا تشير هى إليها . أيامها ، كنا ، كلينا ، مشغولين بإبراهيم . لم أرها معه يوم سفره . ولكننا فى المطار تعانقتنا عناقا حارا ، إبراهيم وأنا ، وترقرقت دموع فى عيوننا . لم تكن العداوة قد انمحت فحسب ، ولكننا ، بعد أن كشف كل منا للأخر جراحه ، وتعرف على ندويه ، نما الود العميق بيننا فجأة وكأئنا لم نعرف العداء فى أى يوم .

ومن المطار ذهبت إلى المقهى مباشرة وهناك وجدتها ، فهل كانت مصادفة أم أنها كانت تعرف عاداتى وكانت تنتظرنى هناك ؟ .

لم أسألها عن ذلك ، ولكننا صرنا بعد ذلك نلتقى كل يوم فى الظهيرة ، لم أتخلف يوما ولا هى تخلفت . حتى فى أيام العطلات ظللنا نلتقى . لا نضرب موعدا

ولا نتفق على شيء ولكن بعد أن أوصلها إلى مكتبها ، تقول قبل أن تنزل من السيارة الى اللقاء . ونعلم دون كلام أننا سنكون فى المقهى غدا فى الموعد نفسه .
وفى تلك الأيام الأولى كنت أنا الذى أحكى لها . لم أكن أعرف أيضا لماذا أشعر بالرغبة القاهرة فى أن أتكلم عن نفسى وعن همومى .. فى لقائنا الأول قالت هى هذا المساء أريد أن أتكلم ، وفى أوقات الظهيرة تلك أيضا كانت تستبد بى أنا الرغبة فى أن أحكى ، فى البدء قلت لها حكايتى مع منار ، ما استطعت أن أفهمه من تلك الحكاية على الأقل . ما عجزت عن أن أقوله لإبراهيم أو لأى إنسان ، وما كان يطاردنى فى الصحو والمنام . حكيته بالبساطة التى حكى بها هى قصتها ، حكيته دفعة واحدة ، دون تردد ، ولم أشعر أيضا أنى تخففت من حمل ، ولكن كان على أن أحكيه .

ولكى أطمئن نفسى أن هذا الذى يحدث بيننا ليس هو الحب كنت أردت فى داخلى أشياء كثيرة : إن ما يجمعنا هو حبنا للشعر فى وقت لم يعد فيه للشعر مكان .. إننى فى وحدتى البعيدة اتخذها بديلا عن أولادى .. إننى أشفق عليها بسبب ما جرى لها .. إننا برغم فارق العمر صديقان جمعتهما الغربة ، فلم لا ؟ .. ولكن شيئا قلنا فى داخلى كان يسخر من هذا كله .

وفى اعترافاتنا اليومية لم يعد هناك شيء يخفيه أحدهما عن الآخر . سألتها مرة عن ألبرت ، فقالت إنها لم تعد تتابع أخباره بعد الطلاق .. كان هو الذى هجرها وعاد إلى أفريقيا بعد أن قاطعه كل زملائه وبعد أن تكرر رسوبه فى الجامعة . قالت لى بلا اكترات ، سمعت أنه أصبح سفيرا لبلده فى مكان ما ، وربما يكون الآن وزيرا . لا أعرف ولا أريد أن أعرف . ثم قالت بطريقة توحى أنها لا تريد متابعة هذا الحديث : العالم أنهى ما بين ألبرت وبينى .

ومع ذلك فقد كان هناك شيء واحد لم تكلمنى عنه أبدا ، ولعلها كانت واثقة أنى أعرفه وإن لم أقل شيئا . لم ألتح أبدا من قريب أو بعيد إلى ما جرى بينها وبين إبراهيم ، ولا هى قالت شيئا .

ثم بالتدريج لم نعد نتكلم فى جلساتنا عن أمورنا الشخصية . ولاحظت بعد مدة أننى وحدى الذى أتكلم ، وأنها تجلس فى معظم الوقت صامتة ، تنصت

باهتمام ، وكأن كل تلك الحكايات التي لا معنى لها عن أسفاري وعن طفولتي وعن أصدقائي أشياء ينبغي ألا تغوتها منها كلمة . بين الحين والآخر تطلب أن أقرأ لها شعرا باللغة العربية ، وتظل تنصت وهي تصوب عينيها نحوى . ترفع يديها أمام وجهي إن حاولت أن أترجم لها قصيدة أو مجرد بيت من الشعر . تقول ما الأهمية ؟ .. ألا تفهم أنى كلما جهلت الألفاظ أخترقنى الشعر ؟ .. وأحيانا كانت تفاجئنى . فمرة حين فرغت من قصيدة لصلاح عبد الصبور قالت لى ما أشد حزن هذا الإيقاع ! .. مثل إيقاع دموع تنزل مترددة من العين .. وفى مرة أخرى ابتمت وأنا أقرأ لها من معلقة امرئ القيس وقالت : ها هى قافلة مسالمة تشق الصحراء ببطء وفجأة تنقض عليها خيول الأعداء من كل مكان ، ألا تسمع هذا الصخب ؟

ذلك ما كانت تقول قبل أن نكف حتى عن الشعر . قبل أن يتدفق شلال الثرثرة اليومية وهي تنصت وأنا أخاف أن أصمت . أظن أيضا أنى كنت أخاف أن تسامنى فظلت أسليها كطفلة بالحكايات ، ولم أكن أعرف قبلها أنى أستطيع أن أتكلم كل هذا الوقت أو أن عندى مثل هذا الرصيد من الذكريات . وكانت تبدولى مستمتعة وهي تنصت . أم تراها كانت تأمل طول الوقت أن أكف عن تلك الثرثرة وأن أصرخ بالحقيقة ؟ وكيف كنت أجزؤ ؟ .. كيف وعمرها نصف عمرى ؟ .. وكيف بعد كل ما عرفت عن حياتها ؟ .. فيم أزيد أنا على ألبرت ؟ .. ألسنت مثله ملونا وأجنيبا وطريدا من بلدى ؟ .. لا مكان لى هنا ولا هناك مثلما لم يكن له مكان . وقبل كل شىء فأين لى شبابه ؟ .. بل فيم أزيد أنا عن مولر ؟ .. ألا أطنطن مثله بالكلمات ؟ .. أحيانا كنت أنتبه . هى التي كانت تنبهنى فى واقع الأمر . فحين كنت أنزلق إلى الحديث عن السياسة أو عما يحدث فى بلدى كانت تقاطعنى . تمسك رأسها بين يديها وتقول بلهجة اعتذار : فلنتركك عن شىء آخر أرجوك . تجربة واحدة تكفينى .

لكن كل شىء تغير بعدما حدث فى لبنان .

★★★

كنت أجلس فى المقهى فى ذلك الصباح من يونيو ، منكبا على الجرائد التى اشتريتها .. الجرائد العربية والانجليزية والفرنسية محاولا أن أستخرج شيئا من بين السطور . أن أنتبأ بالتغيير الذى سيحدث أخيرا فى لبنان وفى مصر وفى كل مكان من الوطن . كنت منفعلا ومتحمسا عندما دخلت بريجيت فلم أنتبه إلا وهى تقف أمامى . حبيبتها بسرعة وأنا أجمع الصحف لأخلى المنضدة . وبمجرد أن جلست بدأت أحدثها عما قرأته وعما سمعته فى الإذاعات . قلت لها : اسرائيل فرضت الحرب الشاملة على العرب بحجة غريبة هى أن شخصا مجهولا أطلق النار على سفيرها فى لندن . ولكن بريجيت ظلت تستمع إلى دون انفعال وأخيرا وبينما كنت مندفاعا فى رواية التفاصيل قاطعتنى بوجه مكفهر : كفى ! .. ألم أقل لك من قبل ؟ .. أنا لا أقرأ صحفا وليس فى بيتى راديو ولا تليفزيون . أنا لا أريد أن أعرف شيئا عن هذا العالم المجنون الذى لا أفهمه . ألم تكن أنت الذى قلت لى فى أول لقاء بيننا إن هذه الحياة كذبة ؟

فقلت لها بغضب وأنا أخبط على الصحف المكومة أمامى : ولكن هذا الدم حقيقى جدا!!

فردت بهدوء : لم نكن نحن الذين أرقنا هذا الدم ، ولا نحن الذين نستطيع أن نوقفه . فقمى وقد استبدى الحنق ، وأنا أقول : تلك هى البلادة بعينها ! ... وكانت أول مرة أتشاجر معها . قلت وأنا أجمع صحفى المكومة على المنضدة إنها تجعل من حكايتها الشخصية عذرا لأنانيتها ولكى تعيش دون مبالاة بشيء مثلها مثل الآخرين . قلت لها إنها كان يجب على الأقل أن تقدر ما تعنيه لى تلك الحرب حتى وإن لم تعن شيئا لها .

وبينما أنصرف عنها أمسكت بيدي وقالت بلهجة ضارعة : ليكن . أنا مثلما تقول وأسوأ منه . ولكن لا تذهب . فلنظل صديقين كما نحن . لا أريد أن أفقدك أنت أيضا ! ..

غير أنى جذبت يدي منها فى عنف وقاطعتها وأنا أعيش تلك الأيام من الحمى . أقطع قصاصات من الصحف بكل اللغات وأشاهد كل النشرات فى التليفزيون ،

وأكتب فى كل يوم رسالة مطولة إلى صحيفتى فى القاهرة عن ربود الفعل فى أوروبا على تلك المجزرة - أترجم التعليقات الغاضبة وأصف المظاهرات التى تنظمها الأحزاب اليسارية وأنتظر . أدير مؤشر الراديو من المغرب إلى القاهرة إلى بغداد وأنا أنتظر فى كل لحظة أن يحدث شىء . أقول لنفسى لابد أن شيئاً سيحدث . شيئاً غير تلك الصور التى يجرح بها التلفزيون والصحف عينى كل دقيقة . أنتظر شيئاً آخر يغير ذلك الهوان ...

ولكن لا شىء .

لا شىء غير الدبابات والقنابل تطير وتذك ، والطائرات تقصف وجنود إسرائيل الأصحاء بيتسمون فى وجهى على الشاشة وهم يرفعون رشاشاتهم بعلامات النصر وفى المبخيمات يجرى الأطفال العرايا والأمهات بالشبابش البلاستيك وهن يلطنن الوجوه وسط أكواخ انزلت أسقفها على جدرانها لتصنع أكواما مهوشة من التراب والطوب وأسياخ الحديد الملتوية وسط دخان أسود ودخان أبيض . ومصر تعرب عن الأسف ولجنة الاقتصاد تعقد اجتماعا لبحث الخطة الخمسية . وصور تسقط وصيدا تسقط ومخيم عين الحلوة يباد ومخيم الرشيدية ومخيم المية مية كلها تسقط وتحترق ، والسعودية تعرب عن الأسف وتعلن ثبوت رؤية الهلال وتبعث رسائل للملوك والرؤساء . والجزائر تستنكر وتعلن تيسيرات جديدة للمستثمرين الأجانب . والطائرات فوق بيروت - ٢٠٠ قتيل و ٤٠٠ جريح و ٩٠ قتيل و ١٨٠ جريحا .. أرقام تنقلها الأخبار لا غير .. وشارع باكمله يحترق وتفقد كل عائلته واجهاتها بعد ضربه بالقنابل الفراغية وتبدو فى الصور بقايا الحياة فى الغرف العارية - مناضد مقلوبة ولعب أطفال ملوثة بالدم وصور فوتوغرافية وتمائيل صغيرة للعذراء مهشمة على الأرض وسط حرائق وجثث ملقاة على ظهرها وأخرى مكورة على جنبها ، وامرأة عجوز مشلولة فى ملجأ تجلس على مقعد وتحاول أن تدفعه للأمام أو للخلف وسط عنبر فقد جدرانه ولكن الأحجار المتناثرة فى الأرض تمنعها من الحركة فى أى اتجاه فترفع الشال الأبيض عن رأسها وتبكي ..

تطاردنى صورة تلك المرأة فى الليل وأنا أصارع النوم وصورة رجل يجرى مذعورا فى الشارع وسط دوى المدافع وهو يحمل ذراعاً آدمية مبتورة يلفها فى صحيفة تقطر دما . لماذا يحمل هذه الذراع ؟ يطاردنى جنود إسرائيل وهم يسوقون بكعوب البنادق شبابا معصوبى الأعين وأيديهم مقيدة خلف ظهورهم . ولكنى أقول لنفسى غدا فى الصباح سيتغير كل شيء . لا يمكن أن يستمر هذا . إن كانت إسرائيل قد فعلت هذا لأن سفيرا ، فردا ، قد أصيب ، فلا بد أن بركانا من الغضب سينفجر عندنا ونحن نرى ونسمع عن مئات يموتون كل يوم .. لا يمكن أن تكون النخوة قد ضاعت إلى الأبد . هى دماء على كل حال تلك التى تجرى فى عروقنا وليست جليدا وسينفجر الغضب قبل الصباح !

.. ولكن فى الصباح وقف إطلاق النار الثانى .. الثالث .. الخامس .. والمبعوث الأمريكى يأتى .. المبعوث الأمريكى يذهب .. ووقف إطلاق النار السابع .. وعربات إسعاف تجرى فى الشوارع المحترقة وتطلق صفاراتها العالية .. وإسرائيل تقطع عن بيروت الماء والكهرباء .. وطفلة حافية القدمين مهوشة الشعر تملأ بكوز صفيحة من مياه المجارى .. وفى غير بيروت لا شيء يحدث ..

وتقول لى الممرضة النرويجية كل ما رأيته فى التليفزيون وكل ما قرأته فى الصحف شيء آخر غير الحقيقة .

★ ★ ★

ذات صباح ، ولم أكن قد نمت جيدا مثلما كان حالى منذ بدأت الحرب ، اتصل بى برنار وقال : تعال فورا . هناك شيء مهم عن لبنان يجب أن تسمعه .. وذهبت إلى مقهاه . كان ينتظرنى ومعه سيدة شقراء تميل إلى البدانة ، فى حوالى الأربعين من العمر ، قدمها إلى قائلا : ها هى ماريان إريكسون . ممرضة من النرويج تركت لبنان بالأمس وتقضى هنا يوما فى طريقها إلى بلدها . فقالت بابتسامة صغيرة : بل طردت بالأمس من لبنان . هذا شيء يختلف ..

تأملت وجهها الشاحب وعينيها المحتقتتين وهي تسند ظهرها الى المقعد فى استرخاء وقد تدلت يداها إلى جوارها وتبذل مجهودا مع ذلك لكى يبدو عليها الانتباه والتيقظ ، وقلت لنفسى هذه إنسانة بحاجة إلى النوم لا إلى الكلام ..

والتفتت هى نحو برنار وقالت بتلك الابتسامة المتعبية : حتى الطرد كان مشكلة، هل حكيت لك كيف طردونا ؟ .. كانوا يحتجزوننا فى المستشفى بعد إغلاقه وظل سفير النرويج خمسة أيام يحاول ترحيلنا نون جدوى . كانوا يجنون عذرا فى كل مرة لإبقائنا فى الحجز ، مرة لأنهم لا يعملون فى يوم السبت ومرة أخرى لأن الضابط المسئول عن إعطاء التصاريح فى إجازة ميدان . وأخبرنى السفير أن قائدهم قال له : لماذا العجلة على السفر ؟ .. البنات يستمتعن ...

وضحكت ضحكة خافتة ثم توقفت عن الكلام .

قال برنار الذى كان يبدو عليه الوجوم على غير عادته : سامحيننا ..

فنظرت إليه بدهشة وقالت : ولكن ماذا فعلت أنت لكى أسامحك ؟ .. ثم شبكت يديها على المنضدة وقالت لى : هل ستنتشر ما سأقوله لك ؟ برنار يقول إنه سيحاول ولكنه لا يعد بشئ ، فهل أنت متأكد أنك ستنتشر ؟

تجنبت عينيها المصويتين نحوى وقلت : أنا أيضا لست متأكدا ولكنى سأحاول ..

سألتنى فى أى صحيفة تعمل ؟ فقلت صحيفة فى مصر .

هزت رأسها وقالت أفهم : (ثم سكتت لحظة) أو فى الواقع لا أفهم ، ولكن من أين تريد أن أبدأ ؟

قلت : أن أتعرف عليك أولا .

- معك حق ، أنا أعمل .. أقصد كنت أعمل فى مخيم عين الحلوة فى الجنوب مع ممرضات أجنبيات أخريات ، كنا نساعد الأطباء والمرضى الفلسطينيين هناك . هل تعرف هذا المخيم ؟

- لا ، زرت بيروت من حوالى عشرين عاما ولكنى لم أذهب للجنوب ..

- حتى لو كنت قد زرته فى ذلك الوقت فلا أظن أنك كنت ستعرفه الآن . أقصد قبل أن تدمره الحرب . قيل لى إن المخيم تغير كثيرا خلال عشرين عاما . لم يعد مجرد مخيم . عندما رأيته أول مرة منذ حوالى سنتين كان يشبه قرية أو ضاحية صغيرة من ضواحي صيدا ، كان يضم حوالى ٧٠٠ أو ٨٠٠ بيت، مزدحمة على آخرها بسكانها من الفلسطينيين ومن اللبنانيين الذين لا مكان لهم خارج المخيم . سكتت مرة أخرى .. فتدخل برنار قائلا : اسمعى يا ماريان . لا نريد أن ننقل عليك . أنا دونت أهم النقاط التى ذكرتها لى ويمكن أن أعطيها لزميلى .. فقطاعته ماريان قائلة : لا . بالعكس . يهمنى أيضا أن يسمع صديقك ما حدث .. فأخرجت جهاز التسجيل ووضعتة أمامها . ولم أقل شيئا كثيرا بعد ذلك . كانت هى التى تنبهنى إلى أن الشريط قد انتهى وتطلب منى أن أغيره ..

قالت : سأحكى فقط ما شاهدته بعينى . عندما ظهرت الطائرات وبدأت الغارة صباح ٧ يونيو بدأنا نعد المخبأ فى الطابق الأرضى من العيادة .. نسيت أن أقول لك إن عيادتنا لم تكن مستشفى حرب . كل عملنا فى الأصل هو أن نعالج الأطفال المعوقين جسما وعقليا وأن نقدم أيضا إسعافات أولية للحالات العادية قبل أن نحولها إلى المستشفيات . وكان معنا زميلتان من الترويج لم تتعودا على صوت القنابل وكنت أنا أيضا خائفة رغم أنى عشت هذه الغارات من قبل . سمعنا بما حدث فى مخيم الرشيدية قبل يومين فنزلنا إلى المخبأ . أقصد إلى الطابق السفلى من العيادة وجهزنا بسرعة أماكن للأطفال ونقلناهم إلى هناك ، وكنت أعرف أن هذه الغارات تنتهى بعد نصف ساعة على الأكثر ، وبعد الغارة كان هناك كالعادة بعض القتلى وبعض الجرحى وبعض البيوت التى دمرت وكثير من الشظايا . ووجدنا أيضا إلى جانب الشظايا منشورات مكتوبة باللغة العربية ألقتها الطائرات تطلب من السكان إخلاء المخيم لأن القصف سيبدأ بعد فترة ..

ولكنه لم يبدأ بعد فترة ، بل بدأ على الفور وقبل أن نتمكن حتى من تضييد جراح ضحايا الغارة الأولى . أخذ الممرضون يجرون بمحفاتهم التى تحمل الحالات الخطيرة إلى عربات الإسعاف ، وكانت كل واحدة منا تحمل طفلا أو

طفلين من الجرحى وكان الناس يجرون إلى المخابىء المحفورة فى الأرض عندما بدأت القنابل تسقط من جديد . الذين كانوا قرييين لجأوا إلى العيادة لأن عليها علم الهلال الأحمر والصليب الأحمر ولأنها مميزة عن كل المباني بطلانها الأبيض والمفروض أن يبتعد عنها القصف . ولم يكن تدفق الناس على المستشفى شيئا سيئا . طلبنا من الأصحاء الذين لجأوا إلى العيادة أن يساعدونا فى إعداد أماكن لبقية الأطفال والنساء فى الطابق الأرضى وجندنا بعضهم للمساعدة فى الإسعافات الأولية للجرحى الذين لم ينقطع وصولهم إلى عيادتنا غير المجهزة وكنا مستغرقين فى العمل مع جرحى الغارات الجوية عندما سمعنا فى المساء قصفا من نوع جديد يسبقه صفير طويل ثم دوى مكتوم قبل أن تتوالى انفجارات متلاحقة وارتجاجات فى المبنى وزلازل فى الأرض ..

قال البعض فى زعر وصلت الدبابات والمدفعية الثقيلة . وأضيف إلى جرحانا من اخترقتهم شظايا الزجاج الذى صمد من قبل للغارات فى العيادة ولكنه تهشم مع هذه الانفجارات ، وأضيف أكثر منهم بكثير ممن استطاعوا الوصول إلى العيادة من البيوت والمخابىء المجاورة . كان البعض يدخلون وهم يحملون أطفالهم أو أمهاتهم أو زوجاتهم طالبين إسعافهم دون أن يلاحظوا أن الدماء تنزف من رؤوسهم هم أنفسهم أو من صدورهم . وكان البعض يندفعون صارخين والنيران تشتعل فى ثيابهم وأجسادهم ويسقط الكثيرون ميتين بمجرد أن دخلوا العيادة . وعجزنا عن إسعاف هؤلاء الوافدين بأكثر من المسكنات والمراهم . وأخذنا نساعد الأطباء فى عمليات عاجلة لم نتدرب عليها نحن ولا تدريبوا هم . بتر أذرع وسيقان وجراحات فى العيون وفى الجمجمة وكل ما يخطر على البال ، ولم ينقطع وصول المصابين ، ولم يعد فى المستشفى مكان لأى حركة . وكان مرضانا الأصليين ، أطفالنا المعوقون ، أقصد من كان يستطيع الحركة منهم ، يجرون فى كل مكان يضعون أيديهم على آذانهم وهم يصرخون ويريدون الخروج . والبعض يريد أن يلقي بنفسه من النافذة ليهرب من هذه الارتجاجات والأصوات ..

وكان من الصعب جدا أن نفرغ واحدة من الممرضات اللاتي يعرفن حالاتهم لكي
تعنى بهم ونحن فى هذه الظروف .

وفى لحظة توقف فيها ضرب المدافع غامر الطبيب البلجيكي فرانسيس كاييه
وقال سأحاول شيئا مع الاسرائيليين . ركب سيارة إسعاف حشر فيها من
استطاع من حالات الحروق والجراح الخطيرة وخرج فى اتجاه مدخل المخيم
ولكنه عاد بعد أقل من نصف ساعة ليقول إن الإسرائيليين رفضوا تسلم الجرحى
وقالوا: إنهم لن يقدموا له أى مساعدة إلا إذا سلمهم الإرهابيين ، يقصد الأطباء
والممرضين الفلسطينيين الذين يعملون معنا فى العيادة . وهمس دكتور كاييه فى
أذنى إنه بالكاد استطاع أن يسلم ١٠ من المصابين الذين أخذهم إلى المستشفى
الحكومى اللبنانى فى صيدا . قال إن هذا المستشفى مكس أيضا وإن الحالة
هناك تشبه الحالة هنا . ولم يكن لديه الوقت ليقول أكثر من ذلك ولا كان عندى
الوقت لأسمع . نفذت كل الأدوية التى كانت فى عيادتنا ولم يبق عندنا ما نقدمه
من إسعاف غير الكلمات وأن نضع أغطية على وجوه الموتى .

وفى الصباح كان كل شيء قد انتهى . أقصد أن كل شيء فى المخيم كان قد
انتهى . البيوت والبشر وكل شيء . عندما خرجت لحظات فى الفجر لم أتعرف
على المكان . كانت هناك حرائق فى البيوت القليلة التى ظلت قائمة ، ولهب ودخان
يخرج من أنقاض البيوت التى تهدمت . وكان هناك أشخاص قلائل يجوسون
وسط الأنقاض . يبحثون عن أقاربهم أو عن جثث أقاربهم ويسعلون مثلى طول
الوقت . لم يكن هناك صوت آخر غير السعال وأنين خافت مكتوم لا تعرف إن كان
يصدر من البيوت القائمة أو من تحت الانقاض . وعلى الأرض كانت الجثث
والأشلاء فى كل مكان ، وبالذات حول المخابىء . سأشرح لك شيئا عن هذه
المخابىء . كانت حفرا فى الأرض مغطاة ومبطنة بالأسمنت ، وكانت تصلح إلى
حد ما ضد الغارات الجوية ، لأنه ما لم تخترق القبلة السقف مباشرة فإن المخبا
يحمى من الشظايا ، ولكن مع المدفعية الثقيلة التى كانت تدك البيوت والأرض .

تحولت معظم هذه المخابىء إلى مقابر لمن لجأوا إليها، وكانوا يتكدسون بالعشرات أطفالا ورجالا ونساء فى هذه المخابىء ، رأيت واحدا منها وكان قد تحول إلى بحيرة صغيرة تطفو فوقها رعى وسيقان وأذرع وأستطعت أن أحصى من الجثث الطافية ..

لاحظت أن صوتها قد اختنق وأنها كانت تشير إلى يديها أن أوقف التسجيل فضغطت على الزر . غلبتها دموع لم تستطع أن توقفها فراحت تمسح بإصبعها ركنى عينيها وهى تقولى لى : معذرة . أنا ممرضة محترفة . رأيت فى حياتى كثيرا من الألم وكثيرا من الأشياء الصعبة ، وتعودت أن أتحمل . ولكن عندما رأيت ...

قلت بصوت ضعيف : إن كان يؤلمك أن تتحدثى فيكفى هذا ..

كان الصغير المتقطع قد بدأ فى أذنى والصداع خلف الرأس وكنت أتمنى بالفعل أن تكف ولكنها قالت : لا . مهما يكن فيجب أن أقول كل ما رأيتيه ويجب أن تنشره .

التفت مستنجدا نحو برنار الذى كان يعتمد ذقنه بيده ويراقبنا بغم مفتوح قليلا فقال : نعم يا ماريان . قلت لك إنى كتبت ملخصا .. ثم قال وكأنه يحدث نفسه : - كنت أحسب أننا تقدمنا قليلا عن عصر التتار .

فردت ماريان : لا أدرى ما أقول لك . أنا لم أنجب أطفالا وكانت فى نفسى غصة لذلك ولكن عندما شاهدت عذاب كل الأمهات هناك وكل هؤلاء الأطفال ... ثم تغلبت على خواطرها وقالت بنوع من الإصرار : فلنكمل . هل تريد أن نعيد هذا الجزء الأخير ؟

فقلت بما يشبه الصرخة : لا ! ! ..

ثم استدركت : أقصد أن الصوت واضح . أستطيع أن أفهمه .

- إذن سأكمل من حيث توقفت . لم يبق الكثير على أى حال .

ويقلب مثقل ضغطت على زر التسجيل فواصلت ماريان .

- رجعت إلى العيادة وأنا أعود وأبكي وقررت أن أكرر المحاولة التي قام بها
دكتور كاييه بالأمس . كنت أعرف أنه لو قاد سيارة الإسعاف سائق فلسطيني
فسيقضى عليه الإسرائيليون على الفور . فقدت أنا السيارة وأخذت معي زميلة
هولندية وحشرنا في السيارة الحالات الخطيرة التي يلزمها إنقاذ عاجل . واحدة
من هذه الحالات كانت سيدة اسمها خضرة الدندشى . أعرفها لأنها جاءت أصلا
إلى عين الحلوة من مخيم الرشيدية بعد أن دخله الإسرائيليون وقبضوا على
زوجها . وأصببت في مخيمنا بجرح غائر في كتفها وكانت ذراعها تتدلى منتفخة
بالشظايا وبالدم المتخثر . كان لا بد من بتره ولكن لم يكن لدينا أجهزة ولا أنوية .
ذهبت بها مع الآخرين إلى المستشفى الحكومي غير أنه لم يكن هناك مكان .
أخذتها إلى مستشفى خاص كنا نتعامل معه من قبل ، وقابلت صاحب المستشفى
واسمه غسان محمود .

أخذني إلى مكتبه وكان غسان مهذبا ولكنه كان حازما وهو يقول لى إنه لا
يستطيع قبول مرضاى . قال لى هذا مستشفى خاص له سمعته ومرضاك قدرون
للغاية .. لا بد لى أن أحافظ على سمعة المكان . ولم تتف مع أى محاولة فعدت
بمرضاى وتركتهم أمام باب المستشفى الحكومى . كانت خضرة الدندشى فاقدة
الوعى ولا أعرف إن كانت قد ظلت حية أم لا ..

وعندما رجعت كان الإسرائيليون قد دخلوا المخيم ... قبضوا على كل الأطباء
والممرضين الفلسطينيين . وأخذوا كل الجرحى من الشباب وكانوا يسوقونهم
ضربا . قال لهم الدكتور فرانسيس : اعتقلوا الأطباء والممرضين هنا فى
المستشفى . عندى جرحى ومرضى من الأطفال والنساء واحتاج إلى هؤلاء الأطباء
فقال له أحد الجنود :

- اسكت أنت يا إرهابى ! .. اسكت يا بادرمينهوف . ربما نعود لناخذك أنت
أيضا ..

★ ★ ★

كانت ماريان تتكلم ، وكان الشريط يسجل ولكنى لم أعد أسمع غير ذلك
الصفير المتقطع فى أننى وكلمات متناثرة .. الرشيدية .. الناقورة .. المخايب ..
الأنقاض .. السفير النرويجى .. وفى النهاية لاحظت أن صممتا طويلا قد حل ثم
سمعت ماريان تقول بصوت مرتفع :

- هل تريد أن تسأل عن شىء محدد ؟

فقلت بون تدبر : نعم ، كيف استطعت الخروج من لبنان ؟

تأملت ماريان وجهى فى دهشة وهى ترد : ولكنى قلت لك هذا منذ البداية
وكررتة توا . قلت إن سفير النرويج فى تل أبيب تدخل للإفراج عنا وترحيلنا بعد
أن احتجزونا فى العيادة بون عمل .

كان الصفير يتحول إلى طنين ، فقلت بون وعى :

- نعم . أنا أسف . ولكن لماذا ذهبت أصلا إلى لبنان ؟

ولما لاحظت أن الدهشة تمتزج فى وجهها بالغضب حاولت أن أعتذر ولكن
برنار خرج عن صمته ليقول لماريان : صديقى يريد أن يعرف ما الذى جعلك
تغامرين بالعمل فى لبنان . بصراحة أكثر يريد أن يسأل عن ميوك السياسية ،
أليس كذلك ؟ ..

هزرت رأسى مؤمنا على كلامه وأنا أقول : هذا بالفعل ما أردت أن أسأل عنه.

هل أنت مثلا ...

فقاطعتنى ماريان وارتفعت نبرة صوتها قليلا وهى تقول : لا . لست مثلا .
لست مثلا أى شىء . لست شيوعية ولايسارية ولا عضوا فى بادر ماينهوف ولا فى
الجيش الأحمر كما كان يقول لنا الإسرائيليون على سبيل الإهانة . لست عضوا
فى أى حزب أو منظمة من أى نوع .

- وإذن فلماذا ؟ ..

- ذهبت أول مرة مع زوجى الطبيب بناء على إعلان . كانوا بحاجة إلى طبيب

والى ممرضة لعلاج الأطفال المعوقين ، وهذا هو تخصصى . كان الإعلان يناسبنا تماما فقدمنا الطلب ..

ثم ترددت لحظة قبل أن تقول : ولكنى سأعترف بأنى بعد أن سافرت كمرمضة عادية أول مرة ، ذهبت بعد ذلك لأنى لم أصدق ما رأيت . لم أصدق أن شعبا بأكمله يمكن أن يكون مباحا للقتل وأن يكون دمه رخيصا إلى هذا الحد . مازلت حتى الآن لا أصدق أن كل هؤلاء الآلاف يموتون لأن هناك شخصا واحدا ضربه مجهول بالنار فى لندن .

سكت لحظة ثم وجدت نفسى أكرر ما قاله برنار فى البداية : سامحينا .
فقلت : ولكن ماذا فعلت أنت أيضا لكى أسامحك ؟ ..

وعدت إلى الصمت وعاد الصفير فى أننى ولما قامت لتتنصرف صافحتها وأنا أغمغم باعتذار آخر فقلت نافذة الصبر : أنا لا أفهم لماذا تعتذر لى أنت وبرنار ، ولكن أرجوكما أن تفعلنا شيئا . اكتبنا الحقيقة . فقال برنار وهو يضافحها بابتسامة متعبة على شفثيه : نكتب الحقيقة ؟ .. ذلك أصعب من إنقاذ جرحاك فى لبنان ، صدقنى . ولكن من يدرى ؟

★ ★ ★

كنا نسير صامتين فى الطريق برنار وأنا ، وخطر ببالى للحظة أننى لو كنت قد ساعدت يوسف على إصدار الصحيفة التى يريد نشرها مع صديقه المليونير لاستطعت أن أكتب ما أريد عن شهادة ماريان . وتذكرت أيضا أن أحد أصدقائى يعمل فى مجلة عربية فى باريس وأنه عرض على أن أكتب فى هذه المجلة .
وقلت بصوت مسموع : ولكن ما أهمية النشر بالعربية فى أوروبا على أية حال؟
لمن سنتكلم ؟

وكان برنار مشغولا بأفكاره الخاصة فالتفت نحوى وهو يقول : نحن أحيانا ننسى .. ولكن أليست مهنتنا هى أن نقول الحقيقة مهما كان الثمن ؟
فضحكت بصوت مرتفع .

قال برنار : ما الذى أصابك ؟ .. لماذا تضحك هكذا ؟
فوقفت فى الطريق وقلت لبرنار فى ذهول : أنت تسألنى ما الذى أصابنى ؟
أنت تسألنى بالفعل ؟!
وظللت واقفا فترة أتطلع إلى وجهه المدهوش ثم لوحته له بيدي مودعا
وانصرفت .

★ ★ ★

حين وصلت إلى الشقة أخذت حبتين من الأسبرين وجلست على الفور إلى
المكتب ، وضعت أمامى جهاز التسجيل والأشرطة . وكان المكتب مزدحما
فقضيت وقتا فى تنظيم الصحف المكومة . رميت الصحف التى قطعت منها
القصاصات المهمة ، ورتبت الصحف الأخرى التى لم أفرغ من قراءتها والتى لم
أفتحها ثم وضعت القصاصات فوق الصحف فى ركن من المكتب .
جريت القلم الرصاص الذى أكتب به ثم بررت أقلاما أخرى ووضعتها إلى
جانب دفتر الكتابة .

نظرت إلى صورة خالد وهنادى على المكتب ، ثم رفعت نظرى إلى عبدالناصر
المبتسم وسألته : ماذا أكتب ؟ ..

قلت له ماذا أفعل ؟ .. جربت كل شيء . كتبت موضوعا لنصف صفحة على
الأقل عنوانه «ارتياح فى أوروبا لمجازر بيروت» فنزل فى نصف عمود تحت عنوان
«دول أوروبا تنتقد مواقف إسرائيل» . أنقل فى مقال فقرات طويلة من تقارير
الصليب الأحمر وجمعيات حقوق الإنسان التى تتكلم عن قصف المستشفيات وعن
استعمال القنابل الفوسفورية والعنقودية المحرمة دوليا ، فيختفى ذلك كله من
صلب المقال . فى كل مرة «أخفف» اللهجة لكى ينزل المقال . أنقل ما تقوله
مصادر محايدة ولا أذكر رأى . أحكى عن عضو مجلس نواب أمريكى ، أمريكى
هذه المرة ، توقف فى المدينة فى طريق عودته من بيروت . أكتب أنه قال إن ما

يحدث في بيروت هو جريمة العصر . أنقل قوله إن أمريكا تدفع لإسرائيل ٧ ملايين دولار من المعونات يوميا وإن هذه الأموال هي التي تستخدم لقتل الأطفال والنساء في بيروت ، فيكون الخبر «سيناتور أمريكي يقترح خفض المعونة لإسرائيل!»

ماذا أفعل ؟ .. ماذا أكتب ؟ .. لا يمكن على أى حال أن أضع شهادة ماريان في الرسالة الشهرية ! .. كيف ؟ .. ممرضة نرويجية تمشى على يديها ١٤ ساعة وتحكى مشاهداتها في بيروت ؟ .. تضرب الرقم القياسي في إحصاء الجثث ؟ .. ماذا أفعل ؟

ظللت أجلس لحظة والقلم في يدي ثم قمت إلى المطبخ وصنعت فنجانا من القهوة . ضاغت كمية البن ووقفت ممسكا (الكنكة) فوق الشعلة الخافتة أراقب بحرص الفقاقيع وهي تتخلل البن حتى لا يفور وينسكب . عدت بفنجان القهوة وأنا أقول ، نعم يا برنار ، أصعب من إنقاذ المصابين في بيروت ! ..

شربت فنجان القهوة بسرعة فبدأ قلبي يدق بشدة . ولكنى جلست إلى المكتب وأمسكت القلم . كتبت عنوانا : سفير النرويج يحتج لاحتجاز ممرضات ، ثم شطبت العنوان ورحت أرسم في الورقة مربعات وأهرامات .

أمسكت أول واحدة من القصاصات التي أمامى . كانت صحيفة عربية تصدر في باريس وكان الكاتب يسأل : حتى متى الصمت ؟ .. ماذا جرى ؟ .. ألم تكن دماؤنا تسيل بالأمس غضبا على الفرنسيين في دمشق وفي تونس وطلبا للجلاء بالدماء ، فما الذى جرى لهذه الدماء ؟ .. أين ضاعت النخوة التي تجعل الإنسان ينتفض لنجدة أخيه ؟ دعك من الإنسان ! النخوة التي تجعل ذئاب الغابة تجتمع لتدافع عن نفسها ضد نمر أو أسد . هل نحن أسوأ من الذئاب والوحوش ؟ ..

بقية القصاصات كانت تردد الأسئلة نفسها : كيف ؟ .. لماذا ؟ .. والعبارة نفسها: العار ! .. الصمت .. المؤامرة ، إلخ ، إلخ .

سألت نفسى : إذن ماذا بقى لكى يقال ؟

سألت نفسي ومن يناشد هؤلاء الكتاب بالضبط ؟ .. ما معنى أن يسأل كل واحد الآخر ماذا جرى ؟ .. كأننا هناك عرب آخرون غيرنا نحن الذين نسال ! .. عرب يختلفون في مكان مسحور تنتظر منهم أن يظهروا ويتحركوا بالنيابة عنا جميعا !

ما العمل ؟ .. قمت وأخذت أتمشى في الغرفة .

أعمل قهوة أخرى ؟ .. بماذا تفيد ؟ ..

كانت المساحة التي أتحرك فيها صغيرة جدا فكنت أتمشى ثلاث خطوات وأعود إلى المكتب . أمسكت وأنا واقف بأول صحيفة تحت القصاصات . في الصفحة الأولى كانت هناك صورة أعرفها . قرأت الخبر فرجع الطنين الحاد إلى أذني . جلست على الكرسي دفعة واحدة . ظللت أمسك الصحيفة ويدي ترتعد . قلت لعلى لم أفهم ، وقرأت الخبر مرة أخرى . لا . ليس هناك أمل في ألا تقرأ ما قرأت ! .. قرأته بالفعل وإن ترجع مرة أخرى تلك اللحظة التي كنت تجهل فيها والتي كان لا يزال فيها حيا . نعم ، خليل حاوي أطلق الرصاص على رأسه في بيروت . هذا حدث وانتهى فلا أمل في ألا تعرفه .

تركت الصلاة وتمددت بثيابي على السرير . رحت أضغط بيدي على قلبي وكأني يمكن بهذه الطريقة أن أهدئه ..

حريص أنت على حياتك ؟ .. تخاف من هذه الدقات السريعة ومن الطنين في الأذن ؟ .. لا تخف ، لن تموت ، سيحتلم قلبك الحجري قصة عين الحلوة والقهوة الثقيلة وموت الشاعر . لا تخف . لو أن دماء بالفعل هي التي يضخها قلبك لكنت الآن هناك ، إلى جواره ، مصروعا إلى يمينه . لا تخف ، لن يحدث لك شيء .

قفزت من الفراش وخرجت مرة أخرى إلى الصلاة ووقفت أمام عبدالناصر . سألته لماذا يعيش غسان محمود ويموت خليل حاوي ؟ .. لماذا يموت من صدقك وصدق الرؤيا ؟ .. كان قد رأنا - كما قلت أنت - نغتسل الصبح في النيل وفي الأردن وفي الفرات . فلماذا كذبت عليه ؟ .. لماذا ربيت في حجرك من خانوك

وخانونا ؟ .. من باعوك وباعونا ؟ .. لماذا لم يبيع غير غسان حمود ؟ .. لا تدافع عن نفسك ولا تجادلني ، فهذا هو خليل حاوي قد انتحر ! ثم ماذا تريد أن تقول ؟ .. إننا كان يمكن أن نفعل شيئاً ؟ .. كيف و خليل حاوي لم يكن يملك شيئاً غير ضلوعه ، تلك التي مدها جسرا وطيدا من كهوف الشرق من مستنقع الشرق إلى الشرق الجديد ؟ أى شرق جديد ولم يعد هناك شيء غير الكهوف والمستنقع وغسان محمود ؟ .. كيف كنت تريده ألا يطلق الرصاص على رأسه ؟ .. سلاحه لم يكن يصلح لشيء غيرها فما رأيك ؟ ..

لا تبك ! .. على الأخص لاتبك ! .. ولا داعي لهذه الحشجة في الصوت ، ولا داعي لقرار من رئيس الجمهورية بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس مساهمة مصرية - ولا داعي لقامت دولة عظمى تحمي وتهدد وتصبون وتبدد ولا داعي لكل هذا الطنين في الأذن فأننا لا أحتمل ! أسمعت ؟

ثم أى زجاج هذا الذى يتناثر فى الأرض؟..

ومن أين يأتى هذا الرنين ؟ ..

من الذى يصرخ ؟

وما الذى يسقط ؟

الفصل السابع

ليل حنون .. حديقة حانية

وكان ما كان ،

ثم جاءت السكينة وجاء الجمال ... ثم أصبح القط الأسود يطارد الفأر ،
والفأر يخطف الجبن ، ثم كان القط يضع القنبلة فى الجبن لكى تنفجر فى الفأر ،
فيلقى الفأر الجبن على القط ، وحين ينفجر يسقط القط على ظهره ، ولكن لا
يحترق منه غير شعره وذيله ، ثم يرجع قطا كما كان ويعود ليطارد الفأر ...
بعدها يأتى الرجل المضحك السمين لكى يضرب الرجل المضحك الرفيع ، أو
ربما العكس ، ثم يأتى شارلى ليقول غدا تشرق الشمس وتغرد الطيور وتفتتح
الأزهار ولكى يأكل حذاه حين يجوع . وكنت ابتسم لشارلى ، وحين تتعب عيني
أفتح الراديو المثبت إلى جوارى فتنبعث منه موسيقى حلوة تقول نم ، نم ، نم ،
فانام .

وفى النهار كنت أتمشى قليلا . أقضى وقتا فى الصالة الخارجية . أشاهد
التليفزيون وأراقب زملائى ويراقيوننى ، ونتبادل الابتسامات والأحاديث . وفى
الصالة كان التليفزيون يقدم البرامج نفسها مثل ذلك الجهاز الصغير المعلق فوق
سريرى . لم تكن هناك أى أخبار أو أى برامج . لم يكن هناك أى عالم حقيقى ،
بل أفلام الرسوم المتحركة المتعاقبة وبعض الإعلانات عن أنوية الحموضة وعن
معاجين الأسنان تملأ الشاشة بفتيات جميلات يكشفن أسنانهن البيضاء
وابتسامتهن العريضة . وكنا فى صالة هذا الطابق المخصص لحالات القلب
والأوعية الدموية ، نجلس بالساعات ونحن نحبك الأرواب فوق جلايبب المستشفى
البيضاء التى تشعرنا بالعرى ، ونتابع بعيون نعسانة ميكى ماوس ونقار الخشب
والكلب الكسلان ولوريل وهاردى ، ونضحك بوقار طوال الوقت ، قبل أن تأتى لكل

منا ممرضة فى حوالى السادسة أو السابعة وفى يدها الحبوب المهذبة والماء ، وعلى شفيتها الابتسامة المهذبة ، وبعدها نذهب إلى غرفنا ثم يأتى النوم السعيد ، لنصحو فى الصباح ونرى القط يطارد الفأر ...

كان الطبيب قد قال لى إننى محظوظ ، وإنه لو لم ينقلنى برنار فى سيارته على الفور لقتت على الأزمة بعد دقائق ، لأنه كانت هناك أيضا جلطة تتكون فى أحد الشرايين وتتحرك نحو القلب . وشرح لى أننى يجب بعد هذه الأزمة أن أعود نفسى على عدم الانفعال وعلى الاعتدال فى الأكل والشرب ، ويجب ألا أقرب التدخين . ولما قلت له إننى امتنعت عن التدخين منذ مدة . رد وهو يبتسم بنوع من التائب : ولكن ها أنت تدفع ثمن السنوات السابقة ! .. كان طبيبا شابا ، وقيل إنه عبقرى ، ولكنه لم يكن يقدم أى تشجيع أو أمل . غير أن الحبوب المهذبة كانت أثنى هداياه . أصبح النوم يأتى بسهولة وكثرة ، وابتعدت الأفكار السيئة ومعها كل الأفكار الأخرى .

واعتاد برنار أن يأتى لزيارتى فى طريقه من الحضانة التى يودع فيها طفله الفييتنامى جان - باتيست . كان فى حوالى الرابعة أو الخامسة منور الفم تقريبا ، تشع عيناه السوداوان بالذكاء ولكنه يلتصق ببرنار ويرفض أن يكلم أحدا ، وكنت أعرف بالتجربة أنه يستحيل أن تكسر بالإلحاح قشرة طفل خجول ، فتركته أملا أن يألبنى ذات يوم . اكتفيت بأن أقدم له كلما جاء قطعاً من الشيكولاتة فى العلب التى أحضرها لى يوسف المصرى فى أول زيارة له ، ثم انهمك بعد ذلك فى الحوار مع برنار . أشكره لأنه أنقذ حياتى فيغرق فى الضحك . يقول إنه فى الحقيقة أنقذ نفسه لأنه كان سيشعر بالذنب لو حدث لى شئ بعد تلك المقابلة مع ماريان ، قال إنه رأى فى عيني شيئا ألقته عندما تركته فى الطريق بعد المقابلة ، وحين طلبنى فى التليفون لم يفهم شيئا مما قلته ولكنه سمع صرخة وارتطام السماعة فى الأرض فأدرك ماحدث . وكنت أحكى لزملائى فى الغرفة أو فى الصالة تلك القصة وأقول إننى مدين له بحياتى ، فبلغت برنار نظرى برفق إلى أننى سبق أن حكيت لهم هذا كله ثم يكمل أنه لابد أن يجرب هو أيضا هذه الأوبة التى تجعلنى أفقد

الذاكرة وتجعلنى مهذبا إلى هذا الحد . ولكن برنار رفض تماما أن يحضر لى أى صحيفة أو أن يحدثنى عما يدور فى لبنان . قال إن الطبيب منع أى شئ يمكن أن يثير انفعالا وإنه أعطى تنبيها صارما لكل الزوار ، ولم أكن أشعر فى نفسى بأية قدرة على الإلحاح فى الطلب ، فكنت أتسلى بمتابعته وهو يبذل كل جهده لى لا يدخل فى الحديث أى موضوع مثير للقلق ! ... وفى النهاية اكتفى بأن يحكى لى قصصه مع جان - باتيست . كان يشكو دائما من أنه يعذبه فى الذهاب إلى فراشه فى موعده فى الليل .

وقال لى ذات مرة إنه هدده بالأمس بأن يعاقبه ما لم ينم ، فرد جان - باتيست بأن ذلك لا يهمله لأنه يستطيع أن يحول نفسه إلى عصفور ويطير قبل أى عقاب . واستشهد برنار بى على أن كل الناس يجب أن تنام فى موعدها لى تصحو نشيطة فى الصباح ، فأمنت على كلامه وقلت وأنا أتطلع نحو جان - باتيست :
- وكذلك كل العصافير وكل القطط وكل الكلاب لابد أن تنام فى موعدها فى الليل .

ففاجأنى بأن صوب نحوى عينيه السوداوين فى نظرة متحدية وسألنى :

- وهل تذهب السمكة لتنام فى موعدها بالليل ؟

- نعم .

- كيف ؟

- عندها بيت صغير تحت الماء تذهب لتنام فيه .

مط جان - باتيست شفتيه مستهزئا وسكت لحظة قبل أن يقول لى : والسمكة

الصفراء التى عندنا فى الحوض ؟

نظرت نحو برنار لى بيقظنى ، فقال وهو يضحك نافذ الصبر :

- هى لا تنام . وما لم تنم أنت فى موعدها فستصبح بالتأكيد سمكة صغيرة

صفراء ! هل فهمت ؟

ولم يكن مسموحا لى بأن أخرج عن هذا المستوى من الحوار .

حتى يوسف الذى كان يزورنى كل يوم تقريبا لم أنجح فى استدراجه ليقول لى

شيئا عما يحدث فى العالم .

زارنى أول مرة مع زوجته التى قبضت على يدى بمجرد دخولها بيديها الاثنتين
معا ، وخاطبتنى كما لو كانت تحدث طفلا : يا سيدى الطيب المسكين ! .. مع أنك
كنت تراعى صحتك جيدا ! .. لم تكن تشرب غير القهوة الطيبة ! .. فقال يوسف
بشىء من الخجل : كفى يا إيلين . هو بخير .

نظرت نحو يوسف كأنها تتهمه بأنه هو الذى قال العكس وقالت : ماذا تظن ؟
.. السيد بخير . بالطبع ! هى وعكة بسيطة وسيخرج بعد أن يرتاح قليلا ..
ثم همست تخاطبني وكأنها تطلعنى على سر : المرضات قلن لى إن تحسنتك
مذهل ... م ... نذ ... هـ ... ل ... ! عما قريب سنكون على قدمينا فى الطريق . ما
رأيك ؟ ..

فكرر زوجها بلهجة أشد حزما : كفى يا إيلين !

وأصبح يوسف بعد ذلك يأتى بمفرده . واعتاد أن يحدثنى أيضا مثل برنار
ومثل ميكى ماوس ومثل شارلى شابلن عن أشياء مسلية وأشياء مضحكة . وكانت
حكاياته المفضلة هى ما جرى له عند وصوله إلى البلد ومغامراته أيامها ليجد
مكانا ينام فيه . قال إنه عندما وصل فى الصيف لم يكن هناك مشكلة إذ اعتاد أن
يجد مكانا منزويا فى الحدائق العامة بعيدا عن أعين الشرطة . ولكن متاعبه بدأت
عندما حل شتاء البلد الصعب . وكان فى البداية محظوظا : اكتشف قبوا
يستخدمه السكان مخزنا فى عمارة هادئة ، فيه سرير قديم . فكان يتسلل إليه فى
وقت متأخر وينام حتى الصباح ، غير أن واحدا من السكان اكتشفه ذات ليلة
واعتقد أنه لص وأراد أن يستدعى الشرطة لولا أنه نجح فى الفرار . قال إنه
قضى تلك الليلة مقرصا فى كايينة تليفون بحثا عن شىء من الدفاء ، ولكن الهواء
كان يخترق الكايينة من كل مكان وفى الصباح كان قد تجمد بحيث لم يعد
يستطيع السير على قدميه . قال إن مصريا له خبرة سابقة تعرف عليه فى إحدى
الحدائق العامة أنقذه من الهلاك . لم يكن يوسف يعمل ولم تكن لديه أوراق إقامة
فى البلد ونفذت كل النقود التى كانت معه وبدأ يفكر فى الرجوع إلى مصر . فكر
أن العودة إلى السجن أرحم مما هو فيه . ولكنه تعرف على (مأمون) الذى كان

عاملا فى مصر وعاطلا هنا ، فدلله كيف ياكل وكيف ينام .. عرفه أولا على جمعية خيرية تقدم وجبة مجانية بسيطة للفقراء وتوزع عليهم مبالغ زهيدة كانت تكفيه لأن ياكل شيئا فى المساء . واصطحبه فى الليلة نفسها إلى منامته الخاصة ، تسللا فى الليل إلى مخازن السكة الحديدية وكانت هناك عربيات قطارات منفردة مغلقة ومع مأمون مفتاح خاص ، فتح به عربة نوم الدرجة الأولى حيث كان الفراش مريحا والأغطية ثقيلة ، ونبهه إلى أهم درس لمواصلة الاستمتاع بهذه النعمة ، وهو ضرورة الاستيقاظ قبل نور الفجر ومغادرة العربة قبل وصول عمال المخازن . قال يوسف إنهما قضيا فى تلك العربة أياما سعيدة ، ولكن ذات صباح بعد أن سهرنا طويلا مع الشراب والدردشة ، استغرقتا فى نوم عميق وفى الصباح اكتشفا أن العربة تتحرك بسرعة وأنهما على سفر لا يدریان مقصده . قضيا الوقت فى تبادل مراقبة مفتش القطار والتنقل من عربة إلى أخرى ثم نزلا فى أول محطة . وهناك اكتشفا أن الناس يتكلمون لغة غريبة لا يعرفانها ، وقفا فى المحطة حائرين إلى أن وجدا شخصا له ملامح عربية فسألاه أين هما ؟ ... غضب الرجل واعتقد أنهما يسخران منه ، ولكنه بعد شئ من الشرح والإلحاح قال إنهما إن كانا لا يعرفان حقا فليعلمنا أنهما فى ميلانو . ويعد أن انصرف الرجل سأله مأمون متحيرا : وفى أى داهية ميلانو هذه ؟

ولما سألت يوسف وكيف استطعت أن ترجع إلى هنا مرة أخرى ؟ قال ضاحكا رجعتا بعد أيام ، فى عربة النوم نفسها وبالطريقة نفسها .

حكى لى يوسف كل الأشياء الصعبة التى مر بها كما لو كانت نكتة ، غير أنه كان يتوقف دائما قبل تعرفه على إيلين وزواجه منها . وكان يطرأ على بالى أحيانا ويوسف يحكى لى بيدرو إيبانيز ، أسأل نفسى هل ينام الآن فى قيو أو فى قطار؟ . وهل أصبح حقا أسعد حالا مما كان فى معسكر الاستقبال ؟

وكان يوسف ينقل لى بين حين وآخر تحيات الأمير وسؤاله عنى ، غير أنى كنت ألتقى فى كل يوم أيضا باقة زهور ضخمة ومنسقة بعناية ، مع بطاقة «تحيات الأمير حامد بن ... وتمنياته بالشفاء» . وفى آخر اليوم كنت أوزع هذه الباقات

بالتناوب على المرضات فيسعدن بهذه الزهور الثمينة النادرة .

★ ★ ★

واعتادت بريجيت أن تأتى كل يوم فى الظهيرة فى فسحة غداثها المعتادة ، تدخل بزيتها الأزرق وفى يدها باقة صغيرة من الزهور ، فتشيع ابتسامتها البهجة فى الغرفة بمجرد أن تخطو إليها . وكنت أشعر بنوع من الزهو حين أرى نظرات المرضى الآخرين المبهورة . وافتعالهم أى مناسبة للاقتراب منا والحديث إلينا . ولكن هذا الزهو انقلب إلى شعور بالعار وبالخجل من نفسى حين قال أحدهم يوما بعد أن انصرفت وهو يغمز بعينه هل هذه هى السبب فى أنك هنا ؟ .. فى مثل سننا يا صديقى يحسن أن تتجنب الصغيرات والجميلات . لم تعد قلوبنا تحتمل ذلك . غمغمت محتجا وغازبيا بالقدر الذى تسمح به أدويتي ، وأنا أقول إننى لا أسمح له أن يقول ذلك ، وإنما مجرد صديقة وإنما فى سن ابنتى وكلام كثير من هذا النوع ، ثم أصبحت أحرص بعد ذلك حين تأتى أن أختفى بها عن الأنظار فى قاعة أخرى أو فى طابق آخر فى المستشفى . وفى تلك الأيام كانت هى التى تثرثر، تبحث أيضا عن حكايات مضحكة تسلينى . ومع استمرار «التحسن» والأدوية المهدئة لم أكن أستطيع مقاومة الفهقة حتى على الأشياء التى لا تستحق ذلك ، فكانت هى تضحك لبهجتى المستمرة .

وفى اليوم السابق لمغادرة المستشفى استدعانى الطبيب إلى مكتبه . قال بمنتهى الجدية إنه درس حالتى فوجد أننى أعمل صحفيا وان هذا العمل لا يناسب حالتى الآن ويجب أن أغيره . أوشكت أن أضحك أيضا لهذه النصيحة ولكنى وعدته أن أبذل جهدى فى أسرع وقت . ونبهنى الطبيب إلى أننى يجب ألا أتجاوز فنجابين من القهوة فى اليوم ، ويمكن بعد أسبوعين أن أمتنع عن الحبوب المهدئة . أما أقراص الضغط وسيولة الدم فيجب أن أفهم أنها منذ الآن جزء من روتين الحياة اليومى ، قلت إننى فهمت فلم يبد مقتنعا بذلك تماما ، وكرر التعليمات بطريقة أخرى .

ويمجرد أن خرجت من المستشفى اشترت صحف اليوم وتوجهت إلى مقهى

على شاطئ النهر ، بدأ المشى فى الشوارع ولفحة الهواء كالمفاجأة بعد أيام احتجازى فى المستشفى ، ولم أكن أستطيع المشى بسرعة فأخذت أمتع بحريتي الجديدة على مهل . ولاحظت حين وصلت إلى المقهى أن الزهور فى أحواض المدخل قد تغيرت ، أصبحت هى زهور نهاية الصيف وبداية الخريف بألوانها الهادئة البنية والبنفسجية والصفراء الداكنة .

بدأت أقرأ الصحف وأنا أشرب كوبا من العصير ، ولكنى تركتها بعد فترة قصيرة ورحت أنظر إلى النهر . كانت العناوين هى نفسها والاحصاءات هى نفسها - آلاف القنابل من الطائرات وآلاف القذائف من المدافع على بيروت المحاصرة . وأجرت واحدة من الصحف مقارنات فقالت إنه سقط بالأمس فوق بيروت ١٨٥ ألف قذيفة توازى ٢٦ ألف طن من المتفجرات . وحددت أنه سقط بالأمس أيضا ٢٨٠ قتيلا و ٥٠٠ جريح . وكان هناك مقال فى صحيفة عربية تقدمية يؤين خليل حاوى ويقول إنه كان شاعرا كبيرا ولكنه أخطأ حين انتحر لأن الإنسان يجب ألا ينهار أمام الظروف الصعبة إلخ . إلخ .

طويت الصحف واستغرقت فى مشاهدة تشكيلات البجع ، وكان إلى جوارى رجل عجوز يعطى حفيده قطعا صغيرة من الخبز ليلقيها فى النهر ، فتجمع تحت النافذة سرب كبير يمد رقابه البيضاء إلى الماء ويرفعها فى وقت واحد ثم يميل نحو البط الصغير الذى يزاحمه لكى يهاجمه بمناقيره الخمرء الغاضبة ، فقلت لنفسى ها هى رقصة البجع الحقيقية .

وانتهبت بعد لحظة إلى أن بريجيت تقف إلى جوارى . قطبت جبينها حين رأت الصحف المطوية على الطاولة وقالت بنوع من التأنيب : والآن أيها العنيد العزيز ألم يمنع الطبيب ذلك كله ؟

لكنها قبلتني فى خدى قبلة جارة وقالت كم أنا سعيدة لأنك رجعت . أنت لا تعرف كم افتقدت جلستنا فى هذا المكان !

ثم أخذت الصحف المطوية ورمتها فوق مقعد بعيد .

قلت : لاداعى لهذا يا بريجيت . ليس من أجل نصائح الطبيب ولكن أنا نفسى

قررت أن أفعل مثلك ، قررت ألا أقرأ الصحف أو أشاهد الأخبار بعد الآن . ما الداعي ؟ أنت قلت لم تكن نحن الذين أرقنا هذه الدماء ولا نحن الذين نستطيع أن نوقفها . على الأخص لا نستطيع أن نوقفها .

- ها هو شخص يرجع عاقلا من جديد ...

ثم ضحكت وهي تكمل : ولو أنني لا أحب الناس العاقلين ! ولكنني كنت أحنى رأسي وأقاوم دموعا تريد أن تتكون في عيني .

وعدنا نتكلم وملتقى كل يوم . غير أن الأمور لم تعد قط كما كانت من قبل . أفهم أنني تغيرت قليلا بعد المرض والعلاج ولكنني كنت أسأل نفسي ما الذي غيرها هي ؟ ... لماذا اعترأها هذا الصمت والشroud الطويل ولماذا لم تعد تحكى لي قصصها اليومية مع السياح ؟ .

وأخذ يحدث لي أنا أيضا تغيير آخر في هذه الأيام . فحتى بعد أن كفت عن الحبوب المهدئة أصبحت تتأبني انفعالات غريبة ، بدأت ألاحظ ذلك في المساء عندما كنت أجلس في البيت أراقب الأفلام المصرية القديمة على الفيديو . كانت الدموع تصعد إلى عيني بمنتهى السهولة حين أشاهد فاتن حمامة معذبة من مكائد زكي رستم العجوز أو حين يهجر كمال الشناوى شادية بون مبرر وفي بطنها الجنين ، أمسح الدموع من عيني وأوقف الفيديو وأنا أحاول أن أضحك . أتذكر كيف كنت في شبابي أسخر من هذه الأفلام وأتكلم عن تأخر فن السينما في بلدنا وعن الميلودرامية وهذه الأشياء . فما الذي حدث ؟

تطفر الدموع أيضا حين أستمع إلى صوت خالد أو هنادى في التليفون . بكيت بالفعل يوم قالت لي هنادى إنها نجحت بمجموع ٧٠٪ وطلبت منها أن تسأل فوراً عن اشتراك نادى الفروسية ، فقالت «ميرسى يا أجدع بابا . بس أنت بتعيط ولا شكك كده ؟» .. وحين هنأت خالد أيضا على نجاحه المتفوق ، قلت له بصوت متهدج إننى فخور به وإننى أسامحه ، فرد خالد بدهشة «تسامحنى على إيه يا بابا» لكنني كررت أنى أسامحه وأنهيت المكالمة قبل أن أجهش بالبكاء .

وبصعوية أيضا أصبحت أحبس دموعى أمام بريجيت ... أعاتبها عتابا شديدا

إذا ما تأخرت قليلا عن موعد الظهرية وتضطر هي إلى الشرح وإلى الاعتذار بينما تطل دهشة من عينيها لأنها ترانى أحول وجهى للناحية الأخرى وأضعه بين كفى لأقوام البكاء . وفى النهاية كان لابد أن أصارحها بما يحدث لى فقالت :

- بالنسبة لى أنا أجدك هكذا أفضل بكثير مما كنت من قبل . قلت لك إننى لم أحب فى حياتى الناس العاقلين جدا . ولكن لماذا لا تذهب إلى الطبيب مادام هذا يزعجك ؟ ...

غير أن طبيبى لم يفهم أى شئ ، فحصنى بدقة كعادته وأرسلنى أجرى فحوصا وتحليلات للدم ، ثم قال بعد أن راجع نتائج التحليل إن هناك تقدما كبيرا يحدث ، بل إننى أكاد أكون عاديا . ولما شرحت له مرة أخرى ما أشعر به وأننى لم أعد أستطيع أن أسيطر على دموعى ، استمع إلى باهتمام ثم كتب لى خطابا يحولنى به إلى طبيب للعيون وهو يقول : بعد أن نظمتن على حالة العين نفسها يمكن أن أحولك إلى طبيب نفسى .

أوشكت أن أشتم الطبيب لكنى أخذت الخطاب وغادرت العيادة بسرعة وكنت أدمدم وأنا أنزل السلم وشعرت أن الانفعالات القديمة ترجع مرة أخرى فوقفت فى مدخل العمارة أنتفَس بعمق أحاول أن أهدأ وأحاول أن أتذكر أين ركنت سيارتى . وكنت بالفعل قد أصبحت أهدأ حالا بعد أن خرجت إلى الطريق وواجهتني لذعة برد خفيفة منعشة .

مشيت الشارع الطويل كله أبحث عن السيارة دون جنوى ، فوقفت عند الناصية أظلل عيني بيدي وأنا أحاول أن أميزها بين عشرات السيارات التى تصطف على اليمين واليسار . لكنى بعد لحظة نسيت السيارة وكل شئ آخر . وسألت نفسى كيف لم أر هذا من قبل ؟ ... كيف فاتتني أن ألاحظه ؟ ... كيف غاب عن عيني هذا الخريف الجميل الذى بدأ هذا العام مبكرا عن موعده ؟

كانت الأشجار على جانبي الشارع فى ذلك الحى الهادئ قد شحبت خضرتها ووشتها الأوراق الصفراء اللامعة والطرية ، متوهجة فى الشمس . وكل شجرة زهرة عملاقة مزخرفة بالألوان الخضراء الباهتة والخضراء المصفرة والصفراء

البنية والمشرية بالحمرة ، والمفضضة ، وألوان أخرى لا أعرف وصفها وسط ذلك العيد الخريفى . وكان الهواء يدفع بعض الأوراق فتطير ببطء مثل فراشات مذهبة قبل أن تستقر على الأرض .. قبل أن تنضم إلى سرب هاجع آخر يصنع دائرة حول جذع الشجرة ، ويرسم تحتها صدق شجرة أخرى صفراء ، ترتعش بالهواء فيصدر احتكاكها صوتا صغيرا خشنا لكنه يدغدغ الحواس .

وقفت طويلا لا أفكر فى شئ وأنا انقل بصرى بين السماء الزرقاء الصافية والشجر الذى ينفض زينته فى الأرض ، تنزل دموعى فلا أقاومها ولا أريد الآن أن أقاومها ، وكأن شيئا فى داخلى يقول إنه من قلب هذه النار الذهبية اللوانية ستوقد روحى وتبعث من جديد ... وبدأت أمزق فى بطء رسالة الطبيب فحمل الهواء قصاصاتها البيضاء وراحت تتطير أيضا وسط أوراق الأشجار التائهة .

أتراه هو أيضا ، نفسه ، ذلك اليوم الذى قالت فيه بريجيت إنها تحبنى ؟ ذلك اليوم الذى جاء فيه الحب موجة عالية لسايح غشيم ، فغمرتة الموجة وصار يشهق فى جوفها ويخبط بيديه لا يدرى إلى أين ؟ .. ولكن لم الكذب ؟ ... كنت يومها أطفو فوق تلك الموجة ، سعيدا ومغرورا ، أنى أنا - هذا العجوز - ، قد أحبته هى ، تلك الصغيرة الجميلة ، وأنها من أجلى تدمع عينها وترتعش يدها حين ألمسها وهى تقول فى همس لا يبين : ما الذى يحدث لى ؟ .. ومن أنا لأستحق كل هذا الفرح ؟ ...

وكنت أسأل نفسى : ومن أنا لأستحق كل هذا الحب ؟ ... أليس عارا أن أفرح كل هذا الفرح ، فى هذا العمر ، وفى تلك الأيام ، ووسط تلك الحرب ؟ .. ولكن ذلك فيما بعد ، فيما بعد - وقتها حين تركتني أمام باب ذلك المقهى ، مقهانا ، وقالت إنها ستتركنى .. إنها تخشى أن تكون قد أحببتنى .. وقتها وقفت فى الطريق مزروعا كواحدة من تلك الأشجار ، لا أسمع شيئا ، ولا أبصر شيئا غير تلك الكلمات : أخشى أن أكون قد أحببتك ! ... لا أفكر حتى فى معناها ، اتركها تتخللنى كيما تتشرب روحى الجافة المتشقة ذلك الندى الذى أبطأ عنها طويلا ..

أخشى أن أكون قد أحببتك ! ...

شراع أبيض يمرق بسرعة فوق موج أزرق ..

★ ★ ★

وفى المساء نفسه تتكلمين ، يأتى صوتك فى التليفون صغيرا ومذنبا : هل يمكن أن أراك ؟ .. وملتقى فتسقط كل حساباتى . تضع كل الكلمات التى أعددتها لكى أردك وأرد نفسى إلى العقل . أخذك فى زراعى بمجرد أن أراك . أقبلك فى فمك . أمسك ذراعك . أضمك . أبعدك عنى قليلا كيما أرى وجهك ، لكى أثق أن هذه أنت وأنتى أنا ثم أضمك من جديد ..

نمشى فى الشوارع الخافتة الضوء . أضم يدك وتضمين يدي . تقولين كأنك تكلمين غيرى . لم يكن هذا عدلا . لم يكن عدلا أن ألقاك وأن أحبك .. ولا أفهم ما تقصدين بالضبط ولكنى أكمل لم يكن هذا عدلا أن ألقاك فى هذا العمر وأن يأتينى كل هذا الحب . لكننا مع ذلك كنا نضحك . كنا مدهوشين وكنا سعيدين . وكنت تمشين بسرعة ، كأنك تجذبينى من يدي ، تطنئين الأرض بخفة كعادتك ، كأنما تلمسينها بأصابع قدميك وحدها ، وكنا قد دخلنا نون أن ندرى تلك الحديقة وأخذنا نمشى فى ممراتها التى ينيرها القمر وحده وأنا أحبك والليل الجميل غلالة تضمنا وأنا حوأك وأنت حولى ورأسك على صدرى وتتحسسين يدي وتساألين هل تشعر بالبرد فأقول لا وترفعين رأسك قليلا وتغمغمين بشئ من الحيرة هل كل هذا صحيح ؟ ألا نحلّم ؟ .. وأقول وحتى لو كان حلما فما أجمله . ويصحو فى الليل طائر يرفرف بجناحيه على شجرة وتسقط من الشجرة ورقة فوق رأسى فتفرحين بها وتضعينها على شفتيك وتستديرين نحوى وأرى فى ضوء القمر وجهك المستدير وسط هالة شعرك الذهبى وتبتسمين فتظهر تلك الخطوط التى أعشقتها فى ذنك وحول عينيك وتساألينى لم تحب أن تقبلنى فى النور ؟! فأقول لأنى أحب أن أرى وجهك ، فتردين ولكنى أراك وأنا مغمضة العينين .. من شهور طويلة أراك وأنا مغمضة العينين وتسبلين جفنيك فأقبل هاتين العينين وتضعين أصابعك الطويلة الناعمة حول رأسى فأقبلك مرة أخرى ، ولكنى أسمعك وكأنك تعتذرين أنت تؤلنى

فأتراجع وأعتذر أنا ، وتسندين رأسك على كتفى وأنت تقولين ولكنى أريد هذا الألم ثم تقبلينى قبلات سريعة فى وجهى كله وفى جبهتى وتقولين بانفاس متقطعة ما الذى يحدث لنا ؟ .. فاقول لك ها أنا أحبك مثل صبي صغير . انتهى عمري ولكنى أحبك وكأنى أبدأ هذا العمر .. فتقولين بضحكة صافية وأنت تضعين رأسك فى صدرى ولكن ألا تعرف أن كل المحبين صغار لا عمر لهم وأن الحب طفل ؟ .. وكنت أعرف أيضا أنها كذبة ولكن ما أجمل هذا الكذب ! .. ما أجمل هذا الوهم ! .. وأنا أحبك ، وأنت معى ، فى الليل الحنون ، فى الحديقة الحانية ، ولا تعودين صغيرة ولا أعود كهلا ولكننا مجلوان معا فى ذلك القمر الفضى ، فى عمر واحد ، دون عمر ، فى قلب الحب الطفل ، فى الزمن الوحيد الأبدى ، وأنا أحبك ، وأنت معى ..

وكان هذا فى البدء ، ليلة أصبحنا واحدا .

وإذ أرجع من عندك فى ليلة الحب تلك وقد اكتملنا واجداً ، أسير وسط كتل البيوت الحجرية المظلمة التى تتقبها كوى النور القليلة السهرانة ، أسير وأنا أشعر بالبرد فأضع يدي فى جيبي معطفى وأحث الخطى ، ولا أريد مع ذلك أن أرجع إلى البيت ، لا أريد أن يقيدنى مكان ، أتمنى لو أحلق فوق هذا العالم الجدارى الأصم الكثيف وأنت معى إلى دنيا أخرى ناعمة وشفافة لا يحدها الطوب ولا المواعيد ولا الصحف والحروب ولا الجوع ولا الموت ولا هموم الأمس ولا مفاجآت الغد - دنيا نصنعها معا ، لا عمر لها حتى ولو كانت قصيرة العمر ، هنا والآن ، دنيا تصحح كل الماضى وتمحوه ، دنيا تصلح كل الحاضر ولا تبقى شيئا غير الفرح ...

لا شئ غير الفرح !

وكانما كانت تلك الرغبة عدوى أصابتنا معا !

أذهلتنى ليلتها وفى الليالى الأخرى قدرتك على الحب : رغبتك فى أن نقضى الليل كله ساهرين وفى أن نفعل كل شئ بعمق وكأنه لن يأتى أبدا أى غد . كأن علينا أن نقتنص الفرحة لأننا لو لم نفعل الآن فستضيع إلى الأبد : كنا نتحاب

وتصيرين على أن أقرأ لك شعرا وتقرئين أنت لى ونخرج فى عمق الليل لنتمشى فى الشوارع الخالية الباردة متعانقين ثم نرجع لنستأنف كل شئ من جديد . ولم أكن أصدق أنني معك ، يمكن أن أكون فعلا نون عمر ولكنى كنت أكثر حرصا منك على ألا تضيق لحظة واحدة من عرسنا الليلي المستمر .

وكانت لك طقوسك . تحبين أن ترقدى متكورة على جنبك وركبتاك عند صدرك وأنت مغمضة العينين . إبهامك فى فمك تمتصينه بصوت خافت ورتيب ، وأميل عليك فتتظاهرين أنك أجفلت من نومك وتصدرين غمغمات وكلمات ناقصة لا معنى لها كمناعة طفل رضيع وأنت تمددين ذراعك لمعانقتى . وتقولين بصوت صغير قبلنى .. قبلنى كثيرا .. قبلنى فى كل مكان ، ولم أكن بحاجة إلى مجهود كبير لكى أفهم أنك تحبين كل ما يردك للطفولة . قبل أن تستيقظ فيك الأنثى كاملة وناضجة . أفهم .. ولكن كيف أفهم ما حدث لى أنا ؟ .. كيف استطعت فى ذلك الخريف المتأخر من العمر أن أكون ندا لفتوتك العارمة ؟ .. أن أغوص معك فى تلك الدوامات الليلية فلا أغرق فيها ولا أنتهى ؟ .. وأين ذهب الضغط والصداع خلف الرأس وتلك الزغلة التى لا تنتهى فى العين ؟

أوشكت أن أضحك حين قال لى الطبيب فى يوم الكشف النورى : هل رأيت ؟ .. ها أنت الآن توشك أن تكون عاديا تماما . أرى أنك تتبع النصيحة . لا انفعالات ولا مبالغة فى أى شئ : أليس كذلك ؟

قلت نعم .

فقال - والصحافة . هل غيرت مهنتك ؟

- امتنعت عن الصحافة .

- هذا أفضل بكثير . فى مثل حالتك يحسن أن تتجنب كل ما يرفع الضغط . ولم أكن أكذب على الطبيب . كنت قد توقفت منذ مدة طويلة عن كتابة الرسائل إلى الصحيفة وعن مجرد الاتصال بها . كانوا سعداء بذلك وكنت أنا سعيدا . لكم كنت سعيدا ! .. فجأة فى تلك الأيام أشرق فى ذهنى أنى حاولت كل شئ أن أكون ابنا طيبا وزوجا جيدا وأبا بارا وإنسانا له مبادئ وصحفيا له ضمير

وعجوزا وقورا يدبر لمستقبل أبنائه بعد أن يموت .. أشرق في ذهني أنني حاولت كل شيء غير الفرح .. غير أن أكون سعيدا داخل جلدى .. فاية نعمة أن أعرف في حياتي ، ولو تكن هي مرة قبل النهاية ذلك الفرح المقدس الذي لا يبغى غير ذاته .. أشرق في ذهني أنني كنت عبر تلك الشهور مع بريجيت أتلمس الطريق إلى حقيقة كانت هناك طوال الوقت ، ولكنى كنت أعمى عنها : أنني ظللت باستمرار أمثل أدوارا حتى غاب عنى أنا نفسى ، وسط كل تلك الأفتنة ، وجهى الحقيقى .. أنني حتى لم أخلق في التمثيل عاليا .. كان جناحائى أنا أيضا من شمع ذابا في شمس الحقيقة .. ذابا في بلاء معذب أوشك أن يقتلنى ... فما أسعدنى لأنى أخيرا سقطت على الأرض ! ..

من أكون ؟ .. ها أنذا أعرف أخيرا من أكون .. لست مهما على الإطلاق ! لم .. أكن مهما في أى وقت ! .. ابن الفراش .. نائب رئيس التحرير .. دخلت بورسعيد .. سعدت جبال اليمن .. طظ .. طظ .. طظ .. ماذا فعلت في حياتك بعدها ؟ ... عشت تتلذذ بتعذيب نفسك كما قال إبراهيم .. لم تفعل حتى مثل ماريان ولا مثل إبراهيم ولا حتى مثل مولر .. واجهت الحرب الحقيقية فأسرعت تعقد صلحك المنفرد ثم رحمت تعتبر نفسك ضحية وشهيدا .. شهيدا لأى شيء .. ضحية لمن غير غرورك وضعفك وطمعك بأن ترد للدنيا صفة لن تردها أبدا إلا بأن تسرق منها السعادة ؟ .. أية فرحة إذن لأنى أخيرا قد سقطت ! .. أية فرحة أن أفقد الآن كل ذلك الماضى لكى أجدك يا بريجيت ! .. وما بقى الآن فهو السعادة ! .. لاشئ غير السعادة ..

معذرة أيها الأمير هاملت ! أترك لك أنت ألا يبقى سوى الصمت . أنت يليق بك الصمت الجليل وأنا ما كتب لى أن أكون أنت . إن أنا إلا عجوز مخوع شقشقى لحظة بالكلمات فلم تنو الكلمات إلا فى أذنيه .

معذرة أيها الأمير ، لأن ما بقى لى هو السعادة ! .
وسامحنى يا إبراهيم ، لأنها لا ترجع لى فى آخر العمر كعقاب ، بل ترجع

الفصل الثامن

دع هذا اليوم ييطء

نسيت أشياء كثيرة فى تلك الايام من بينها حكاية الامير حامد . بعثت له مع ذلك رسالة شكر مع يوسف بعد أن خرجت من المستشفى ثم غاب عن ذهنى تماما هو ومشروعه الصحفى . لكن يوسف اتصل بى بعد فترة ليقول إن الأمير «يسعده» أن يرانى ، شعرت فى لهجة يوسف بنوع من الإلحاح فحددنا موعدا .

اصطحبنى يوسف إلى الجناح الذى يشغله الأمير فى فندق يطل على النهر ويرجع طرازه إلى قرن مضى ، تميزه نوافذ عريضة عالية، تحيط بها فى الصيف زهور منسقة خلف أسيجة من الحديد المشغول على شكل قلوب صغيرة متجاورة .

وقلت ليوسف ونحن فى المصعد الخشبى العتيق الذى كان ينز ببطء فى طريقه إلى الطابق الثالث : هذا أمير من نوع خاص جدا . لماذا لم ينزل فى واحد من الفنادق الحديثة التى يفضلها الأثرياء العرب هنا ؟

فرد بلهجة ملغزة . ستراه الآن بنفسك وتعرف كيف هو .

فتح لنا الباب شخص أسمر ضخم . هندی الملامح، قادنا بوقار عبر ممر يجتاز غرفا مغلقة إلى صالون واسع تكشف نافذته النهر . وانتظرنا هناك لحظة قدم لنا أثناءها تابع آخر أسمر يرتدى سترة بيضاء وقفازاً أبيض مشروبات مثجة .

نظرت إلى ساعتى ، وكانت هى السادسة بالضبط حين فتح الحارس الآسيوى الذى استقبلنا الباب على آخره، وظل يمسك به بينما دلف من الباب شخص وراءه فتاة شقراء تمسك مفكرة وقلمها . فهمت أنه هو الأمير حيث هب يوسف واقفا وقال له الآخر بطريقة عابرة .

- أهلا يا يوسف .

وقفت أنا أيضا وهو يتقدم منى بيد ممدودة على آخرها ويقول بلهجة وبدودة:
- أهلا بالأستاذ ..

ضغط على يدى وهو يقول : حمدا لله على السلامة . كنت مشغولا عليك ..
وغمغمت بعبارات الشكر والأمير يجلس قبالتنا على أريكة وهو يبسط يده
نحونا قائلا تفضلوا .. تفضلوا ..

وبمجرد أن جلسنا سألتنا الفتاة الشقراء باللغة الانجليزية عمَ نشرب وهي
ترفع المفكرة التي تحملها ، فقال لها الأمير بانجليزية لا شائبة فيها وهو ينظر نحو
يوسف :

- صديقنا يفضل نبيذك المعتقد على ما أظن ..

أوماً يوسف برأسه موافقا والتفت الأمير نحوى بنظرة مستهمة فقلت القهوة
نون كافيين .

قالت الفتاة الشقراء: وسموك ؟

رفع يده نون أن ينظر نحوها فأدركت أنه لا يريد شيئا وانسحبت على الفور
ومن ورائها الحارس الذى أغلق باب الصالون .

كان الأمير حامد فى حوالى الخامسة والثلاثين ، مدور الوجه، حليق الذقن ،
تميل بشرته الى البياض ولكن بلامح شرقية واضحة ، يؤكد لها شعره الفاحم
السواد وعيناه العسليتان اللامعتان ، وكان يلبس بذلة كحلية وربطة عنق تتداخل
فيها زخرفة منمنمة من ألوان سماوية وصفراء هادئة. وبدا أميل الى القصر لكنى
شعرت على الفور بحضوره القوى .

كرر الأمير وهو ينظر نحوى : حمدا لله على السلامة . كنت قلقا عليك بالفعل
لولا أن يوسف كان يطمئننى باستمرار ..

نطق يوسف لأول مرة قائلا بحماس : كنت انقل له تحيات سموك دائما .

وقلت أنا : شكرا يا سمو الأمير . غمرتني بفضلك أثناء المرض بتلك الزهور .
كانت تحمل لى كل يوم رسالة من الأمل .

فقال وهو يستند بظهره الى الأريكة المذهبة المساند ويخرج من جيبه الداخلى مسبحة كهرمانية :

- هذا أقل ما يجب ، لا أدري إن كان يوسف قد قال لك أم لا ، ولكنى كنت من قرائك فى فترة دراستى فى مصر فى كلية فيكتوريا . لم أنقطع بعد ذلك عن متابعتك عندما كنت أدرس فى إنجلترا ، ولكن ..
أكملت : ولكن لم يكن هناك الكثير لتتابعه !

فقال وهو يحرك حبات مسبحته : يؤسفنى ألا يأخذ قلمك الآن المكان الذى يستحقه ولكن كلنا نعرف الظروف .

ثم أضاف باستهانة وكأنه تذكر شيئاً : أعرف جيداً رئيس التحرير عندما أعرفه منذ كان مراسلاً لصحيفتكم فى بلدنا ، هو يعنى صحفى وإنسان .. ربنا يسهل له كما تقولون فى مصر !

قلت بهدوء : هو زميل قديم . ربما اختلف معه فى الرأى .. ولكنه انسان طيب بالفعل . كان موقفه كريماً معى أثناء مرضى وبعده .

وفى تلك اللحظة فتح الحارس الباب ودخل الخادم بالقفازات البيضاء ، وبعد أن وضع المشروبات أمامنا انصرف وهو يتحرك نحوالباب بظهره وقال الأميرحامد:

- فى الواقع ان فكرتى كما شرحتها ليوسف هى أن تصدر صحيفة صغيرة ولكنها تضم صفوة الأقلام العربية . أقصد الأقلام القومية والتقدمية . أنا أعرف اتجاهك الناصرى بالطبع ، ويخطئ من يحسب أننا كنا ضد المرحوم ناصر . بالعكس نحن ، أو على الأقل أنا ، أعرف أنه الوحيد الذى حاول أن يصنع شيئاً لهذه المنطقة . لم يكن أحد يسمع بنا قبله ولكنه أعطى لبلادنا قيمة فى العالم . وكان يتعلم من أخطائه ، عرف تماماً قبل أن يموت أن السوفييت كانوا يخدعونه وأنه لا مصلحة لنا فى أن نناطح أمريكا . وكان على وشك أن يتغير وأن يغير ولكن ..

وتذكر شيئاً فضحك ضحكة صغيرة وهو يقول : فهم رحمه الله أخيراً روح

الشعب . أنت تعرف رأينا فى مسألة زيارة الأضرحة . ولكنى تفاعلت مع ذلك عندما زار ضريح السيدة زينب بعد النكسة . وإن كان الوقت لم يمهل . ثم تنهد الأمير وهو يتأمل مسبحته كأنه يخاطبها : انظر الى ما وصلنا إليه . انظر الى حالتنا الآن فى لبنان .

قلت بالرغم منى : فى الواقع إننى لا أرى الآن ما يحدث فى لبنان ولا فى غيره . الطبيب ..

قاطعتنى الأمير : أعرف .. أعرف . الطبيب منعك من أى انفعال . وأنا بالطبع أكثر منه حرصا . لا أريدك أن تعرض نفسك لشيء يمكن لا قدر الله أن يحدث انتكاسة . بالعكس . أعتقد أنك فى حاجة الى فترة من النقاهة . ما أفكر فيه الآن وما طلبت من يوسف أن يحدثك عنه هو أن تشارك معنا بالتفكير النظرى فى هذه المرحلة . أريد أن تفكر . بهدوء كامل بالطبع وبراحتك تماما فى تصورك الخاص لصحيفة قومية فى هذه المرحلة . كيف تكون هذه الصحيفة شيئا لا يكرر الصحف الأخرى التى تصدر هنا فى أوروبا . ما هى الأبواب التى تتصور أن تتضمنها ؟ .. ومن هى الأقلام التى يمكن أن تساعد فيها للخروج بتصوير جديد للفكر القومى ؟ وما هو الشكل الذى يجب أن تأخذه .. وهل تكون اسبوعية أو نصف شهرية أو حتى يومية إلى آخر هذه الأشياء ..

قلت فى حذر : ولكن سموك تعرف أولا وقبل كل شئ أن الصحيفة مشروع يستهلك اموالا طائلة ومستمرة فى كل عدد . قبل التفكير فى هذه الأشياء يجب أن نفكر فى حجم الجمهور الذى سيقراً هذه الصحيفة ، وأهم من ذلك فى الإعلانات لأنها مصدر التمويل الأول ..

قال الأمير بلهجة باترة : لا تحمل هما من هذه الناحية . أنا كلفت من يدرس الناحية المالية للموضوع وأعرف بالضبط تكاليف الطباعة والتوزيع سواء كانت الصحيفة أسبوعية كما أميل أنا الآن . أو حتى لو أصدرناها يوميا . يمكن أن أتحمل ذلك لأنى لا أفكر فى الربح ، بل أتوقع الخسارة . ألم تقل له ذلك يا

يوسف؟

كان يوسف يجلس في مقعده منحنيا ويتابع حديثنا بانتباه دون أن ينبس بل
دون أن يلمس حتى كأس النبيذ الموضوعه أمامه ، وحين سأله الأمير قال :
- فى الحقيقة أنى فضلت أن تعرض سموك عليه المشروع بنفسك لأنك أدرى
بأبعاده .

قال الأمير حامد مستنكرا : تعنى أنك لم تعرض عليه أهم شئ وهو أن يسافر
فترة للنقاها لكى يفكر بعدها فى كل هذا ؟ .. ألم أكفك بذلك ؟

غمغمت بالشكر ولكن الأمير قال :

- أنا لا أجاملك يا أستاذ . إيمانى أن الكتاب ، أقصد الكتاب الحقيقيين ، هم
أثمن ما نملكه ، لأنهم هم الذين يشكلون العقل والضمير . هل تظن أننا كنا
سنصل إلى هذه الحالة لو لم تكن الأمة معتلة الضمير ؟ .. لهذا أعتقد أن
المحافظة على كتابنا من أوجب الواجبات ، ولهذا سمحت لنفسى أن ألح على
يوسف منذ خروجك من المستشفى أن تذهب لتريح نفسك تماما فى أى مكان
تحبه، وسمحت لنفسى أن أرسل معه مساهمة متواضعة لهذا الغرض ، أعتبرها
فى الحقيقة واجبا لا أكثر .

ثم التفت إلى يوسف بنظرة تأنيب قائلا : ما معنى هذا؟ .. أنا فى الواقع فى
دهشة لأن الأستاذ ما زال هنا حتى الآن ولهذا طلبت أن أراكما . ماذا فعلت يا
يوسف فى التكليف الذى طلبته منك ؟

صعد الدم إلى رأسى ونظرت الى يوسف الذى وضع يده فى جيب سترته
الداخلى وأخرج ظرفا طويلا وضعه على المنضدة التى تفصل بيننا وبين الأمير
وهو يقول : ها هو الشيك الذى أرسلته سموك لم أعطه للاستاذ ولم أصرفه ..
ولكنى قاطعته قائلا بشئ من الحدة: أنا شاكر جدا ولكنى لا أقبل .. أقصد
أنى لا أحتاج الآن إلى أى سفر أو نقاهة ..

وقال يوسف وهو يشير نحوى :لهذا السبب لم انفذ طلب سموك . لم أعتقد أن
الاستاذ سيقبل هذا منى أنا، قلت أيضا إن الأفضل أن تعرض سموك عليه ذلك .

كان الأمير يحدجنى بنظرة فاحصة يكاد يكون فيها نوع من البرود وقد كود
سبحته فى يده ثم التفت يخاطب يوسف وهو يشير الى الظرف الأبيض بأصبعه:
- ضع هذا الشئ فى جيبيك أولا ..

واسترد الأمير حامد بسرعة تعبير وجهه السمع والتفت يخاطب يوسف بلهجة
ودية : ولكن كيف إذن تريد أن تصبح صحفيا ؟ .. الصحفى يا سيد يوسف يترجم
أفكار الناس على حقيقتها، كان يجب أن تقول للأستاذ إن هذه ليست حتى هدية
ولكنها مقابل بسيط لتعبه بالاشتراك معنا فى التخطيط للصحيفة . حين تسمع
حالته الصحية بذلك بالطبع .

قال يوسف بابتسامة صغيرة : أنا ما زلت مشروع صحفى يا سمو الأمير :

أردت أن أغير الموضوع فقلت : ولكن هناك فكرة واتنتى اثناء الحديث ..
فهمت أن المطلوب صحيفة متميزة عما يصدر هنا فى أوروبا ، أليس كذلك ؟

قال الأمير حامد : بالضبط . لا نريد أن نكرر تجارب صحف لندن وباريس ..

- ولكن يوجد الآن بالفعل حشد من الصحف التى تخاطب العرب فى أوروبا .
فما رأى سموك فى صحيفة عربية مطبوعة بالانجليزية أو الفرنسية تنقل وجهة
نظرنا هنا ؟ .. ذلك هو ما نحتاج إليه بالفعل . كان هنا منذ وقت قريب زميل قادم
من لبنان وجد صعوبة فى أن ينشر مجرد خبر أو بيان ..

قال الأمير : فكرة جيدة جدا ..

ولكن الفتور فى صوته أوحى بأنه يعنى العكس تماما . سكت لحظة قبل أن
يحنى رأسه مخاطبا حبات مسبحته من جديد : بالطبع هناك صعوبات .. أولا من
أين نأتى بالصحفيين العرب الذين يتقنون الكتابة بلغات أجنبية ؟ .. يمكن بالطبع
ن نلجأ إلى الترجمة ولكن فى هذه الحالة هل ستخرج المقالات بقوتها الأصلية ؟
. ومن سيكون جمهور هذه الصحيفة ؟ .. ستهم قليلا جدا من العرب هنا وإن تهم
حدا تقريبا من الأوروبيين .. ثم معنى ذلك أنه سيكون لدينا طاقمان من المحررين:
عرب وأجانب ، وهذا كثير إلى حد ما .. أقصد من الناحية الاقتصادية ..

قلت صادقا : سموك تلخص الأمور بمنتهى الدقة وتضع يدك على أهم

المشاكل..

لم يبد عليه أى رد فعل ولكنه قال وكأنه مستغرق فى التفكير : ومع ذلك فهى فكرة جيدة جدا كما قلت . سنحتاج فى وقت من الأوقات إلى مخاطبة الجمهور الغربى ، ولكن فلنبدأ أولا بالصحيفة العربية . وعندما تنجح يمكن أن نصدر ملحقا شهريا أو نصف شهري باللغة الأجنبية .

قال ذلك وهو ينظر فى ساعته فقام يوسف وتبعته ونهض الأمير وهو يقول : سأنتظر منك أن تفكر فى الموضوع ، ولكن ليس على حساب صحتك كما اتفقنا . بعد أن ترتاح تماما ..

- أعدك بذلك ..

فقال وهو يشد على يدى بقوة : أعرف أنك تحترم وعدك . وفى المرة المقبلة سيكون اللقاء فى بيتى هنا ، فأنا لا أرتاح كثيرا فى الفنادق وسيكون بيتى هو بيتك بالطبع .

ثم التفت الى يوسف وقال : وأنت مهمتك أن تتابع الاطمئنان على الاستاذ . سنتصل بك ليندا إن احتجت منك إلى شئ فى الأيام المقبلة . مع السلامة .

وبينما كنا ننزل من عند الأمير حامد كانت السعادة تطفر من وجه يوسف ، ولم يملك نفسه فقال ونحن فى المصعد : أنت أعطيتة درسا يا استاذ .. - ماذا تقصد؟

ولكنه بدلا من أن يرد قال وتعبير الرضا عن النفس يغمر وجهه : تعرف ؟ .. لو لم أخرج الظرف عندما سألتنى عن النقود ، ولو لم يكن متأكدا أن الشيك فى داخله ! .. ولكنى عملت حسابى ! .. ألم أفهمه بعد كل هذا العمر ؟

- أنا شخصيا بكل صراحة لا أفهمه ولا أفهمك!

رحنا نتمشى على شاطئ النهر مقابل الفندق ، وكانت الأشجار المصفوفة هناك تنفض أوراقها بسرعة أكثر من الأشجار فى المدينة فكنا نخطو فوق ذلك

المهاد من الأوراق الصفراء التي تصدر خشخشة خافتة مع وقع أقدامنا وكنت لسبب لا أدريه أرتاح لهذا الصوت كما لو كان يحمل رسالة مبهجة خفية . لماذا ؟ .. لا أدري ! ولكن كل الأشياء في تلك الأيام كانت تحمل رسالة وكانت تحمل بهجة.

قلت ليوسف : كنت أخشى أن تضايقني هذه المقابلة لأنى لا أحب هذه المجاملات الرسمية، ولكن هذا الأمير شخص مختلف . يدعو إلى التفكير .

قاطعنى يوسف بحماس .. ألم أقل لك ؟ .. هو غير الآخرين . صاحٍ ويفهمها وهى طائفة ! .. ولكن مشكلته أنه يعتقد أنه يمكن أن يشتري جميع الناس . يقول إن لكل انسان سعرا . هل تعرف قيمة الشيك الذى تركه لأعطيه لك ؟
- لا أريد أن أعرف .

- مع ذلك فهو عشرون ألف دولار .

أطلقت صغيرا خافتا وقلت : هذا للنقاهة فقط ؟ .. اذن كم اساوى فعلا عند الأمير ؟ .. ولماذا ؟ .. ما أهميتى بالنسبة له ؟ ..

قال يوسف متحيرا وكأنه قد فكر أيضا فى المسألة من قبل : بصراحة لا أعرف . بالطبع هذا المبلغ بالنسبة له مثل قرش تعريفه بالنسبة لى . هو يصرف مثله كل يوم وربما أكثر . هل تصدق أن جناح الفندق محجوز له على مدار السنة حتى اثناء سفره ؟ بالاضافة إلى غرف الحراس والموظفين والسكرتيرين والخدم ..
- ولكن ماذا يفعل هنا بالضبط ؟

- عنده كثير من الشركات ، وهو يتاجر فى الخيول العربية وفى البورصة وفى كل شئ . وعنده أيضا شركات فى امريكا وفى بلده وفى كل مكان فى الدنيا ..

- ولكن شخصا مثل هذا يا يوسف ما حاجته إليك أو إلى ؟ يستطيع أن يشير باصبعه فيجد بدل الصحفى مائة ، فلماذا نحن ؟ ..
- سأقول لك ..

ولكنه تراجع وقال بلهجة ضارعة تقريبا : ومع ذلك فأنا أرجوك أن تفكر فى

المسألة !.. أقصد أنت يمكن بالفعل أن تقدم له هذا المشروع ، أليس كذلك ؟
- لا توجد مشكلة في هذا . عملت طول عمري بالصحافة ويمكن أن أقدم له
هذه المشروع في خلال أيام ، ولكن لماذا ؟ .. هل هو بالفعل حريص على العروبة
والقومية كما يقول ؟
أطلق ضحكة منقطعة ساخرة: ها .. ها .. ها .. مؤكدا أنك لم تبلع هذا الطعم يا
استاذ ؟

قاطعته بشئ من نفاذ الصبر :

- إن كنت تعرف شيئا يا يوسف فلماذا لا تقوله فوراً ؟

بدأ كلامه بشئ من التردد : صدقني أن ما أعرفه قليل . أعرف لماذا يريدني
أن أعمل معه ، أو أظن أنني أعرف . السبب أن عندي إقامة شرعية في البلد وربما
احصل على الجنسية قريباً واستطيع أن استخرج تصريحاً للصحيفة باسمي .
وثانياً فهو يثق بي لأنى عملت عنده سائناً لفترة وهو يعرفني تماماً . وأعرف أيضاً
بالتقريب لماذا يريد أن يصدر الصحيفة ..

- هذا هو المهم . لماذا ؟ أدخل في الموضوع مباشرة يا يوسف .

- الأمير حامد يا سيدي شقيق أصغر لحاكم البلد ، ولكنه يعتقد أنه أحق بأن
يكون ولي العهد بدل الشقيق الأكبر ، لأن ولي العهد غير متعلم ويقول البعض إنه
هنا أبيض ..

قال يوسف العبارة الأخيرة وهو يمسح جبهته بيده ، لم أكن سمعت هذا
التعبير من قبل ولكني فهمت معناه وواصل يوسف كلامه : ومع ذلك فالحاكم
يخاف من ولي العهد لأن له انصاراً . ويخاف أيضاً إن عين الأمير حامد بدله ..
فقاطعته ضاحكاً ..

- أن يأخذ الأمير حامد مكان الحاكم نفسه !

- عليك نور يا استاذ . والصحيفة على ما اتصور ستكون سلاحاً يحارب به
ولي العهد ويضغط به على الحاكم . لهذا اوشكت أن اضحك عندما تكلمت

حضرتك عن الصحيفة الافرنجية وعن نشر مشاكلنا فى أوروبا وهذا الكلام .
اعتقد يا سيدى أنه يريد صحيفة قوية بالفعل يتكلم عنها الناس وتكتب فيها أقلام
كبيرة ، ولكن ما يهمه من كل هذا هو بلده فى الخليج . عشرة أعداد منها تدخل
إلى هناك ولو بالتهريب ، وينتهى الغرض من الصحيفة .

سبقت يوسف خطوة وجلست على أحد المقاعد الخشبية التي تواجه النهر فجاء
وجلس الى جوارى وقال لى قلنا حين لاحظ صمتى :

- هل أتعبك المشى ؟

- بالعكس . المشى مفيد فى حالتى كما قال الطبيب . ولكنى افكر فيما قلت ،
أنت ذكى يا يوسف وتعرف بكل شئ فما سبب اهتمامك بالموضوع ؟ .. هل هى
مسألة عمل وكسب لا غير ؟

اندفع يقول بشئ من الحرارة : بالطبع أنت تقول لنفسك سائق ومتشرد وطباخ
ما علاقته بالصحافة؟ .. أنا ..

قاطعته : أنا لم أقل ذلك أبداً . كل هذه التجارب ستفيدك حين تكتب، ثم إنك
شرحت لى أنك درست الصحافة فى الجامعة.

قال والحزن يغمر صوته : أشكرك لأنك تجاملنى بولكنى فى الواقع لم أكن
اتصور أن اقترب من سن الثلاثين وأنا فى هذه الحال . كنت منذ الصغرمتموقا
فى الدراسة وكان أبى فخورا بى وتوقع لى مستقبلا كبيرا . من صغرى عشقت
الصحافة . فى المدرسة الثانوية كنت مذيع الاذاعة المدرسية . وكنت ارسل مقالات
لكل الصحف والمجلات يظهر بعضها فى بريد القراء . وفى الجامعةكنت طالب
امتياز فى السنة الأولى وفى السنة الثانية . كانت مجلة الحائط التى أكتبها من
الألف إلى الياء تجتذب الطلبة عندما اعلقها يوم السبت كل اسبوع . حتى طلبة
الكليات الأخرى كانوا يأتون لقراءتها ، أسميتها «النديم» وحاولت أن استفيد فيها
من اسلوب التنكيك والتبكيك فشعر الطلبة أنها تختلف عن الصحف الأخرى التى
كانت تملأ الجامعة أيامها فى سنة ٧٥ و٧٦ . وكان أبى يكتب لى عناوين
الموضوعات بالخط الثلث بقلم أحمر ويشاركنى برأيه فى تحرير كل عدد ..

لزم الصمت فجأة وقد شرد بفكره بعيدا وقال بعد فترة وكأنه لا يكلمنى
أوحشنى أبى ..

أردت أن أخرجها من الاكتئاب الذى حل به فسأته : وعن أى شئ كنت تكتب
فى صحيفتك أيامها ؟

قال والحياة تعود إلى صوته بالتدرج : عن كل شئ يحدث فى البلد : ورثت
عن أبى حب عبد الناصر . كان مديرا فى شركة من شركات القطاع العام ولكنه
لم يعد يده يوما الى الحرام . وعشنا مستورين حتى بعد خروجه إلى المعاش . كان
المعاش يكفيننا ويزيد ، اقصد فى البداية وازددت حبا لعبدالناصر وأنا أرى ما
حدث لنا بعد موته . أرى أبى العجوز يتعذب لكى يدبر أمورنا بمبلغ المعاش الذى
لم تعد له قيمة بينما اللصوص الجند يزدهرون فى كل مكان . وكنت اكتب عن ذلك
فى صحيفة الحائط كنت اقارن بين حال الانسان البسيط مثل أبى أيام عبد
الناصر وما اصبح عليه فى عهد الانفتاح ، رشحت نفسى أيضا لاتحاد الطلبة
وفزت ، وشاركت فى كل الاضرابات والاعتصامات التى حدثت أيامها .. ولكن
جاءت بعد ذلك جماعات اصحاب الجلابيب التى اطلقتها علينا الحكومة فكانوا
يمزقون صحفنا كلما علقناها ، وإن قاومنا كانوا يضربوننا بقبضات حديدية
يشبكونها فى اصابعهم امام أعين حرس الجامعة الذى كان يحرسهم وحدهم .

قلت متتهدا : اذن ما قاله ابراهيم المحلاوى صحيح .. أنت حالك من حالنا .

قال يوسف بنبرته الحزينة : لا . غير صحيح . نحن قرأنا لكم وتعلمنا منكم
ونحن صفار . ولكن لما وقعت الفأس فى الراس وبحثنا عنكم لم نجدكم .

أوجعتنى كلمته فقلت بلهجة الدفاع عن النفس : ماذا كنا نستطيع أن نفعل ؟
.. فى تلك الأيام بالذات التى تتكلم عنها كتبت أنا كتابا عن عبد الناصر ..

ثم وقفت وأنا اكمل : وعلى أى حال فأنا بدأت اشعر بالبرد . وثانيا فقد
عاهدت نفسى منذ فترة ألا ادخل فى أى مناقشات وبالذات فى السياسة .

هب يوسف ورائى قائلا : أنا أسف . لم يكن فى نيتى أبدا أن أضايك . كل
ما أردته هو أن أشرح لك لماذا يهمنى موضوع هذه الصحيفة التى يريد الأمير أن

يصدرها أنا لم اتعذب وأتغرب لكى انتهى طباخا ..
وكنا نرجع فى اتجاه الفندق حيث ركنت سيارتى عندما قال فجأة بصوت
خفيض :

- أريد يا أستاذ أن أخلص من هذه المرأة !

لم أعلق بشئى .. وتغيرت نبرة يوسف وكأنه يريد أن يصحح نفسه فقال :

- أرجوك أن تفهمنى ، أنا لست قليل الاصل، لست مثل الأجانب الذين
يتزوجون بنات البلد للحصول على الإقامة ثم يطلقونهن بعد ذلك .. إيلين بنت حلال
فعلا .. أقصد .. هل تفهمنى ؟ أريد ..

ولكنه انفجر مرة أخرى : اريد أن أخلص من هذه المرأة !

- سارى يا يوسف ما يمكن أن أفعله ..

غيرأنى لم أكن افكر وقتها فى حديثه عن ايلين . كانت وخزة لومه لى تجب كل
شئ آخر .

لم يكن عندى موعد مع بريجيت فى هذا المساء ، وقررت أن اكلمها لنتلقى .
ولكن عندما وضعت المفتاح فى باب الشقة سمعت صوت أم كلثوم يأتى من
المسجل فعرفت أنها جاءت من تلقاء نفسها وخفق قلبى بالفرح . كانت عندى
شرائط كثيرة للموسيقى العربية والموسيقى الكلاسيكية غير أنها من كل الشرائط
التي عندى لم تعشق سوى صوت الست .

و بمجرد أن دخلت اندفعت بريجيت نحوى فاحتضنتها بقوة . الأصح أنى
تشبثت بها وكأنى أريد أن أحتمى .

وشعرت هى بشئى غير عادى فتراجعت الى الخلف وراحت تتأملنى ثم قالت
بلهجة تهديد وهى تلوح باصبعها امام وجهى :

- حدث شئى هذا المساء . هل ارتكبت خيانة ؟ .. هل تستحق العقاب ؟ ..

كانت تلبس زى العمل، خلعت السترة وبقيت بالبلوزة الخفيفة البيضاء «والجولة» القصيرة، وقد حلت ضفيريها وتركتها تنسدل على كتفها اليمنى، ووقفت تواجهنى مبتسمة وهى تسدد إصبعها نحوى. فأمسكت يدها الممدودة وقبلت تلك اليد وأنا أقودها نحو الكنبة الصغيرة فى غرفة المعيشة. كان مزاجها رائقا هذه الليلة. وأدرت السبب حين رأيت زجاجة النبيذ المفتوحة على المائدة والكمية الناقصة منها.

وحكى لبريجيت ما حدث فى مقابلة الأمير فقالت متظاهرة بالأسف الشديد وهى تضربنى بقبضتها فى كتفى :

- ولماذا لم تأخذ هذه النقود أيها الساذج؟.. هؤلاء ناس يقذفون بالنقود من النافذة فعلا. لو كنت أقف أنا تحت النافذة وألقى شخص فوقى عشرين ألف دولار وقال خذها. هى لك. فهل تتوقع أن أقول لا؟ .. بالطبع سأخذها فوراً وأصحبك معى فى رحلة حول العالم ...

- مهما كان الثمن؟

ولكن الرجل لم يطلب ثمنا كما قلت. يريدك أن ترتاح. يحبك لأنك أنت. ولكن ليس كما أحبك أنا ..

ضغطت على يدها وأنا أقول : لو أصدق أن هذا صحيح!

سحبت يدها من يدي فى عنف وقالت فى غضب : ولماذا أكذب عليك يا صاحب السمو لو سمحت؟ .. سأعيد لك اليخت الذى أهديته لى فى الأسبوع الماضى .. ولكنها انزلقت فجأة من جانبي وركعت على ركبتها تحت الكنبة وهى تواجهنى

ووضعت يدها على صدرى وهى تقول : متى تنتهى من هذه الشكوك ومن هذه القصص؟ متى تصدق فعلا أنى أحبك لأنك أنت؟ .. سئمت القلوب الغبية والقلوب الجشعة والقلوب الأنانية . متى تصدق أنى قضيت عمرى أبحث عن هذا القلب؟..

✍ قالت ذلك ثم قبلتنى برفق فى صدرى فأنحنيت أرفعها نحوى وأنا أقول : ولكنك تعرفين أيضا أن هذا القلب كان فى طريقه إلى أن يموت قبل أن يلاقك .

✳ فهزت رأسها وقالت : لم أكن سأسامحك لو تركتنى! .. هل تصدقنى؟ .. أنا الآن أعرف على بريجيت الأولى . أكتشفها وكأنى ألتقى بصديق قديم .

ثم قامت فجأة وصدفت يديها وقالت : هيا، انتهينا الآن من هذه الحكاية . انتهينا منها إلى الأبد ، لن ترجع هذه الشكوك ولن يبقى غير أنت وأنا معا إلى الأبد . والآن فورا إلى الشعر مع صوت هذه السيدة الجميل..

وتوجهت بريجيت إلى رفوف الكتب الموضوعة فى الصالة وسحبت ديوان المتنبى الذى تميزه بغلافه السميك الأصفر وتعرف أنى أحب أن أقرأ فيه كثيرا - ثم فتحت الديوان وراحت تحرك رأسها بسرعة لليمين واليسار وهى تجيل عينيها فى الصفحة المفتوحة وتقول بالعربية كل الكلمات التى تعلمتها منى وكأنها تقرأ شعرا :

السلام عليكم.. إزيك.. فين نضارة.. إنك جميلة جدا.. الشاى.. أهلا.. أهلا..
ودفعت الديوان نحوى بعد أن انتهت وهى تقول : هيا .. إقرأ تلك القصيدة التى يوجد فيها البحر تحت شمس ساطعة .. التى تلمس فيها الأمواج الهادئة الشط وتنحسر برفق بينما تجلس النساء فوق الرمال يفرزن شبك الصيد، والأطفال يساعدون أمهاتهم ، وفوق الصخرة يقف صبى يضع يده فوق رأسه ويتأمل البحر الأزرق ، وحين يرى أول القوارب فى الأفق يصبح بأعلى صوته فتترك الأمهات الشباك والغزل .. ويجرين حتى تلمس أقدامهن الحافية الماء وتبتل ثيابهن وهن يلوحن ويتهللن، ويحيى الأطفال عيدا على الشاطىء .. هيا، تلك القصيدة التى قرأتها لى بالأمس .

ضحكت وأنا أقول لها: لا يوجد في هذه القصيدة شيء مما تقولين . لا يوجد فيها بحر على الإطلاق ولم يكتب هذا الشاعر شيئاً من البحر . لو عرفت معناها

...

لكنها تركت الكأس التي كانت تشرب منها على المنضدة ووضعت يديها فوق أذنيها وهي تقول : ها أنت قد أفسدت كل شيء! .. أبعدت عن سمعى صوت الأمواج .. ثم دفعت الديوان في يدي وهي تقول : هيا .. اقرأ .

فتحت الديوان كيفما اتفق وبدأت أقرأ من الصفحة التي صادفتني :

إلى كم ذا التخلف والتواني
وكم هذا التماذى فى التماذى
وشغل النفس عن طلب المعالى
ببيع الشعر فى سوق الكساد
وما ماضى الشباب بمسترد
ولا يوم يمر بمستعاد ...

أغلقت الديوان وأنا أقول :

- لا أشعر الليلة بالرغبة فى الشعر .

أنزلت يديها إلى جانبها فى يأس فسحبتهما وأجلستهما إلى جانبي . كانت أم كلثوم قد انتهت وقتها من ليالى القمر وساد الشقة صمت . وظلت بريجيت تميل برأسها على كتفى فترة ولكنها رفعت نحوى عينين زرقاوين قلقتين وقالت :

- صارحنى بالحقيقة . حدث الليلة شيء غير مقابلة الأمير . ما هو ..؟ لماذا لا

أشعر الآن أنك معى كما كنت بالأمس ؟

حكيت لها ما دار بينى وبين يوسف . قلت لها إننى تحدثت معه عن أحوال البلد وأنه قال إننى خذلتة . قال إنه حين بحث عنى لم يجدنى . ظلت بريجيت تتطلع نحوى لحظة دون فهم ثم قالت :

- ولكن ما أهمية ذلك .. ما أهمية أى شيء؟ .. ألم نتفق على ألا يهزمنا العالم

مرة أخرى؟ .. ألم نتفق حالا على ألا يكون فى الدنيا سوى أنت وأنا؟..

مدت يدها وهى تقول ذلك ثم رفعت ذراعى ووضعتهما حول كتفيها فمددت يدي الأخرى وضممتها إلى بقوة وأنا أقول لنفسى نعم، يجب ألا يكون سوى هى وأنا . يجب ألا تهزمننا الدنيا مرة أخرى وكانت هى تكمل بصوت خافت ووجهها فى صدرى : نعم، هكذا .. هذا يدفئنى .. هذا يحمينى . لم أعرف أبداً هذا السلام وهذه السكينة .. المسنى ، هل تشعر كيف تغيرت بريجيت؟.. هل تشعر بها الآن امرأة تولد من جديد فى سلام الحب؟..

وكنت تدفعين يدي فى صدرك، وتقولين بصوت خافت ، صوت طفولى ، ولكنه صوت متقطع مبهور الأنفاس - بريجيت ياسيدى .. لم تعرف أبداً مثل هذا السلام فى الحب .. فدعها ياسيدى تستمتع بهذا السلام .. دعها تستمتع به إلى الأبد .. وكننت أدور حول وجهك كله بشفتى ، أدور حول جسمك كله بشفتى ، ولم أقل لك إن هذا العجوز أيضا لم يولد فى الحب إلا معك .

وكانت تلك بالفعل ليلة سلام .

ولكنى عرفت الليالى الأخرى ..

فى أيامنا الأولى الدافئة المشمسة تعودت أن أعبر تلك الليالى ، أن أتجاوزها لأن ليالى حبنا الخالص كانت تغمرها بالنسيان وتمحوها .

غير أنى منذ البدء عرفت وجهك الآخر . حين تجلسين تحت الكنبه ، تضمين ركبتيك إلى صدرك بيديك وأنت تحدقين شاردة فى الفراغ، على وجهك ذلك القناع الذى تختفى وراءه بريجيت .. حين لا يجدى أى حديث إليك ولا أى توسل ولا أى اقتراب فى أن يردك إلى دنيانا .. حين تدفعيننى فى صدرى لكى أبعاد عنك ولكى أتركك لشأنك الذى لا أعرفه وأنت مقرفة هناك فى الأرض ، تشبثين بنفسك فى تشننج كأنك تريدان أن تدفعى جسمك كله داخل جلدك مرة أخرى ..

تعلمت بالفعل أن أتركك فى تلك الأوقات وأن أنتظر، تعلمت ألا أحاول أن أكلمك أو أملك ، إلى أن تعودى أنت نفسك بالتدريج، تتلاشى تلك النظرة الزجاجية فى

العينين وتسترد زرقة الحدقتين التماعها الأسر ، قبل أن تسأليني بلهجتك العادية،
فى نوع من الدهشة لم لا تأتى إلى هنا جانبى؟
وعرفت أيضا ليالى الجنون..

حين تقفز من الفراش فجأة عارية بعد أن تتمتى بعبارات بالألمانية وتقفى
فى صالة بيتك ، تنزعين من رفوف مكتبك ديوانا من الشعر الألمانى وتقلبين
صفحاته بسرعة بحثا عن تلك القصيدة التى استدعتك فى قلب الليل، وتبدئين
القراءة بصوت عال، يتدرج فى الارتفاع شيئا فشيئا، كما لو كنت فى صحراء
خالية ، فالاحقك واضعا يدي على فمك . وأنت تتلمصين وتلكزىنينى بكوعك لتخلصى
نفسك . وتزومين تريدين أن تكلمى ذلك الإنشاد المجنون ، لا يردك أن تسمعى
طرقات الجيران الساخطة على الجدران ، ولا تذكيرى لك بأنهم يمكن أن يستدعوا
الشرطة لهذا الضجيج فى الليل - تسبينى وتسبين الشرطة والجيران بصوت
مختنق ، ولا تهدئين إلا حين أعرض عليك أن نخرج ، وأن تنشدى هذا الشعر على
شاطئ النهر ، ترتدين وقتها ثيابك فى لهفة محمومة ، وتستعجلينى أن نخرج .
ولكن ما إن نخطو خارج البيت حتى تسألينى وأنت ترتجفين : ما السبب فى أنا
خرجنا فى هذا البرد؟

ولكنى تعلمت أن هذه اللحظات هى جزء منك، وتعلمت بعد قليل أن أحبها
لأنها، هى أيضا ، أنت .

★ ★ ★

على أنى لم أنس الأمير حامد فى تلك الأيام ..
وكنت أسأل نفسى فى دهشة هل مازلت بالفعل صحفيا له حاسة الصحفى؟ ..
بعد كل السنين التى مارست فيها البطالة فى هذه المدينة الأوروبية أنقل الأخبار
الرديئة لصحيفة رديئة؟ .. ما الذى أزال عن نفسى فجأة ذلك الصدا رغم
تحذير الطبيب وتحذير بريجيت بالأ أرفع السلاح مرة أخرى فى وجه العالم
الذى هزمننا؟ ..

شيء أقوى منى كان يدفعنى أيامها لأن أكون الصحفى الذى مات من قبل
ودفنته . شيء يدفعنى إلى أن أبحث وإلى أن أعرف . ولم يكن أمامى سوى أن
أطيع .

وبعد أسبوع تقريبا من مقابلة الأمير . توجهت فى الصباح إلى مقهى
إيلين .

قابلتنى بابتسامتها المهنية المرحة . وقادتنى إلى ركن بعيد فى المقهى وهى
تثرثر : ألم أقل لك؟.. ألم أبشرك ياسيدى بأننا سنقف على قدمينا بأسرع مما
نتصور؟ وما نحن أفضل مما كنا من قبل! ولكن هل تعرف شيئا؟.. ربما كان من
الأفضل أن نكف عن هذه القهوة الطبية أيضا . قرأت أنها ليست .. ليست مفيدة
جدا . العصير أفضل .

وراحت تتكلم دون انقطاع وكنت أغمغم بالموافقة على ما تقول وأنا أقاطعها
عند كل فرصة تسكّنت فيها بالسؤال عن يوسف . لكنها فاجأتنى بعد أن جلست
بأن سحبت هى أيضا مقعدا واستقرت فى مواجهتى .

ظلت تتطلع نحوى لحظة وهى تشبك يديها أمامها على المنضدة ، وكانت
ابتسامتها التقليدية تشحب تدريجيا ، ثم قالت :

- كنت أنتظرك يا سيدى . فى الواقع كنت سأتصل بك لو لم تأت اليوم .

تغيرت طبقة صوتها وهى تقول ذلك . اختفت نبرة الثرثرة مع زبون المقهى
وأطلت من عينيها نظرة جادة ، توشك أن تكون حزينة وهى تتطلع إلى

قلت فى قلق : ولكن لماذا؟.. هل حدث شيء؟.. يوسف بخير على ما أرجو..

- نعم .. نعم ، بالتأكيد . أما أنا فلست بخير .

سكنت قليلا وأحنت رأسها كأنها تفكر كيف تبدأ الكلام ولكنها فجأة رفعت

نحوى عينيها ضارعتين وقالت :

- أرجوك أن تترك لى يوسف !

- أتركه كيف؟.. أنا لم أره من مدة ياسيدتى ولم أحاول أبدا ..

قاطعتنى : أعرف !.. أعرف أنك لم تحاول أبداً أن تأخذه ولكنه هو الذى يحاول أن يذهب معك ..

- ولا حتى هذا .. صدقيني .

كان جفناها يرتجفان بسرعة وقالت بصوت متحشزج إلى حد ما :

- إذن فهو يحاول أن يرجع إلى الأمير . يريد أن يعمل صحفيا ويريدك أن تساعده ، أليس كذلك ؟

لم أرد . فقالت وهى تنتظر فى وجهى مباشرة : أعرف كل شىء ياسيدى . وأعرف جيدا ما الذى يريده يوسف ، ولو كان معى مال كاف لأصدرت له صحيفة يعمل فيها كما يشاء ...

وحاولت أن تبتسم وهى تقول ذلك وتعبث بالمنضدة بأصابع مرتعشة ، ولم يفلح هذا فى منع غشاوة الدمع التى تكونت فى عينيها . أردت أن أتكلم ولكنها مدت يدها كأنها ترجونى أن أنتظر وهى تقول مغالبة بإرادتها البكاء : لن أستطيع أن أبقى معك طويلا . وقد يخرج يوسف من المطبخ فى أى لحظة .. لهذا أرجوك أن تسمعنى . أنا أحب يوسف .

- هذا طبيعى .

فى هذه المرة أطلقت ضحكة خافتة وهى تقول لا .. لا

ثم أكملت بعد فترة وهى تحول وجهها قليلا عنى :

- لا . ليس طبيعيا وأنا أعرف . هو كان يمكن أن يكون ابنى وأنا أعرف ، هو أوشك أن ينهى الجامعة وأنا جاهلة وأنا أعرف . لكنى أحبه وهو قد رضى بى .. لاتسألنى لماذا رضى . هل قبلنى لأنه كان يبحث عن العمل وعن الاستقرار؟ ربما . كان يمر بفترة صعبة بعد أن سافر الأمير فى السنة الماضية ولم يكن عنده تصريح للعمل . ولكن جاء قبله كثيرون عملوا عندى . شبان أصغر منه . أكثر وسامة منه . غير أنى لم أفكر فى أى رجل منذ مات زوجى الأول ..

توقفت عن الكلام لحظة ثم أكملت فى تردد : مع يوسف .. كان هناك شىء ..

ثم احتبس صوتها مرة أخرى فقلت :

- سيدتى ، الإنسان لا يقرر أن يحب . الإنسان يحب هذا هو كل ما فى الأمر .
لاداعى لأن تشرحى لى شيئا ولا أن تبررى شيئا . أنا أصدقك وأفهمك . لا يوجد
من يمكن أن يفهمك أكثر منى ..

- إذن فأنت تفهم أيضا خوفى ؟

- بالتأكيد أفهمه .

أبعدت وجهها عنى مرة أخرى وهى تقول بصوت خافت : معذرة ، ولكنى لا
أعتقد أنك تفهمه تماما . أنا أعرف أن يوسف سيتركنى . بعد حين لابد أن
يتركنى . أنا الآن فى الخمسين من عمرى . أعمل كل ما أستطيع لكى أظل فى
نظرة امرأة وزوجة . ولكن كم يمكن أن يستمر ذلك فى رأيك؟ كم يمكن أن يستمر
وهو يمثل هذا الشباب وأنا أشيخ كل يوم ؟ سنة؟.. سنتين؟.. أكثر من ذلك قليلا أو
أقل منه؟ لكن ياسيدى . أنا أقبل . أعرف أنها سعادتى الأخيرة ، فأرجوك ، أن
تتركها تستمر ، سيذهب يوسف ذات يوم ، ولكن دع هذا اليوم يبطىء . لا تتعجله .
أعرف أنه إن عمل بالصحافة .. إن ترك هذا المهوى مرة ، فسيتركه إلى الأبد ..
عندما ينبت جناحاه سيظهر بلا عودة ، فهل هى أنانية منى أن أريده أن يبقى فى
الأرض .. أن يبقى معى؟ .. ربما ..

حل بى حزن عقد لسانى وأنا أنظر إلى وجهها المعذب . هل تتكلم عن نفسها
الآن أم عنى؟.. هل أبوح لها أيضا بخوفى من أن يأتى سريعا ذلك اليوم؟ ..
كانت تكرر فى ضراعة بما يشبه الهمس وهى تقول : أرجوك ياسيدى .. افعل
ما تستطيع .

وابتعدت ولا أدرى ما الذى قلته لها ولكنى كنت مستغرقا فى التفكير حين جاء
يوسف أخيرا وصافحنى بحرارة بيده الرطبة وهو يقول :

- مرحبا بالأستاذ . لم أتوقع أن تأتى بهذه السرعة . جلس قبالتى فى المكان
الذى كانت تحتله إيلين . وكان قد نسى فى هذه المرة أن يخلع «مريلة» المطبخ

البيضاء ، وسألنى بمجرد جلوسه متوفراً ومتحمساً :

- خيراً إن شاء الله؟ انتهيت من المشروع ..؟

لم أرد عليه فوراً . تداخل فى ذهنى ما جئت من أجله وما كانت إيلين تحدثنى عنه منذ قليل ، وانتبه يوسف إلى شرودى فسألنى : الأستاذ متعب؟

- قليلاً ، ولكن هذا لا يهم . أردت أن أسألك يا يوسف وأرجوك أن تكون صريحاً معى ، هل قلت لى كل ما تعرفه عن الأمير حامد ؟

وضع يوسف يده على صدره وقال وفى عينيه نظرة عاتبة : أقسم لك بحياة أبى إنى لم أخف عنك أى شىء مهم أعرفه . ولكن لماذا تسألنى هذا السؤال ؟

- سأخبرك حالا . فى الواقع إننى دهشت قليلاً من إصرار الأمير على أن نتعاون معه أنت وأنا . بصراحة نحن لسنا نجمين فى عالم الصحافة ، وكما قلت لك فهو يستطيع بماله أن يستأجر من يشاء من الكبار ..

- العفو يا أستاذ ، اسمك ...

قاطعت يوسف بإشارة باترة : اسمى لم يعد يعرفه أحد . لا أعيش فى الوهم ولا الكذب . ربما كان البعض يعرفوننى منذ عشرين عاماً أو أكثر ، ولكنى الآن لست ورقة رابحة فى لعبة الصحافة .

قال يوسف فى تردد : ولكن هذه بالفعل فرصة لكى يعود قلمك إلى الظهور ، وأنت تستحق هذا وأكثر منه ..

ابتسمت قائلاً : بالضبط يا يوسف . لا بد أن يكون الأمير قد فكر بهذه الطريقة . ها هى فرصة لشخص ضائع لن يتردد فى قبولها .. ولكن دعنا من هذا الآن . أريد أن أسألك أيضاً هل تعرف اسحاق دافيديان؟

قال بلهجة ساخرة : بالطبع ، من لا يعرفه؟.. هو «بلدياتنا» ومن أكبر المليونيرات هنا . هاجر من مصر سنة ٥٦ وأخذ جنسية البلد ، وهو يملك الآن نصف العمارات فى المدينة ..

ثم قال بعد سكتة وهو يضحك : مشيت فى مظاهرة ضده .

- مظاهره ضد دافيديان ؟ .. لماذا ؟

- خرج أهالى الحى هنا فى مظاهره لأنه يشتري البيوت القديمة الرخيصة الإيجار ثم يهدمها لكى يبني محلها عمارات ضخمة فاخرة، إيجاراتها ضعف دخل السكان الذين شؤدهم . فأين يسكن هؤلاء ، فى الشارع ؟

- لم أكن أعرف هذه الحكاية . وإلى أى شىء انتهت المظاهره؟

هز كتفيه قائلاً : كما تنتهى كل مظاهره . رفعنا لافتات ضد دافيديان وذهبنا إلى عمدة الحى وسلمناه عريضة ، أما هو فاستمر فى شراء العمارات القديمة وهدمها .. المتظاهرون يأستاذ معهم حناجرهم وهو معه المال ومع القانون ، فما الذى يمكن أن تفعله مظاهره؟

- معك حق . ولكن هل سمعت أو قرأت أنه تبرع بمائة ألف دولار بعد حرب

لبنان لجيش إسرائيل؟ .. هل كنت تعرف ذلك؟

- لم أسمع بهذا ولكنه لا يدهشنى . هو من رجالهم المعروفين هنا . يكتب لكل الصحف دفاعاً عنهم ، وينظم ندوات ، ويستضيف الوفود التى تأتى من هناك و...

ثم توقف لحظة قبل أن يقول فى دهشة: ولكن ما الداعى إلى كل هذه الأسئلة؟ .. ما علاقة دافيديان بما نحن فيه؟

- هل تعرف فيم يتاجر دافيديان إلى جانب العقارات ؟

- فى كل شىء تقريباً . فى الفنادق والبنايات والبورصة وكل شىء ..

نظرت إلى عينيه وأنا أقول :

- ألا تعرف أيضاً أنه أكبر تاجر للخيل العربية فى أوروبا؟ .. كنت أنت الذى

نبهتني حين تحدثت عن تجارة الأمير حامد فى الخيول . فى الواقع يايوسف إن أميرك هو أكبر شريك لدافيديان .

تطلع نحوى مبهوراً وخرج منه السؤال كصرخة : الأمير حامد؟ لا !

فقلت مؤكداً : نعم .

قال وما زالت نبرة عدم التصديق فى صوته : ربما كنت مخطئا .. الأمير رجل قومى أنت سمعته بنفسك يتحدث . كيف؟ له أصدقاء من كل الأحزاب العربية ، بل ومن منظمة التحرير نفسها !..

- اسمع يايوسف . من أسبوع وأنا لا أفعل شيئا غير البحث فى موضوع الأمير . اتصلت بكل من أعرف هنا ، حتى بالعاملين فى السفارات العربية الذين أحاول طوال الوقت أن أتجنبهم، وذهبت إلى البورصة ، وتحدثت مع محررى الاقتصاد فى الصحف ، ومع تجار الخيول وحتى مع محررى أبواب سباق الخيل!.. لو كانت عندى ذرة من الشك لما تحدثت إليك .

ظل صامتا فترة ثم قال : ولكن لماذا يفعل هذا؟.. عنده مال قارون ..

- هذا سؤال آخر لا أعرف جوابه . ولا أعرف أيضا لماذا يريد هذه الصحيفة الملعونة ولا لماذا يريدنا معه . كل ما أعرفه أننى لم أطمئن إليه من أول لقاء .

عبارة قالها عن عبد الناصر وعن الأمريكان أيقظت فى نفسى شيئا، وما عرفته عنه بعد ذلك أكد حدسى . ربما كان يريد الصحيفة بالفعل بسبب طموحه للحكم ورغبته فى أن يحارب ولى العهد .. وربما تكون المسألة أكبر من ذلك لا تعرفها أنت ولا أعرفها أنا . هو على أى حال نكى جدا وغنى جدا وطموح جدا . ومقنع إلى أبعد حد . أمثاله لا يقيبون عن أعين الكبار الذين يخططون ..

ولكننى أمسكت لسانى ولم أكمل ما كنت أفكر فيه وقلت بدلا من ذلك :

- هو باختصار يريدنا خاتمين فى إصبعه لكى يفعل شيئا لا نعرفه .

ولم يكن يوسف يتابعنى وقتها كان يتمتم :

- الأمير شريك دافيديان .. إذن لو عملنا مع الأمير فكأننا نعمل مع دافيديان

.. ودافيديان دفع التبرع لإسرائيل .

ثم ضحك بمرارة وهو يقول : أنت سدديتها فى وشى ياأستاذ !

- كيف لا سمح الله ؟

فقال بون أن يحول وجهه نحوى وكأنه يكلم نفسه : ماذا أفعل الآن؟ .. أبقى

هنا وأعيش طبابخا وأموت طبابخا أو قهوجيا؟ أرجع إلى البلد لأعيش عاطلا؟ هنا على الأقل أرسل مبلغا لأبى فى كل شهر . أهج فى دنيا الله؟ .. أين؟ .. وهل سيختلف الحال فى أى مكان؟ .. ماذا أفعل؟

قلت وكأنى أذافع عن نفسى : اسمع يا يوسف أنا لم أطلب منك أى شىء . كل ما فى الأمر أنك ألححت أن أضع مشروع هذه الصحيفة والآن أريدك أن تعرف لماذا لا أستطيع ذلك .

ثم أكملت وقد تذكرت شيئا : على أى حال لى عندك طلب وحيد . أنا لا أعرف كما قلت لك إن كان الأمير يعمل بمفرده أم أن وراءه أجهزة . وكل ما أطلبه منك أن يبقى هذا الكلام بيننا ..

وضحكت ضحكة صغيرة وأنا أقول : لا أريد أن تصدمنى سيارة فى الطريق أو أن يطعننى مجهول بسكين وأنا عائد إلى بيتى فى الليل ..
قال بطريقة آلية : لا سمح الله !

فاكملت : أنا أمزح بالطبع ، ولكنى أقصد أننى أفضل أن يبقى هذا الكلام بيننا ، ويعد ذلك فانت حر . يمكن أن تواصل العمل مع الأمير لو شئت .

أطلق ضحكة من مقطع واحد كأنها زفرة: تظاهرت ضد السادات وحكم على بالسجن وهربت من بلدى ومن أهلى لأنى كنت أعتقد أنه يقرط فى مستقبل البلد وضاع مستقبلى أنا الفقير فى المبادئ ، بينما الكبار والأغنياء .. أهلا يا مبادئ!

قال ذلك وأراد أن يقوم وفى وجهه هم وانكسار فأمسكت معصمه ليظل جالسا وقلت : لماذا تياس بسرعة؟ .. لم تنته الدنيا لأنك لن تعمل فى صحيفة الأمير . اكتب إن كنت تريد وحاول أن تنشر ما تكتبه فى الصحف التى تصدر هنا أو أرسلها أيضا إلى صحف البلاد العربية .. لا يعجبك أن تكون طبابخا أبحث عن عمل آخر وحاول أنت أيضا أن تكون غنيا وأن تكون قويا ..

شعرت وأنا أتكلم بأننى غير مقنع على الإطلاق ولكنى أكملت مع ذلك : أرجو

يايوسف . لا تجعل الدنيا تهزمك كما هزمتنى .

لم يعلق بشيء على كلماتى التى كانت تخرج متدافعة ولكنه تتمم بعبارات شكر تقليدية وهو ينصرف بخطى سريعة ناحية المطبخ، وتطلعت إبلىن ناحيتى من أقصى المقهى بنظرة مستقهما فحوالت بصرى .

خرجت من المقهى مسرعا وأنا ألوح بالتحية لإبلىن عن بعد .

كان هناك متسع من الوقت قبل أن ألتقى ببيرجيت فى مقهانا فى الظهيرة . قررت أن أذهب إلى البيت وأن أرتاح هناك قليلا قبل الموعد ولكننى بدلا من ذلك قدت السيارة حتى شاطيء النهر وركنتها إلى جوار المقهى ثم رحمت أنجول فى الشوارع الهادئة القريبة من النهر . كان الجو باردا والسماء ملبدة بالغيوم تنذر بالمطر ولكننى لم أهتم .

اعتقدت أنى سأنتهى من الموضوع كله!.. أحكى ليوسف ما عرفته ثم أنفض يدى من حكاية الصحيفة ومن الأمير ..أفرغ مرة أخرى للفرح الذى عاهدت نفسى ألا أعرف غيره، فلماذا لم يكن هذا هو ماحدث ؟

ليكن . أنا بالفعل أخطأت . لم يكن من شأنى أن أتدخل فى حياة يوسف ولا فى حياة إبلىن ولا أن أشغل نفسى بهذا الأمر . كان يجب منذ البدء أن أعتذر ليوسف بأن صحتى تمنعنى من العمل ثم ينتهى الأمر . ما أهمية ذلك التنقيب الذى انغمست فيه؟ .. أى كسب حققته حين عرفت من هو؟ .. لن تنقذ أنت لبنان من دافيديان ولن تحارب إسرائيل باكتشافاتك . اتفقنا منذ زمن طويل أنك لست مهما فما الداعى الآن لهذه الألاعيب؟.. لن تنقذ حتى يوسف . ارتاع المسكين مثلما ارتعت انت حين عرفت الحقيقة . لم تكن تتصور حين بدأت أنك ستصل إلى هذه النهاية . كنت تريد فقط أن تعرف من هو هذا الأمير حامد ، فإذا كل الخيوط تقودك إلى دافيديان . صحيفة قومية وتقدمية حقا!.. حسبها سموه بدقة شديدة: أطعمه أولا بوهم المبادئ . أعطه الأمل فى أن يرجع صحفيا بالفعل بعد أن أصبح نكرة. دوخه أيضا بأموال لا يحلم بها. برحلات وبدولارات وبمشروعات لا آخر لها.

ثم فى النهاية ضعه خاتما فى أصبعك وحركه كما تريد . مهما كان الثمن
فسيتكلف أقل من غيره وسيكون أكثر طاعة . ولكن لماذا ؟ .. ما الذى يريده منى
بالفعل ؟ .. لماذا أنا ؟ ..

قادتني قدمائى دون أن أدري إلى حديقتى السرية الصغيرة ، ولم يكن فيها
أحد .. جلست مجهدا على أقرب مقعد . كانت الأشجار قد اكتست كلها باللون
الأصفر الذى فقد بريقه ونفضت على الأرض أوراقا تغطيها طبقة بنية بلون
الصدأ . شعرت بالبرد بعد قليل فقمتم وأخذت أمشى بسرعة فى ممرات الحديقة
القصيرة المتقاطعة التى تعود دائما إلى نقطة البدء . إهدأ! .. إنس هذا الأمير فى
النهاية . ألم تعاهد بريجيت ونفسك أن تتجنب هذه الدنيا؟ .. ولكن هذا هو ما نفذته
بالفعل . انسحبت داخل جلدى وحاولت أن أنسى كل شيء . حتى مكالماتى مع
خالد وهنادى أصبحت شيئا عابرا فى حياتى ، أحرص على ألا تطول . كنت أهرب
من كل ما يذكرنى بالصراعات القديمة وبنفسى القديمة . قبلت أيضا أنى أب
مهزوم يجب ألا يحارب لكى يسترد ما فقده بالفعل . فلم هذه الحيرة الآن؟ لماذا
كان يجب أن يظهر هذا الأمير؟ .. هل أصارع - أنا أيضا - خيلا من فوارسها
الدهر؟ .. من فوارسها الأمير حامد ودافيديان ؟ .. - خيلا عربية حقا !

ولكن كفى! .. قلنا إن الحكاية انتهت فلنرجع كأنها لم تكن . فليذهب الأمير
ودافيديان إلى أى داهية . فليذهبا إلى النسيان وهذا هو الأهم . فكر فقط فى
الفرح الوحيد الذى يمكن أن تفوز به من هذه الدنيا .

قالت إيلين : لا تتعجل نهايته ! .. فلا تتعجل النهاية . لا تفكر حتى فى أن
نهاية ستائى . بريجيت هناك . من لحم ودم . ليست وهما وليست خدعة . نعم ..
نعم ..

كنت أفر من الحديقة ، أو شك أن أعود وأنا فى طريقى إلى المقهى .
ووقفت لحظة ألهث حين رأيت ذلك المبنى البيضاوى الداخلى فى النهر . أشعر
أن دموعا تريد أن تطفرف من عيني .

أية نعمة أن مقهانا مازال قائما هناك!

أية نعمة أنه سيحتويينا معا !

أية نعمة أن أراها هناك ، آتية من آخر الطريق ، تخطو بسرعة كعادتها ، تطأ الأرض بخفة كعادتها ، لا تمشى ، بل تطفو فوق أثير لا يرى . وأنا معك ، أهجر أيضا هذه الأرض الطافحة بشروورها ، لألحق بك ، يرتفع بي حبك إلى هذا الأثير ، إلى تلك البراعة لنهرب معا إلى السكينة ، ولنصنع معا هذا الفرح .

الفصل التاسع

هذا الكهف

كانت تلبس معطفا واقيا من المطر. وجهها يخفى قلقا لا يغيب عنى.
إلى جوار نافذتنا المعتادة ساعدتها على خلع معطفها ولم يكن تحته الزى الأزرق. كانت تلبس بلويزة بيضاء فوقها «جيرسى» أزرق بلون عينيها وقد رفعت شعرها خلف رأسها وعقصته كيفما اتفق فتناثرت منه خصل ذهبية صغيرة حول وجهها الذى بدأ أقل استدارة.

سألتها ونحن نجلس متقابلين: ألم تذهبي إلى العمل؟
أشارت بيدها إلى الغيوم فى السماء: رحلة سياحية فى هذا الجو؟ اتصل بى المكتب فى الصباح ليقول إنه لاتوجد أفواج اليوم.
- وما العمل؟

- أذع أن تطلع الشمس!.. ولو أن هذا لن يفيد كثيرا - أوشك الموسم السياحى أن ينتهى على أية حال ولا بد أن نفكر فى المستقبل..

كنت أعرف أنها تدبر نفسها بصعوبة بالمرتب الزهيد الذى تحصل عليه من شركة السياحة. لم يكن لديها تصريح رسمى بالعمل ولا عقد مع صاحب الشركة ولكنه كان يجدد لها العمل باستمرار لإجادتها لعدة لغات وقناعتها بالمرتب البسيط. أراحه كثيرا أنها أجنبية ليس لها حقوق فى التأمين أو المعاش فتمسك بها بينما كان يتخلص باستمرار من مواطناته قبل مرور ستة أشهر على عملهن لكى لاتصبح لهن حقوق قانونية. وظلت بريجيت منذ عرفتها تعيش فى حدود مرتبتها دون أن تسمح لنفسها بأى ترف، ولم تقبل أيضا شيئا منى. إن دعوتها للغداء مرة فلا بد أن ترد دعوتى فى اليوم التالى. وذات مساء اقترضت منى مبلغا زهيدا فوجدت فى الصباح طرفا فى صندوق البريد وبداخله النقود. لم تستطع الانتظار إلى الظهيرة لترد القرض حين نلتقى. وفى النهاية كفت عن دعوتها إلى المطاعم أو إعطائها أى هدايا صغيرة لكى أريحها تماما. وأعرف الآن عن يقين أنها لن تقبل أن أساعدها حتى لو فقدت عملها، فما الذى سيحدث لها ولنا؟..

فاجأتنى بريجيت حين مدت يدها لتمسك بيدي وهى تقول ضاحكة:
- لا تقلق .. لن نتخلص منى بسهولة! .. لا بد أن هناك حلا آخر أو عملا آخر.

حدثنى مدير الشركة اليوم عن شخص يريد أن أعطيه دروسا فى اللغة الفرنسية. أستطيع على ما أظن أن أعطى دروسا للمبتدئين وللأجانب..

ولم أعرف إن كانت قد قالت ذلك لتطمئننى أم أنه حقيقى. ظلت تمسك بيدي بين يديها وترت عليها كأنها تهدهدها وهى تتطلع من زجاج النافذة. وكان المطر لحظتها يتساقط فى قطرات كبيرة فوق النهر فتثب الأمواج وهى تستقبل تلك القطرات.

وقالت بريجيت وهى تنظر نحوى بابتسامة ماكرة: أرأيت؟ ها هى السماء تمارس الحب مع النهر وسيلدان أمواج جديدة.

ثم بدأت تهز يدي وهى تقول بصوت مرتفع إلى حد ما: هيه! أنت!.. فيم تفكر؟

- أفكر فيما قلت أنت الآن وفى أشياء حدثت اليوم. أفكر فيما سيحدث غدا.. مطأت شفتيها وهى تسحب يدها من يدي قائلة: إذن أنت لم تتغير أبدا. قلت لك مرات كثيرة لايهم ما حدث ولا ما سيحدث. نحن لانملك غير لحظتنا، هنا والآن..

قلت مازحا: عمرى ضبعف عمرك وتعطينى دروسا؟

- وما ذنبى إن كنت لم تتعلم درسك طول هذا العمر؟..

الحق معها!.. ولكن ماذا أفعل وصوره إيلين تخايلنى طول الوقت؟.. لايفارقنى صوتها الحزين وهى تحاول ألا تفقد كل كبرياء بينما تتوسل إلى بالفعل؟.. أى نذير هذا؟..

ظلت بريجيت تتطلع عبر النافذة فى صمت وقد ارتسم على وجهها الشارد شبح ابتسامة بينما تزداد الأمطار غزارة وتتدافع الغيوم السوداء فى السماء..

ثم التفتت نحوى وقالت: أظن أننا أسرة من المجانين!

- أنت قلت! ولكن ما الذى ذكرك بهذا الآن؟

- تلك الأمطار.. ذكرتنى بيوم كهذا اليوم فى طفولتى «قطبت جبينها لحظة

كانها تسترجع الذكرى بالضبط» غير أن صباحها كان مشرقا مشرقا..

أجلس مع أبي في مكتبته أراقبه صامتا كالعادة عندما التفت نحوي فجأة وقال:
 بريجيت! هل تعرفين أسماء الأشجار؟.. ولم أكن أعرفها، فقال عار أنك حتى الآن
 لاتعرفين أسماء الأشجار، هيا - فلنقل اليوم شيئا مفيدا . سأعلمك الأسماء!..
 وكانت في طرف البلدة حديقة نباتات واسعة كأنها غابة، ولكن حين وصلنا إلى
 هناك بدأت الغيوم تغطي الشمس وأصبحت الحديقة معتمة تقريبا، ثم هطل المطر.
 غير أن شيئا من ذلك لم يوقف أبي. كان يصحبنى من شجرة إلى أخرى. يقطف
 ورقة من إحدى الأشجار ليقارن بينها وبين ورقة جارة لها بانهماك تام . يحكى كل
 التفاصيل التي يعرفها وأنا أتابعه، لأريد أن تفوتنى كلمة. ولم تكن معنا حتى
 مظلة نغطي بها رؤوسنا. كنا نجرى لنحتمى فى ظل أغصان شجرة دردار أو
 أغصان أخرى وارقة نون أن يكف عن شرحه ودون أن أغفل أنا عنه لحظة. ولكن
 حين وصلنا إلى البيت صرخت أُمى فى فزع. بكت وراحت تصيح فى وجه أبى أن
 يغير ملابسه بسرعة وهى تخلع عنى ثوبى المبتل وتجفف شعرى والدموع فى
 عينيها مدمدمة: ستموت البنت، سيصيبها التهاب رئوى وستموت، بالتاكيد،
 وبالتاكيد ! ولم يذهب أبى ليغير ملابسه بل وقف مزروعا فى مكانه يقطر منه الماء
 ونظر نحوي فى ذعر وكأنه قد انتبه فجأة إلى ما حدث، فغمزت له بعيني لأطمئنه.
 هل تعرف؟.. لم يمت هذا الدرس أبدا. عندي فى كل بلد أصدقاء من الأشجار،
 أذهب إليها لتشاركنى فرحى ولكى أشكو لها حزنى. أعتقد أن الأشجار تفهمنى،
 أنا واثقة أنها تفهمنى. ما رأيك أن نتجب طفلا؟

لم أنتبه إلى السؤال فى أول الأمر. ولكن الخيوط المتوازية كانت تتجمع الآن
 بجوار عينيها وحول ذقنها والتمعت عيناها وهى تنتظر نحوي فى لهفة:

- أنت تمرحين؟

- لا، لم أفكر أبدا فى طفل منذ.. منذ غاب ذلك الآخر.

- طفل؟ .. فى مثل سننى يا بريجيت؟

- وما بهم؟.. لا يكون الوقت متأخرا أبدا لكى تقدم هديتك للحياة. طفل هو أنت
 وهو أنا. نعيش فيه معا ونعيش معه، بعيدا.. فى جزيرة أو فوق جبل. نعلمه أن يحب
 الأشجار والزهور والشعر، ونعلمه هو أيضا كيف يتخذ من الأشجار أصدقاء له -

يصغى لما تقوله أغصانها ويفهم الرسائل التي تبعثها أوراقها المتساقطة. نعلمه أيضا ألا ينساها في الخريف. يقول للشجرة إنه معها في عذاب الموت والميلاد، وإنه هو أيضا سيولد معها من جديد حين تنبت أوراقها الخضراء مرة أخرى، لكنه لن ينساها وهي تقف عارية في الشتاء، بل يمنحها بحبه الدفء. دعنا نتجرب ذلك الطفل!

كانت وجنتاها متضرجتين. كانت ترتجف بالفعل وهي تهز يدي في لهفة وحماس.

سكتُ لحظة قبل أن أقول لها: وماذا سيحدث عندما ينزل يوما من فوق ذلك الجبل أو يرحل من تلك الجزيرة؟.. هل سيحنو عليه الناس مثلما تحنو الأشجار؟
- ولكن ألم أقل لك إننا سنعلمه الحب قبل كل شيء؟ لا بد أنه سينجو بالحب مثلما نجونا نحن. أليس كذلك؟ سينجو دائما.. دائما..

ولكن شيئا من الشك تسرب إلى صوتها وهي تتمتم «دائما .. دائما» بلا انقطاع، بصوت خافت كأنما تريد أن تقنع نفسها وأن تقنعني بأن ذلك صحيح. وبدا لي الآن وهي تزم شفتيها المرتجفتين أنها تغالب البكاء وتغالب الاعتراف بأنها تسعى وراء حلم بعيد.

كيف أحميها؟.. لو أعرف كيف أحمي هذه التي منحتني كل ذلك الحب، والتي تجلس الآن أمامي مهزومة تبحث عن طفل مستحيل في عالم مستحيل!.. رحت أربت على يدها وأضغط عليها برفق، أريد أن أنقل لها دون كلام أنى أفهم، وأنى معها في لحظة الحنين تلك، أن أقول لها أنت يا ابريجيت التي قلت إننا نجونا بالحب، والتي قلت فلنعش لحظتنا التي نملكها، فلم لا تفعلين الآن ذلك؟.. ضمنت أناملها ثم رفعتها إلى فمي وهمست لتلك الأنامل البيضاء الطويلة التي أعشقها فقط دعى هذا اليوم يبطنى. أنا لا أطمع في الأحلام المستحيلة. فقط دعيه يبطنى، هذا هو كل ما أطمع فيه .

ولكن خاطرا شريرا تسرب إلى ذهني فجأة فأنزلت يدها وهتفت

- بريجيت ! هل أنت..

- أنا لم أسالك عن شيء بعد.

هزت رأسها في ببطء وهي تقول: ولكنى أعرف سؤالك يا صديقى . لا . لست حاملا . لن أفعل شيئا من وراء ظهرك إن كان هذا ما تخشاه.

لزمت الصمت والتفت نحو النافذة من جديد. كان بخار الماء الذى تكاثف على الزجاج يحجب رؤية النهر والجبل، وحلّت بالمقهى عتمة كعتمة الغروب. وحين عدت أنظر إلى بريجيت كانت تحنى رأسها ويدها وجهها الذى تحيط به الخصلات المهوشة مطموسا وكأنما يبين هو أيضا من وراء غيمة.

كان صمت ووجوم. توهج شيء لحظة واحدة ثم انطفأ. وطوال جلستنا لم أحاول أن أشرح شيئا أو أن أبرر شيئا. ولم تنفع محاولاتي ولا محاولاتها فى طرد الكتابة التي حلت بعد جوابها عن سؤالى الذى لم أنطق به. رحنا نثرثر ونحاول أن ننسى ذلك الطفل الذى ولد لحظة واحدة عشق فيها الأشجار ثم مات على طرف سؤال. ولكنا نعرف أنه هناك يخايلها ويخايلنى. يعذبها بالندم لأنها أحبته ويعذبنى لأنى وأدته من قبل أن يكون.

وانتهت جلستنا بسرعة بعد ذلك. عرضت عليها أن تأتى معى فاعتذرت بأنها مصدعة وتود أن ترتاح قليلا. قالت أوصلنى حتى البيت. وقبل أن تنزل من السيارة قالت بلهجة عابرة سأتصل بك لكى نلتقى فى المساء.

كنت أنا أيضا مجهدا. وحين وصلت إلى البيت سحبت رسائلى من صندوق البريد وصعدت إلى الشقة ثم ألقيت الصحف على المكتب وأنا أغمغم فليكن يا بريجيت. فليكن يا إيلين. فليحدث ما يحدث! ... وكان الإجهاد يخلى السبيل للاستهانة.

أرجأت موعد الحديث مع خالد وهنادى. لم أكن مستعدا بعد. لم أكن قد تخلصت بعد من الطفل الذى لم يولد لأفرغ للأطفال الكبار، فرحت أجول في الغرفة أعيد ترتيب الأشياء دون هدف. أنقل المقاعد وأغير ترتيب الكتب في المكتبة، مرة حسب الحجم ومرة حسب الموضوع، ووجدت فوق أحد الأرفف صورة

عبدالناصر التي تهشم زجاجها يوم أسقطتها معى على الأرض. كان الزجاج المكسور قد كشط جزءاً من فمه وشوه ابتسامته فبدأ وجهه حزينا. قررت مرة أخرى أن أعيد وضعها فى إطار جديد، ثم وقفت وسط الصالة الصغيرة أتأمل يمينا ويسارا. لم يبق ما يمكن عمله!.. لم يكن هناك من الأصل ما يمكن عمله فعدت مستسلما، جلست إلى المكتب وأخذت أستعرض حصيلة البريد.

وجدت بعض أعداد من صحيفتى القاهرية. ألقىت نظرة على العناوين ثم وضعتها جانبا. استبقيت عدد الخميس وفتحت الصفحة الثامنة التي تنشر فيها منار مقالها الأسبوعي، ولكن المقال لم يكن هناك. كان هناك بدلا منه موضوع ديني «بين الشريعة والتاريخ» فوضعت العدد فوق الصحف الأخرى، وبدأت أدير رقم القاهرة فى قرص التليفون وأنا أنظر شاردا للصورة المنشورة مع المقال الدينى. كانت صورة جانبية لوجه امرأة محجبة، تغطى الطرحة البيضاء شعرها وتحيط بوجهها. قلت لنفسى وأنا أوصل بطريقة آلية محاولة التقاط الرقم أنا أعرف هذا الوجه. ليس غريبا عنى.

ثم فجأة وضعت السماعه واخطففت الصحيفة .

نعم ! .. بالطبع هى منار ! .. نعم هى صفحة المرأة كالعادة يتوسطها اسم منار! وهناك عنوان فرعي بخط صغير تحت العنوان الرئيسى «بين الشريعة والتاريخ: ماذا جرى لحقوق المرأة؟» جريت بعينى على السطور وكنت قد خمنت الفكرة منذ العنوان : الشريعة صانت للمرأة حقوقها المادية والأدبية ولكن الرجال على مر التاريخ راحوا ينتقصون من هذه الحقوق. وكان المقال مليئا بالشواهد والاختباسات من المراجع الدينية. ولم أجد أسلوب منار التقليدى. خفت حدة هجومها على الرجال الذين كانت تدخر لهم فى مقالاتها كلمات كطلقات الرصاص أبسطها الجبروت التاريخى للرجل، وفقهاء الجهل والكذب والذين يكسرون أعناق النصوص.. إلخ. هذه المرة كانت أقوى عبارة فى مقالها أن الرجال لو فهموا الشريعة كما ينبغى لتحققت المساواة منذ زمن بعيد لأن النساء لهن فى الشريعة حقوق مساوية لواجباتهن، وإذا كانت للرجال حقوق إضافية فلأن عليهم واجبات إضافية.

وضعت القصيدة أمامى ورحت أحقدق فيها.

حتى الأسبوع الماضى فقط كانت تتوسط كلمتها تلك الصورة التى تظهر منذ عشر سنين فى صفحة المرأة، الصورة التى تطل بوجهها المتسم وسط هالة شعرها الأسود المفقوق وهو يسترسل على جانبى وجهها. فى الصورة الجديدة كان وجهها وقورا وهى تحقدق بنظرتها الجانبية إلى بعيد. وعاد إلى ذهنى اللقب القديم الذى كانوا يصفون به منار أول ما عملت فى الصحيفة. كانوا يتندرون على حماسيتها ويسمونها «منار شفيق» على اسم درية شفيق التى كانت تؤلف حزيا نسايا، حلّه عبدالناصر بعد الثورة. طرأت على بالى لحظات من حوارنا معا وهى تدافع عن حقها فى أن تختار العمل الذى تشاء وفى أن تلبس ما تشاء وفى أن تفعل مثلما أفعل بالضبط، وإياك أن تقول لى رجل وامرأة!

والآن ما رأيك يا صديقى ؟

قل لى أنت ماذا تفعل لو ظللت تكتب مثلها ثلاثين سنة لتقول الكلام نفسه: يجب تحرير المرأة.. يجب تحرير المرأة، فإذا بالمرأة لاتريد أن تتحرر ولا يحزنون؟ ماذا تفعل فى النهاية... إن لم تهزمهم فاتبعهم!
ومع ذلك فهناك رد أبسط : منار تمضى فى طريق الفضيلة وأنت تتردى فى الرذيلة!

بسيط جدا!

مددت يدى إلى سماعة التليفون ورحت مرة أخرى أدير رقم القاهرة، لكنى وضعت السماعة من جديد. وما رأيك فى خالد... بسيط جدا أيضا؟.. يخرج من صلب الطالح صالح؟..

هيا فلتواجه الحقيقة . نعم . أحيانا أشعر بالخجل من نفسى لأنه بمثل هذا الشباب وهذه البراعة ولأننى ذلك الكهل أنشبت بأخر قطرة مما يمكن للحياة أن تقدمه. أذكر جيدا ما قاله إبراهيم عن الظروف التى تصنعنا. إذن فما هى تلك الظروف التى جعلت جيلنا لايرى فى الحياة عارا؟.. لماذا قبلنا اننا بشر نخطيء ونصيب ونعصى ونتوب، نطمع فى رحمة الله ونتق أن أوان التوبة سيأتى قبل أن

تضيق فرصتها، ولماذا يريد خالد أن يكون ملاكا لايشوب نقاءه مجرد دور من الشطرنج ؟ .. أعرف أنه لو عاش تلك الحياة مثلما بدأ فلن يعرف الحيرة التي عشناها نحن. لن يحاول أن يصحح ماضيه مثلما تحاول منار الآن بطريقتها ومثلما أحاول بطريقتي. لن يكون فى الحياة صراع ولا فى الروح صدع. سيكون كل شيء سهلا وواضحا . ومع ذلك فهناك شيء فى داخلى يقول إن هذا مستحيل ياخالد... لم يحدث أبدا أن نبتت للبشر أجنحة الملائكة. لو أنك معى الآن لتكلمنا مثلما كنا نتكلم من قبل كأصدقاء. لحاولت أن أشرح لك وأن أستمع إليك. ولكن هيا... لا تتلذذ بتعذيب نفسك!..

طويت الصحيفة وطويت صورة منار ثم عدت أدير الرقم. وبعد المحاولات المعتادة جأنى صوت خالد:

- السلام عليكم .

-وعليكم السلام ياخالد. إمال فىن هنادى؟.. مارديتش على الأول ليه زى

العادة؟

- هى قاعدة جنبى وحاتكلمك حالا «ثم ضحك» أصلها زعلانة.

- زعلانة منى؟

- لا، منى أنا.

- عملت لها إية تانى ياخالد؟.. حكاية التلفزيون برضه؟

- لا، بتتفرج على التلفزيون زى ما هى عايزة. أصلها .. «ابتعد صوته قليلا»

استنى يابنت .. ما تخطفيش السماعة..

ولكن صوت هنادى تدفق باكيا : إسمع يابابا... قول لخالد ده مالوش دعوة بى

أبدا - وإلا أنا حا أطفش من البيت ده خالص!

- ياساتر يارب!.. تطفشى مرة واحدة؟ ليه كفى الله الشر؟

- كل يوم يا بابا ينكد على ويخترع لى حكاية جديدة!.. دلوقت مش عايزنى

أروح النادى. حتى ماما قالت له يسيبنى فى حالى مش بيسمع الكلام.. مش

ببرضى يخلينى أخرج و...

اختنق صوتها مرة أخرى بالبكاء.

- إهدى ياهنادى.. إهدى وادينى خالد.. حتروحى النادى زى ما انتى عايزة.

بس بطلى عياط يا حبيبتي عشان خاطر بابا.. أرجوك..

ولكن صوتها استمر وسط بكاء لا تسيطر عليه: قل له .. قل له يا بابا.

- حاضر ، ادينى خالد.

جاء صوته هادئا: السلام عليكم.

- إحنا سلمنا على بعض قبل كده يا خالد!.. إيه حكايك مع اختك؟

- يا بابا أصل النادى فيه مساخر وفيه شباب فاسدين وأنا..

- أى حتة فى الدنيا فيها ناس فاسدين وفيها ناس كويسين. سيبها تتعلم

بنفسها وتحمى روحها..

احتد وهو يقول: إذا كنت أنا الراجل بطلت أروح النادى. هى تروح؟ حضرتك

حتدلعها زى ماما وتسمع كلامها أول ما تنزل لها دمعتين؟ هنادى ما بقيت

صغيرة، وأنا هنا ولى أمرها!..

- انت بترفع صوتك على يا خالد؟.. وأنت ولى أمرها؟.. أنا لسه ما متش

يا ابنى.

- بعيد الشر، أنا ما أقصدش كده. أنا قصدى..

ارتفع صوتى أنا أيضا - مش عايز أعرف قصدك!.. أنا قلت لك مالكش دعوة

بيها وسيبها فى حالها. فاهم ولا لا؟.. يا أخى أنا عمرى ما فرضت عليك رأى ولا

قلت لك اعمل كذا ولا بطل كيت.. سيبك حر تفكر زى ما أنت عايز وتتصرف زى

ما أنت عايز. مش كده؟

-أيوه.

- إمال اشمعنى أنت عايز تفرض رأيك على غيرك؟.. دى حاجة غريبة! سيب

هنادى كمان حرة، خليها تخرج وتروح النادى وتعمل اللى هى عايزاه. فاهم؟

تردد لحظة ثم قال بصوت خافت: أمرك. مادام حضرتك مش مقتنع بوجهة نظري «ثم سكت لحظة» بس أنا كنت عايز أكرم حضرتك فى موضوع تانى خالص.

- طيب الأول ادينى هنادى.

- أيوه يا بابا.

- خلاص ياهنادى. أنا فهمت خالد إنك تخرجى وتروحي النادى وقت ما أنت عايزة. لكن طبعا لازم تاخدى إذن ماما، وتقولى لها حتخرجى إمتى وحترجى إمتى..

كانت شهقات البكاء لاتزال تغمر صوتها وهى تقول: ما هو أنا... ما هو أنا بأعمل كده والله يا بابا.. ميرسى يا بابا.

- وپرضه ياهنادى مش عايزك تزعلى أخوك.

انفجرت مرة أخرى: وهو ده حد يعرف يزعله؟.. ده ينكد على بلد بحالها وهو قاعد متسلطن ويقول لك «السلام عليكم»..

كانت تقلد طريقته بالضبط فابتسمت بالرغم منى ولكنى قلت - عيب ياهنادى. كده أنا اللي حا ازعل منك. ده أخوك الكبير ولازم تحترميه.

- بس كده؟.. إنت تأمر. باى باى.. أنا باحترمك ياسى خالد، مبسوط؟.. خد كلم بابا.

- استنى دقيقة يا هنادى!

- أيوه يا بابا.

- باقول لك يا هنادى «سكت لحظة ثم قلت» أرجوك يا هنادى.. خليك زى ما أنت وإوعى تتغيرى!

سألت فى دهشة: وإيه اللي حيغيرنى يا بابا؟

- مش عارف. فيه حاجات كتير بتغير الناس يا حبيبى، حاجات من برأهم وحاجات من جوأهم.

- ولو إنى طبعا مش فاهمة أى حاجة من اللى حضرتك بتقوله، لكن إن شاء الله كله حبيجى كويس! بس أنت ما تاخدش فى بالك كده وروِّق..

وضحكت لأول مرة منذ بدأت المكالمة ضحكتها الصافية الطلقة. وهى تقول:
باى باى .. معاك خالد.

وصلنى صوته من بعيد وهو يخاطب أخته. لو سمحتِ تخرجى لأنى عايز أكلم بابا فى موضوع خاص .. أيوه يا بابا.

حاولت أن أتخلص من انفعالى وأنا أسأله بهدوء:

- خير ياخالد؟

- خير بإذن الله . كل خير . بس ربنا يوفق. أنا كنت عايز أكلم حضرتك عن موضوع ماما.

- أى موضوع؟

- اللى حضرتك عارفه يعنى..

- أنا مش عارف أى حاجة ياخالد .. قول بسرعة فيه إيه؟

- قصدى يا بابا إن حضرتك عارف إن أبغض الحلال عند الله الطلاق.

صرخت : وده موضوع نتكلم فيه فى التلفون ياخالد؟

- معلش سامحنى. أصل أنا شاعر كده إن ماما ربنا هداها فى الفترة الأخيرة. ماما اتغيرت خالص.

- وأنت اللى اقنعتها بـ ... بالتغيير ده؟

- ياريت ، كنت كسبت ثواب. هى والله اللى ربنا هداها كده لوحدها. قعدت مدة تشوف البرامج الدينية فى التلفزيون، وبعدين بقت تاخذ منى كتب لغاية ربنا ما هداها خالص. فأتنا بيتيهيا لى إنى لو كلمتها دلوقت عن الصلح ألقى عندها استعداد . بأقول يعنى..

صرخت مرة أخرى : ما تقولش حاجة ياخالد. مش فى التلفون!

- ليه ؟ .. هو احنا بنقول حاجة عيب؟ إسمعنى بس يا بابا. أنا رأيت إنى

أحاول دلوقت أجلس نبض ماما يمكن تكون..

بذلت مجهودا لكن لا أصرخ مرة أخرى.

- ما تحاولش حاجة يا خالد. كتر خيرك إنك مهتم بالمسألة دي، بس دي حكاية مش مجالها التليفون زي ما قلت لك. حا ابقى أكتب لك جواب.

قال بإصرار : حضرتك عودتني دايمًا على الصراحة وإننا نتكلم كأصحاب. فماتزعلش دلوقت لما أقول لك رأيي. إنت بصراحة غلطان.. لأن زي ما قلت ل حضرتك إن ده أبغض الحلال و حضرتك غلطان.
سكت لحظة ثم قلت:

- وإيه لزوم «حضرتك» دي بقى ياخالد؟ كتر خيرك يا ابني. إنت قلت رأيك بصراحة وأنا سمعته. بس برضه ما تفتحش الموضوع ده بعد كده. وأنا متأكد إن ده كمان حيكون رأي والدتك لو كلمتها. مع السلامة دلوقت.
- «عليكم السلام ورحمة الله».

كنت أرتجف وأنا أضغ سماعه التليفون.

قمت مرة أخرى أذرع الغرفة الضيقة. إلى أين ستنتهي ياخالد؟.. نعم كنا صاحبين دائمًا كما قلت. ولكننا كنا دائمًا نتناقش قبل أن تقول رأيك. الآن أنت تريد أن تقر وحدك وأن تنفذ وحدك. تريد أن تنفذ ما تريده لهنادي ولأمك ولي.

هل ستقول لي مثل يوسف ولكي عندما بحثت عنك لم أجدك؟ لا .. لا ألوم نفسي هنا أبدا. أنت الذي اخترت. كنت ناضجا واخترت. يأتني إلى ذهني الآن ذلك النقاش الذي دار بيننا ذات مرة ونحن نلعب الشطرنج أيام كنت في الثانوية. كنت أيامها قد قرأت مسرحية ماكبث فقلت لي ولكن يا بابا ما ذنبه؟.. الساحرات أغويته بالعرش وقلن إنه لا بد أن يرتقى ذلك العرش. كان مسيراً حين قتل، فما ذنبه؟ قلت لك يومها إن ماكبث هو الذي خلق الساحرات لكي يحقق أطماعه وإن الساحرات هن بنات أفكاره لا أكثر نعم. ولكن ما أهمية هذه الحكاية؟ لماذا تطرأ على بالي الآن؟ .. نعم، تذكرت. أفكر، كم كنت رقيقا وحساسا ياخالد! حتى ماكبث القاتل كان صعبا عليك أن تدينه!.. فأين ذهبت تلك الرقة الأولى؟ أين ذهبت تلك

الحساسية؟ لماذا تقول بذلك الحسم وبتلك الإدانة القاطعة «إنت غلطان»؟ ماذا تعرف عن التجربة التي عشتها أنا أو التي عاشتها أمك لتصدر الحكم بهذا الإصرار؟ «غلطان يا بابا»! إن كنت أنا حتى الآن أحاول أن أفهم دون أن أدنيها هي قط ، فكيف تدينني أنت بهذه البساطة؟.. كيف احتكرت الحقيقة لنفسك؟

أعرف أنك منذ مدة كففت عن أن تقرأ ماكبث أو غيرها . لم تعد تقرأ غير الكتب التي تثبت لك أنك على حق وأن كل الآخرين على خطأ. ولكن احذر ياخالدا!.. إحذر لأن كل الشرور التي عرفتتها في الدنيا خرجت من هذا الكهف المعتم. تبدأ فكرة وتنتهي شرا: أنا على حق ورأىي هو الأفضل. أنا الأفضل إذن فالآخرون على ضلال . أنا الأفضل لأنى شعب الله المختار والآخرون أغيار. الأفضل لأنى من أبناء الرب المغفورة خطاياهم والآخرون هراطقة. الأفضل لأنى شيعى والآخرون سنة أو لأنى سنى والآخرون شيعة. الأفضل لأنى أبيض والآخرون ملونون أو لأنى تقدمى والآخرون رجعيون. وهكذا إلى ما لا نهاية. انظر ياخالدا إلى ما يدور فى الدنيا الآن. انظر إلى تلك الحرب التي لاتريد أن تنتهى بين العراق وإيران وكل طرف فيها على حق ومفاتيح الجنة تُوزع دون حساب والدم ينزف دون حساب. انظر إلى تلك المجزرة فى لبنان وشعب الله المختار يستأصل شعبا غير مختار ويقول قائد جيشه «العربى الجيد هو العربى الميت»!.. كل ذلك القتل لأن القاتل دائما هو الأفضل، هو الأرقى، وعجلة المجازر تدور طوال الوقت لتستأصل الآخرين، الأغيار، أعداء الرب، أعداء العقيدة الصحيحة، أعداء الجنس الأبيض، أعداء التقدم .. الأعداء دائما وإلى ما لا نهاية. مع أنه لاتوجد في العالم حرب شريفة غير تلك التي تدافع فيها عن بيتك أو عن أهلك أو عن أرضك وكل حرب غيرها فهي قتل جبان.

ستقول لي ياخالدا ولكن أنا لم أفعل شيئا من هذا كله! أنا فقط تحدثت عن الطلاق وعن النادى وعن الشطرنج!.. نعم، ولكن احذر مع ذلك من هذا الطريق يا ولدى!.. احذر ياخالدا لأنه يبدأ من هنا وينتهى هناك. يبدأ بأنت مخطىء وينتهى بأنت تستحق القتل!

رجعت إلى المكتب محموما. نعم، ساكتب هذا كله!.. ساكتب هذه الرسالة إلى

خالدا.

سأنتبهه قبل أن يفوت الوقت. وأخرجت القلم والورقة.

ولكن انتظرا!

هناك شيء ناقص في ذلك كله! أنت تريد أن تقول له الحقيقة كما تعرفها..

تريد أن تكون أمينا معه كما كنت دائما، ولكنك لم تذكر شيئا عن بريجيت!

لم تقل له إن لك عشيقة !

هل تجسر أن تفعلها؟

قلت من قبل إنك تشعر بالذنب وبالذات حين تفكر في خالد وفي براءته.

وتعرف أيضا أنك لا تستطيع الحياة دون بريجيت.

شعورك بالذنب صادق وحبك صادق، ولكن لا الذنب يلغى الحب ولا الحب يلغى
الذنب.

فهل تكتب ذلك أيضا؟

نعم. يجب أن يعرف كل شيء... أن يعرف وأن يفكر!... يفكر ثم يصفح، يفكر

ثم يدين، ولكن المهم أن يفكر !

المهم أن تعرف أنت كيف تكتب له.



بعد أيام زارتني بريجيت في الشقة زيارة غير متوقعة في الظهيرة.

أدهشني رنين الجرس المستمر الذي تصحبه طرقات ملحة وعندما فتحت الباب

اندفعت بريجيت إلى الداخل كالإعصار. ظلت تقف وسط الصلاة الصغيرة محتقنة

الوجه وهي تركز عينيها في وجهي ثم قالت بلهجة غاضبة :

- ما معنى هذا ؟ .. أنت الذي كنت وراء حكاية الدروس هذه؟

- أي حكاية يا بريجيت؟ .. أنا لا أفهم أى شيء.

حاولت أن أمسك بيدها وأقودها لكي تجلس فسحبت يدها في عنف وهي

تقول: هل سمعت أنى أبحث عن إحسان؟

- ولكن أنا لا أعرف عن أى شيء تتكلمين. قولى ما المسألة؟

- ومع ذلك فقد ذكر اسمك.

قلت فى شيء من الغضب - من الذى ذكر اسمي؟ اهدئى من فضلك وقولى
كلاما مفهوما بدلا من كلمات الإحسان .. وذكر اسمك. ما هى الحكاية بالضبط؟

قالت فى ببطء متعمد وهى تركز على كل كلمة من كلماتها: الأمير العربى ..
الذى يرد دروس اللغة الفرنسية.. ذكر اسمك.

سكتُ لحظة ثم قلت متشككا : أمير؟ اسمه الأمير حامد؟

- إن كنت تظن أننى سأحفظ هذه الأسماء!.. ربما. أظن هذا هو اسمه.

سبقتها إلى الجلوس على مقعد وأنا أحاول أن استوعب بسرعة ما حدث
فسألتها:

- ولكن كيف وصل إليك؟

ظلت تقف وفى عينيها نظرة اتهام وهى تقول:

- هذا ما أود أن أعرفه منك. قلت لك من قبل إن مدير الشركة..

- نعم ، نعم أنكر.. عرض عليك أن تعطى دروسا فى الفرنسية بعدما قلت
أفواج السياح. ولكن هل ذكر لك وقتها اسم الشخص الذى يريد الدروس؟

- لا ، قال إنه شخص غنى. هذا كل ما فى الأمر.

بدأت بريجيت تشك فى اتهامها لى بأننى وراء هذا الموضوع فتقدمت بخطوات
مترددة وجلست إلى جوارى وهى تسأل فى حيرة:

- ولكن إن كان يتكلم الفرنسية بطلاقة فما حاجته إلى دروس؟

- هو يتكلم الفرنسية أيضا؟

- أنت لاتعلم ذلك ؟

نفذ صبرى وقلت بصوت مرتفع: كفى!.. قلت لك إننى لا أعرف شيئا على
الإطلاق عن هذه الحكاية. لم أر هذا الأمير سوى مرة واحدة فى حياتى وحدثك

عنه يومها.

- نعم، ولهذا اعتقدت أنك ربما.. لأننى تكلمت وقتها عن الأموال التى يبذرها
وقلت إننى لا أمانع..

- لست غيبيا إلى هذا الحد يا بريجيت. أظن أنى أعرفك أفضل من ذلك. ولكن
ماذا قال لك عنى؟ أرجو أن تتذكرى فهذا مهم..

غير أن بريجيت تذكرت شيئا آخر فقالت: انتظر لحظة. إن كنت لم تحدثه عنى
فكيف عرف بعلاقتنا؟

- هو تحدث عن هذا أيضا؟

- ليس بشكل مباشر. كان يلمح هو شخص معقد ولم أستطع أن أفهمه
تماما..

أسندت بريجيت رأسها إلى ظهر المقعد وأغمضت عينيها وقالت بلهجة متعبة:

- لم أعد أطيق الحكايات المعقدة. لم أعد أطيق أى حكايات..

غير أنى توسلت إليها أن تركز قليلا وأن تذكر لى كل ما دار، وبالكاد فهمت
منها ما حدث.

عرفت منها أن الأمير انتقل من الفندق لأنها ذهبت إلى عنوان آخر أعطاه لها
مدير الشركة. قالت إنه قصر كبير في الجبل على ضفة النهر الأخرى، وإنها لم
تدخل فى حياتها قصرا بهذه الفخامة والاتساع. ظل كل فرد من الحاشية يسلمها
إلى آخر حتى وصلت فى النهاية إلى مكتب الأمير. لم تتوقع أن تجده بمثل هذا
الشباب والأناقة. بصراحة توقعته كهلا يلبس جلبابا أبيض ويغطفى رأسه بذلك
«الإيشارب» الذى لاتعرف اسمه. توقعت أنه يريد أن يتعلم بعض جمل وكلمات لى
يتصرف عندما يشتري من المحلات أو عندما يجلس فى المطاعم مثل أولئك الآلاف
الذين يزحمون المدينة فى الصيف. ولكن الأمير الذى استقبلها بتهذيب شديد
تحدث معها قليلا بالانجليزية وشرح لها أنه قرر أن يقضى وقتا فى هذا البلد الذى
يتكلم الفرنسية ولهذا فهو يريد أن يتدرب على المحاوره والكتابة. نبهها مع ذلك أنه
لايبدأ من الصفر لأنه سبق أن أخذ نورات فى الفرنسية، ولكنه غير مقتنع

بالمستوى الذى حصله..

لم يكن كل هذا يعينى فسألتها فى لهفة - ولكن ماذا قال لك عنى ؟ ماذا قال
عنا؟ هذا هو المهم.

- قلت لك إنه تحدث بطريقة ملتوية. سألتنى إن كنت مهتمة بالصحافة ولما نفيت
ذلك قال بشكل عابر ولكنى أعتقد أن لنا صديقا مشتركا يعمل بالصحافة. رددت
عليه أن صديقنا الوحيد المشترك فيما أعلم هو مدير الشركة الذى أعطاه اسمى
وأعطاه عنوانى، فقال طبعا، وهو الذى فهمت منه أنك تعرفين بعض الصحفيين هنا
ومنهم صديقى فلان. تجاهلت ذلك، وقلت إنى أفضل أن نبدأ الدرس لأن مدته
ساعة وقد فات منها بعض الوقت بالفعل. بدا عليه لحظتها شيء من الضيق ولكننا
فيما بقى من الساعة لم يخرج حديثنا عن تعليم اللغة الفرنسية. عاملته مثل أى
تلميذ. بدأت أوجه له أسئلة بالفرنسية وأتحدث معه عن قواعد اللغة فاكتشفت أنه
لايحتاج إلى أى شيء. وخطر لى أنك أنت الذى كنت وراء هذه المسألة وأن الأمير
أراد أن أعرف ذلك حين نكر اسمك فشعرت بالسخط عليك، غير أنى لم أسأل
الأمير عن أى شيء. واصلت معه الدرس حتى انتهت الساعة فشكرنى وقال إنه
سيتصل بى لنحدد موعد الدرس التالي. ودعته بون أن أرد على ذلك، ولكن
سكرتيرته التى اصطحبتنى خارج مكتبه قدمت لى ظرفا أبيض مغلقا. فتحته
أمامها فوجدت بداخله الشيك. هل تعرف ما هو المبلغ؟

- أرجو ألا يكون عشرين ألف دولار!..

فضحكت ضحكة صغيرة وقالت - بالنسبة لى هو أهم حتى من عشرين ألف
دولارا!.. كان الشيك هو مرتبى بالضبط من الشركة فى شهر كامل. أعدته إلى
الظرف ورددته إلى السكرتيرة وقلت لها أن تشكر الأمير وتبلغه أنى لا أستحق أى
أجر، لأنه إذا كان يحتاج إلى درس فلست أنا التى أصلح لذلك. هو ليس مبتدئا
والفرنسية ليست لغتى الأصلية. من يحسبنى؟

- ولكن صديقى يوسف كان سيقول مع ذلك إنك قد أعطيته درسا بالفعل!

- ومن يكون هذا أيضا؟

- لا يهم. ولكن حاولي أن تتذكرى. هل كان سؤاله هذا هو كل ما ذكره عنى؟
- نعم، لم أعطه الفرصة لشيء آخر. أردته أن يفهم أنى لا أريد الدخول معه
فى أى حديث خارج حكاية الدروس، وقد فهم. ولكن ما الذى كان يريد به بالفعل
فى رأيك؟

فكرت ثم قلت: أنت لم تسمحي له بأن يتكلم لكى يفهم. كل ما يمكن أن نخرج
به من هذه الحكاية هو أنه يريد أن يبلغنا بأنه يعرف علاقتنا.

قالت باستهانة: وما أهمية أن يعرف أو لا يعرف؟.. أنا لا أمانع أن يعرف
العالم كله أنى أحبك.. وأنت؟

- أنت تعرفين الجواب جيدا يابريجيت. تعرفين أنك أنت لى هذا العالم كله.

- وإن فما أهمية أن يبلغنا أو لا يبلغنا؟.. أتعرف ماذا أظن؟.. أحسب أنه
يريد أن يستعرض علينا ثراه لغير. أعترف لك بأن هناك شيئا جعلنى أنفر منه
من أول لحظة، جعلنى أندم على أنى وافقت أصلا على هذا الدرس. ربما هو
قصره الكبير أو تراؤه الفاحش أو محاولته أن يبدو دبلوماسيا جدا وجذابا جدا.

- هو بصراحة لا يحاول ذلك. هو بالفعل ثرى جدا ودبلوماسى وجذاب.

- ربما، ولهذا السبب لم أحبه. قلت لك من قبل إنى لا أحب العاقلين ولكنى
أفضلهم مع ذلك على الأثرياء. تخيل!.. كل هذا المكان وكل هذه الحاشية لخدمة
إنسان واحد، لماذا؟.. وهؤلاء العرب الفقراء الذين ينشرون صورهم فى المخيمات..
لماذا لايسكن فى بيت أصغر ويعطيهم الفرق؟

زفرت وأنا أقول: انتهى منذ زمن طويل هذا الكلام يابريجيت. منذ زمن طويل
جدا!

- منذ متى؟

- ربما منذ الحرب الاسبانية!.. أصبح الكلام بهذه الطريقة عارا إن لم يكن
جريمة فى هذه الأيام. إسألنى والدك.

ابتسمت بريجيت للمرة الأولى وقالت: نادرا ما نتكلم فى هذه الأشياء. أتحدث

معه فى أمور أهم. هو الآن مشغول بدراسة أصوات الطيور!

ثم التفتت نحوى وقالت: هل سامحتنى على هذا الغضب الذى لم يكن له داع؟
قلت فى حزن حقيقى: بل سامحنى أنت يابريجيت لأنى أجزُّ عليك المتاعب.
لكنها عادت تسند رأسها إلى المقعد قائلة بشيء من الدهشة:

- لماذا تطاردنى هذه الحكايات؟.. لماذا أنا؟.. أنا لا أريد شيئاً غير أن يتركنى
العالم فى حالى، هل هذا كثير؟

وبعد ذلك غابت تماماً. أمالت رأسها نحوى وهى تثبت فى وجهى حدقتها
الزرقاوين ولكنى أثق أنها لاترانى ولا تسمعنى وأنها يمكن أن تستمر على ذلك
الوضع ساعة كاملة. تضع ساقا على ساق، تسند يديها إلى المقعد، تميل برقبته
نحوى، ويظل كل ذلك ثابتا على حاله طويلا قبل أن تهز رأسها وهى تتلفت فجأة
وتسألنى: هه؟ ماذا كنت تقول؟

ولكن شيئاً كان قد حدث لى أنا أيضا. جنون آخر كان قد استبد بى مثل
جنونها. كانت لحظات الموات تلك هى اللحظات التى أبوح فيها بكل ما لا أقوله فى
صحوها، أبوح قبل كل شيء بما أخاف منه. فهمست: أعرف يابريجيت ولو لم
تنطقى أن شرحا قد حدث بيننا منذ قتلت أنا ذلك الطفل الذى صنعته أحلامك وأن
صدعا آخر قد دقه الآن ذلك الأمير. نعم، أنت لاتريدين شيئاً غير أن يترك العالم
وأنا لا أريد شيئاً غير أن تكونى أنت هذا العالم. أعرف يابريجيت أنى مجرد
صفحة فى كتاب حياتك، ولكن أنت صحفتى الأخيرة، لو طويتها فسينتهى كل
شئ، فدعى تلك الصفحة تطوى نفسها على مهل.

أنت قلت إننا نجونا بالحب، فلا تدعى العالم يهزمننا لنضيع من جديد. هل أقرأ
لك شعرا يابريجيت؟

لم يختلج لك جفن. ولكنى قمت وأحضرت ديوان نيرودا الذى أحبه وجلست
أحتضنك وأقرأ لك:

أيتها الوردة

أيتها الوردة الصغيرة
أحيانا هشة وضيئلة
أحيانا أشعر أن كفاً واحدة
تكفى لكى تحتويك
ولكن فجأة تلمس قدمى قدمك
وفمى شفقتك
فإذا بك تكبيرين
وإذا بكتفك كجبلين
وإذا صدرك يغمر صدرى
فلا تكاد يدى تحيط بخصرك الصغير، كهلال وليد
انطلقت بالحب نفسك جارفة، موج بحر
يرتطم بالسماء التى تضيئها عيناك.
فأنحنى على فمك
وأقبل الأرض.

هذه هى أنت يا بريجيت !... لم يصف نيرودا غيرك!
وكنت أهمس لك، وكنت أصرخ ، ولكن قناع وجهك المائل لم يتحرك..

الفصل العاشر

كل أطفال العالم

حيرتني معرفة ما يريدُه الأمير من بريجيت أو منى. وتذكرت أننى فى الفترة الأخيرة كنت ألاحظ هندا معينا يجلس فى المقهى حين ألتقى ببريجيت، وأننى كنت ألقاه أحيانا فى الطريق أمام البيت. ولكنى لم أهتم بذلك. قلت ربما هى مصادفة. من يههه أن يراقبنا؟

وظللت أياما بعدها أيضا أحاول الاتصال بالأمير فى الرقم الذى حصلت عليه من بريجيت، ولكن ليندا هى التى كانت ترد علىّ باستمرار لتقول إن سموه غير موجود.

ولم أفعل أيضا فى الاتصال بيوسف لأرى إن كان يعرف أخبارا عن الأمير. لم يكن موجودا بدوره فى أى وقت. وأخيرا ذهبت إلى المقهى، رغم أنى كنت أحاول تجنب اللقاء مرة أخرى بإيلين. رأيت برنار يجلس فى ركنه المعتاد وأمامه كوب البيرة، لوح لى بيده ولكن إيلين التى كانت تحمل بعض الطلبات للزبائن أشارت لى أيضا أنها تريدنى. فرغت من مهمتها بسرعة ثم تقدمت نحوى متجهمة الوجه.

قالت : معذرة، ولكن ماذا قلت ليوسف فى ذلك اليوم الذى تحدثنا فيه؟ ما الذى

جرى له ؟

- لا أفهم يا إيلين. ما الذى جرى؟ سامحيني ولكن لم تسنح الفرصة لكلمه

عن شىء يخصك. تبادلنا الحديث فقط عن موضوع الصحيفة وقلت له إننى لا أستطيع أن أشارك فى العمل فيها ...

استندت إيلين بيدها إلى إحدى الموائد وهى تتطلع فى وجهى بنظرة يوشك أن

يكون فيها اتهام، ثم أحنرت رأسها وقالت بلهجة متشككة :

- هذا كل ما حدث؟

- نعم.. «ثم قلت بعد تردد» وتبادلنا أيضا حديثا عن الأمير.

- قلت له أن يعود إليه؟

- بالعكس، ومع ذلك فأنا لا أملك أن أطلب منه أن يعود أو لا يعود. هو حر يفعل ما يشاء .

- وتقابلتما بعدها، أليس كذلك؟

- إطلاقا. أنا جئت اليوم لأراه. أحتاجه في موضوع هام بالفعل.

أفلتت منها ضحكة ساخرة وهى تقول: هام بالفعل!... اتصل به ياسيدى عند الأمير إن كنت تريده!

همت بأن تنصرف ولكنى أمسكت بيدها أستبقها وأنا أقول :

- من فضلك يا إيلين. ماذا حدث بالضبط؟.. أقسم لك إنى لم أر يوسف منذ آخر مرة جئت فيها إلى هنا. ولم يتصل هو أيضا بى. ولكنى أفهم منك أن شيئا قد حدث فما هو؟

تطلعت إيلين فى اتجاه برنار لحظة ثم عادت تنظر فى وجهى طويلا قبل أن تقول :

- أنا لا أعرف ياسيدى عن أى شىء تحدثتما أنت ويوسف فى ذلك اليوم الذى جئت فيه، ولكن بعد أن انصرفت ترك المطبخ ولزم حجرتة بقية اليوم، ثم فى الصباح قال إنه ذاهب إلى الأمير. ومن يومها لم أعد أراه تقريبا. يصحو فى الصباح ليذهب إلى الأمير ولا يرجع إلا فى آخر الليل.

ثم ضحكت ضحكتها الساخرة مرة أخرى وقالت : وهل يمكن أن تشرح لى لماذا لم يعد يخلق ذقنه؟..

غير أن أحد الزبائن ناداها فى تلك اللحظة ولوّح لى برنار مرة أخرى فذهبت نحوه. وبينما أجلس قال لى:

- هل كانت تحدثك عن يوسف ؟

- نعم، ولكننى لم أفهم أى شىء. كأنها تتهمنى.

قال باستخفاف - هى لاتفهم أى شىء.

- إذن أنت تعرف شيئاً؟

قال باللهجة نفسها : وأنا لا أفهم أى شىء. ولا أحد فى الدنيا يفهم أى شىء.

قلت لنفسى هو فى إحدى حالات مزاجه السيء. وكانت عيناه بالفعل محمرتين أكثر من العادة وهو يتجرع آخر ما فى كوبه ويشير إلى إيلين بيده أن تأتبه بكوب آخر. اعتمد ذقنه بيده وراح يتأمل صورة الفتاة السمينة التى تحمل ريشة الطائر ثم أطلق ضحكة مفاجئة قبل أن يسألنى : ما اسم ذلك الطبيب الذى نصحك أن تترك المهنة؟ أنا أيضا أريد أن أذهب إليه!

- تستطيع أن تترك المهنة نون إذن الطبيب يا برنار لو أردت .

- مع الأسف لا . المهنة قيد. هناك التأمينات وهناك المعاشات وكل هذه التعقيدات. لا تستطيع أن تغير مهنتك فى هذه السن نون سبب.

- أنت تتكلم جادا؟.. ألم تكن أنت الذى قلت مرة عندما كان إبراهيم هنا إن الصحفى يجب أن يبتعد مسافة عن عمله ؟

- أنا أقول أشياء كثيرة لا أعنيها . مثل صحيفتى بالضبط!

قلت مواسيا - ومع ذلك فصحيفتك تفعل شيئاً جيداً هذه الأيام. هى الصحيفة الوحيدة على ما أظن التى تشن حملة على استخدام إسرائيل للقنابل المحرمة لوليا ضد المدنيين فى لبنان.

أحنى رأسه ولزم الصمت.

وكانت صحيفة «التقدم» الصغيرة التى يعمل فيها برنار تصلنى فى البريد كل يوم مع الصحيفة اليومية الرئيسية فى البلد. وعادة ماكنت أكتفى بقراءة العناوين، وحتى هذه العناوين أصبحت تصيبنى بالدوار وأشعر أحيانا أن كل الداء القديم

سيرجع فأتركها مكومة على المكتب عدة أيام دون أن أنظر فيها. ولكن لفت نظري في الأيام الأخيرة أن صحيفة «التقدم» ظلت على مدى أيام تنشر احتجاجات كثير من المنظمات الإنسانية على ضرب المنازل والمستشفيات والأهداف المدنية في بيروت، وعلى استخدام إسرائيل للقنابل الفوسفورية التي تسبب حروقها آلاما رهيبا لضحاياها قبل أن تقتل، والقنابل الخداعية التي تلقى على شكل دمي ولعب لكي تقتل الأطفال، والقذائف التي تفرغ الهواء حول المباني وتقوضها على من فيها في لحظات. كانت المنظمات الإنسانية تحتج على استخدام هذه الأسلحة التي يحرمها القانون الدولي، ولم تكن الصحيفة الصباحية التي تصلني تشير من قريب أو من بعيد إلى هذه الأسلحة ولا إلى بيانات الاحتجاج عليها.

قلت لبرنار - ومع ذلك فهناك شيء ناقص في نشركم لهذه البيانات. أنتم لم تسألوا أبدا من أين تأتي هذه الأسلحة التي تستخدمها إسرائيل، لم تقولوا كلمة واحدة عن أمريكا التي تعطيلها هذه الأسلحة لكي تجربها في لبنان .

نظر إلى برنار وقال بلهجة ساخرة - وتريدنا أن نذكر أمريكا أيضا؟.. ألا تكفي رسائل الاحتجاج التي تصلنا من أصدقاء إسرائيل والتي ننشرها كل يوم؟.. هل تريد رسالة احتجاج من أمريكا نفسها؟.. تريد أن تغلق الصحيفة؟

ثم استدرك - ولو أن هذا حل جيد جدا، لو أغلقت الصحيفة.. لن أحتاج إلى شهادة طبية!

خطر في بالي شيء فسألته: أنت الذي تحرر هذه الأخبار يا برنار؟

لم يرد. ورفع كوب البيرة إلى شفثيه قبل أن يكتشف أنه فارغ فأعاده ثم قال بلهجة فخمة :

- صحيفة التقدم! أفانتي! أفانتي!.. «إلى الأمام إلى الأمام!..» ألا ترى أننا نفعل أشياء رائعة!.. نهاجم بمنتهى الشدة العنصرية في جنوب أفريقيا، وندافع بحرارة عن حقوق النساء في العالم، ونكتب مقالات تفيض عطفًا على بلاد العالم الثالث، ونحن تقدميون بالفعل! ولكن تعال، حاول مرة أن تكتب مقالا حقيقيا عن

بورنا نحن في أزمة هذا العالم الذي نذرف عليه الدموع!.. تعال، حاول أن تعطي لما يحدث في لبنان الاسم الذي يستحقه!.. إسأل كيف تكون هذه المجزرة اليومية حرباً، وكأنه يمكن أن تكون هناك حرب فعلاً بين جيش جرار يملك أحدث الطائرات ويلقى أفتك القنابل من الجو ومن البحر على مدينة يحاصرها ولا تملك طائرة واحدة ولا جيشاً ولا أسطولا. إسأل، كيف تكون حرباً أن يدافع مئات أو بضعة آلاف عن هذه المدينة بالبنادق والرشاشات أو حتى بالمدفعية والدبابات؟ أين هي الحرب في هذه المذبحة اليومية؟ إسأل!

- ألا تستطيع أن تسأل أنت ؟

قال بلهجة قاطعة - لا . لا أستطيع أن أسأل. هل رأيت أحداً في صحفنا استطاع أن يسأل؟

ولم أقل له إنني حتى في الصحف العربية لم أجد من يسأل هذا السؤال. كانوا في صحفنا أيضاً يتكلمون عن تطورات «الحرب» وعن مفاوضات «السلام»، وعن بطولة الغدائيين الصامدين في بيروت، وينشرون قصائد حرة وقصائد عمودية كأن هناك بالفعل حرباً حقيقية بين بلدين أو بين جيشين.

وضعت إيلين كوب البيرة صامتة أمام برنار وسألتني بلهجة فاترة عما أريد أن أشرب. ولما طلبت القهوة انصرفت دون كلمة. تابعها برنار ببصره وقال :

- مسكينة!.. زوجها يمر بأزمة روحية!

فقلت بمرارة : - وأنت أيضاً على ما يبدو يا برنار!.. وأنا كذلك.

قال برنار - أنا أمر بهذه الأزمة منذ أربعين عاماً على الأقل !

- أربعون عاماً !.. هل ذهبت أنت أيضاً إلى الحرب الإسبانية؟

شرد ببصره لحظة وقال - لا، كنت صبياً صغيراً وقتها، ولكن الحرب الإسبانية هي التي أتت إليّ .

نظرت إليه مستفهماً فأكمل : كان أبي عاملاً وعضواً في حزب العمال الثوري،

وأقاموا فى مدينتنا معسكرا للاجئين الاسبان من الحرب، ففتطوع أبى مع من تطوعوا للعمل فى هذا المعسكر، وكنت أذهب معه أحيانا. مازالت محفورة فى ذهنى تلك القصص التى سمعتها فى المعسكر. فظائع القتل والتعذيب التى ارتكبها الملكيون والجمهوريون على السواء. ربما يكون هذا هو السبب فى أننى لم أنضم فى حياتى إلى أى حزب، ربما يكون هو السبب فى أننى قررت عندما كبرت أن أعمل بالصحافة، قلت لنفسى قد يساعد فى شىء أن تقول الحقيقة. قد يتعلم الناس وقد يفهمون «ثم سكت لحظة وقال» تعال ! قل الحقيقة!

شرب جرعة كبيرة من الكوب الذى أمامه، ثم اندفع يقول فى شىء من الغضب – لن يمنعك أحد، فنحن بلد حرا!.. ولكن انتظر ما يجرى لك!.. ستظل طول عمرك من «التقدم» إلى «التقدم»!.. من صحيفة صغيرة إلى صحيفة أصغر. سيتحملونك ويشفقون عليك ..

ثم لوح باصبعه فى وجهى منبها – على ألا تتجاوز حدك مع ذلك!.. يجب أن تعلم أين تقف.

قلت فى حزن :

– إذن فهذا هو الحال فى الدنيا كلها !

– لا أعرف الدنيا كلها. أعرف نفسى فقط. أعرف الآمال الكبيرة التى بدأت بها وأعرف كيف انتهت. أعرف أن ابنى نفسه الذى حاولت أن أعلمه منذ الصغر كل ما عرفته عن الدنيا، الذى قلت سأريه على الحقيقة يعمل الآن تاجرا للسلاح. يبيعه للأفريقيين لكي يقتلوا بعضهم بعضا ويكدس هو مئات الألوف. لا أدري، ربما يكدس الملايين. أعرف أنى عندما حاولت أن أمنعه سخر منى وتشاجر معى. قال إنى أريده أن يصبح فاشلا مثلى! لم يكن ينقص إلا أن يصفنى بأننى أبله. لا أتلقى منه حتى بطاقة صغيرة فى عيد الميلاد!.. ومن يدري ماذا سيفعل جان – باتيست عندما يكبر ؟

ولزم الصمت من جديد. وكان حديثه قد ملأنى بالهم فأردت أن أنصرف ولكنه

عندما لاحظ أنى أهم بالقيام ، قال

- انتظر.. أنت لم تشرب قهوتك بعد.

وكانت إيلين لحظتها تضع أمامى فنجان القهوة متجهمة الوجه فقال لها برنار

بهدهوء

- هذا السيد يا إيلين لا علاقة له بما حدث لزوجك.

نظرت إيلين إليه ملياً فكرر بطريقة جازمة - لا علاقة له!

انصرفت دون كلمة وسألته فى دهشة : ما الذى جعلك تقول هذا ؟

- لأنى أعرف أنه لا علاقة لك!

ثم استرد شيئاً من حيويته وقال بضحكته المعتادة: يجب أن تكون سعيدة مع

ذلك!.. كانت تشكو دائماً من أن يوسف يشرب النبيذ منذ أن يستيقظ فى الصباح

وحتى ينام فى المساء، وهو الآن لا يذوق الخمر. تغيير روحى كبير.

سكتُ أملاً أن يكمل حديثه ولكنه قال لى :

- لا تتطلع إلى هكذا! أنا لا أعرف شيئاً عن يوسف ولا عن تغييره الروحى.

ولكنى أعرف شيئاً عن الأمير.

انتبهت تماماً عندما ذكر الأمير، ولكنه تردد لحظة قبل أن يقول : من واجبى

أن أقول لك. أعتبر نفسى مسئولاً لأننى أنا الذى قدمتك إلى يوسف وطلبت منك أن

تساعده فى العمل فى هذه الصحيفة مع هذا الأمير، وقلت لك إنه أمير تقدمى.

- وما الذى جدُّ؟ أليس بالفعل تقديمياً؟

- يتوقف هذا على ماتعنيه بالكلمة. ولكن أرجو على أى حال ألا تكرر ما

سأقوله. إن صحت مصادرى فهناك طبخة كبيرة يعدونها الآن لمنطقتكم وما

يجرى فى لبنان هو مجرد بداية. هناك إعادة ترتيب كاملة للأوراق ومفاوضات

سرية بين كل الأطراف، مفاوضات بين دول وبين أجهزة وبين منظمات وسموّه

ضلع رئيسى فيها..

قلت بعد سكتة قصيرة - لست مندهشا .

- هل كنت تعرف إذن؟

- لا ، لا أعرف أية تفاصيل وليست عندي مصادر كمصادرِكَ ولكن كانت عندي شكوكي في هذا الأمير وفي علاقاته منذ البداية وحذرت يوسف منه .

تفرس في وجهي وهو يقول : - أخطأت في ذلك يا صديقي . هؤلاء الناس لا يحبون أن يكتشف عنهم أحد أى شيء ، والأفضل إذا اكتشف أحد شيئا أن يصمت!

★★★

لم استغرب بعد ماسمعه من برنار من فشل محاولاتي في الاتصال بالأمير حامد .. غير أني أخفيت كل ماسمعه عن بريجيت . لم أذكر الأمير قط . تمنيت أن تظل على اقتناعها بأن كل ما حدث منه هو مجرد محاولة لاستعراض ثرائه . عرفت أنها لو شككت في أن هناك شيئا آخر وراء المسألة - لو عرفت أن الأمير ربما كان يجس نبضها ليصل عن طريقها إلى ما أعرفه أنا أو ليستخدمها كسلاح ضدي - فسيفتح ذلك الجروح القديمة . الجروح التي حاولت أن تداويها بالهرب إلى هذه المدينة والتي قد تهرب الآن منها . وكنت أعرف أن ما أفعله ليس فيه شيء من الأمانة وأعرف أني أناني ، ولكني لم أحتمل فكرة أن أفقدها .

ودفعني الاحساس بالخطر إلى أن أتشبث بها وأغوص أكثر فأكثر في اللوامة التي تجرفنا معا ، تحولت الموجة إلى طوفان عارم يغمر الليل والنهار معا ، وكنا نتقلب في هذا الطوفان دون أن نضيع فيه ، نندمج معا في موجة واحدة ، في قطرة واحدة لاتنفصل .

وهل كنت أنت أيضا يابريجيت تشعرين بالخطر؟ .. كنت تعطين من نفسك دون تردد ، تلج معا أفاقا لم نرتدها من قبل في لهفة محمومة لانريد أن نضيع دقيقة . وكنت أحتضنك أتحسس كل جزء من جسمك كأنني لو تركتك يدي فستسريين من

بين أصابعى، كأنى لو لم أضمك بين أحضانى فستتلاشين فجأة. أتحسسك كأن أصابعى ستخلد إلى الأبد هاتين الوجنتين حين تتضرجان بالرغبة، حين ترتسم فيهما تلك الخطوط وأنت فى قمة النشوة وكأن وجعا لا يحتمل يتخلل فرحة لا تحتمل، أتحسس الشفتين اللتين تنفرجان فى تأوه يرتعش له الجسد كله، والعنق الأبيض الطويل الذى يبرز فيه عرق واحد أزرق حين تصخب فيه دماء الحب. أتحسس كتفك الملساوين المدورين، أريد أن أثبت فى أصابعى لحظة انتفاضهما تلك لتظل حية إلى الأبد، حين ينهض صدرك شامخا مستنفرا وأنت تلهثين. أمرٌ بيدي على ذراعيك الجميلتين، على ساقيك البيضاوين الطويلتين، على هاتين القدمين الرقيقتين الناعمتين، اللتين تحملانك فوق الأرض بخفة، كجناحى حمامة بيضاء. أمر بشفتى على جبينك، أتحسس عند منبت الشعر زغبا يدغدغ كل حواسى. أقبل جفنيك وأمر بجانب يدي على تلك الرموش الطويلة الناعمة. أتأمل عينك الزرقاوين حين تنيران بلمعة الصبوة .

أريد أن أخلدك فى أصابعى وفى يدي وفى شفتى. أخشى فى قمة الحب من الفقد. أخشى ونحن قطرة واحدة فى الموج أن ننفصل.

وشعرت أنت رغم كل شيء أن هناك شيئا غيضا عادى يحدث. وقلت فى لحظة كنت أغمس فيها شفتى فى المكان الذى أحب، فى تلك الفجوة بين رقبتك وكتفك وأنا أمسد غابة شعرك الذهبى، أعطى بها وجهى، قلت فى ضحكة صغيرة وأنت تتحسسين بدورك شعرى الخشن، الذى كان ملمسه يشرك .

قلت - أصبحت شرها هذه الأيام ... ما الذى جرى لك؟

ولم أرد، كنت مخدرا بالحب ويعطر جسديك.

فانكملت ضحكك وقلت : ليس لأنى أقل شرها!... ولكنى أخاف عليك.

قلت نون أن أرفع رأسى: طيبى يقول إنى لم أكن فى أى وقت أحسن منى

الآن.

- أرايت؟ ألم أقل لك إنا نجونا بالحب؟ ومع ذلك فيجب أن نأخذ حذرنا . يجب

أن نتعقل قليلا.

وشعرت أنت بجسدى يتوتر قليلا بعد كلمتك، فرحت تربتين بيدك على ظهري
وتسألين :

- هل أغضبتك؟

- نعم !.. نقص حبك!.. تكررین كلاما كالذى يقوله العشاق قبل الانفصال!
فقلت وسط قبلات متقطعة - كم مرة قلت هذا الكلام؟.. هل يبدو على أنى
سأنفصل عنك؟.. إن أسمح لك أنت حتى أن تنفصل عنى لو أردت!.. أنت ملكى..
كنت ضائعا منى وقد وجدتك. أريدك أن تبقى ملكى طويلا. ملكى إلى الأبد.
فتمتتم وكأنى أكرر عبارة محفوظة : لو أن الزمن لا يكون!..
ولكنى لم أذكر بالضبط متى سمعت هذه العبارة.

فى خلال تلك الأيام المشحونة ، تلقيت رسالة رقيقة من رئيس التحرير فى
القاهرة.

كنت قد أرسلت إليه إيصالات المستشفى، فكتب فى رسالته إن الصحيفة
ستسدد تكاليف العلاج وتمنى لى أن أقضى فترة نقاهة مريحة، لى يعود إلى
الصحيفة قلمى «الذى يعتز به»!.. ونصحنى مرة أخرى بالآأرهق نفسى وبالأأ
أعود إلى الكتابة إلا عندما استرد عافيتى تماما. وقال إنه عمل بنصحتى فلم يبلغ
أحدا فى الصحيفة بمرضى لى لا يصل الخبر إلى الأسرة والأولاد.

أثرت فى نفسى رسالة رئيس التحرير بالفعل. كنا زميلين قديمين لم نتوطد
الصدائة بيننا أبدا لأن فكرته عن الصحافة كانت تتلخص فى أن كل سلطة فى
الحكم على حق حتى ترحل، وهو يضع قلمه فى خدمتها. لكنه كان شخصا ودودا
مع زملائه لا يتردد فى تقديم الخدمات البسيطة التى يستطيعها بحكم منصبه.
وحمدت له بالذات تلك الإجازة المفتوحة التى قدمها لى لى أسترد صحتى. فقد

أراحتنى من متابعة الصحف وكتابة الرسائل الشهرية والبحث عن الأخبار الطريفة أو عن أى أخبار أخرى.

ولكن كان من الصعب أيامها ألا أتابع ما يحدث فى لبنان. وكانت الأخبار مثل الضربات المتلاحقة على الرأس. تدمير وسط بيروت بكل أنواع القنابل، ٢٥٠ قتيلا فى غارة واحدة من قنبلة فراغية. الموافقة على ترحيل الفدائيين من لبنان.. وصول قوة أمريكية للإشراف على ترحيل الفلسطينيين.. إلخ. وكنت أتابع أيضا تطور حملة صحيفة التقدم على انتهاك إسرائيل لقوانين الحرب الدولية واستخدامها للأسلحة المحرمة. وأقرأ أيضا رسائل الاحتجاج الغاضبة التى يبعث بها أنصار إسرائيل إلى الصحيفة. وكانت أعنف رسالة قرأتها بتوقيع «أ. ف. دافيديان، رجل الأعمال» الذى كتب يقول إن الصحيفة تنزلق فى طريق خطر وإنها تروج الأكاذيب المختلفة التى تذيبها منظمة التحرير. وقال إن الحرب فى لبنان هى باختصار لطرد المخربين الذين يقتلون نساء إسرائيل وأطفالها فى الجليل. وذكر الصحيفة بأن ملايين النساء والأطفال من اليهود قد ماتوا فى معسكرات النازيين المجرمين فى أوشفيتز وبوخنفالد والمعسكرات الأخرى «فهل تريدون أن يستمر اليهود فى دفع هذه الضريبة إلى الأبد؟.. لا يحتاج الشعب اليهودى إلى دروس فى الأخلاق أو فى الإنسانية من أحد».

وقلت لنفسى بعد أن قرأت هذه الرسالة.. من يقرأ هذا الكلام ياسيد دافيديان يعتقد أنك أنت أيضا دفعت الضريبة فى أوشفيتز!.. أما أغلب ظنى فهو أنك كنت أيامها فى قصر كبير فى حى «الظاهر» فى القاهرة أو فى «ستانلى» فى الإسكندرية، تعيش عيشة المليونيرات وتفكر فى الولايم والصفقات أكثر من تفكيرك فى جرائم النازيين.

ومع ذلك فكل شىء يصلح، الحديث عن النازية والخيل العربية وهدم مباني الفقراء القديمة والتبرعات لإسرائيل. كل شىء يصلح مادمت تنتج!
موت طفل واحد هو موت للعالم كلها بالطبع، ومع ذلك فلن يسألك أحد كم طفلا

قتلوا في الجليل: خمسة أو عشرة؟.. وكم ألفا من الأطفال أبادتهم إسرائيل في لبنان ومن قبلها في فلسطين؟.. ولم لا؟.. لست وحدك!

كانت الأخبار في الصباح تتحدث عن سقوط مئات القتلى والجرحى كل يوم في المدينة المحاصرة، فينقل تليفزيون البلد في المساء احتفالا مهيبا مليئا بالمراسم الدينية وبالدروع وبالغضب لدفن أربعة جنود إسرائيليين سقطوا في «الحرب». لا يحزن العرب لقتلهم بالطبع! ولم لا؟ هناك بشر حقيقيون ويشتر لاجابة لهم على الإطلاق. وكنت قد قرأت في صحيفة «التقدم» أيضا هذا التصريح لبشير الجميل، المرشح رئيسا للبنان، وقال فيه «هناك في منطقتنا شعب لازلوم له. اسمه الشعب الفلسطيني!»

وعرفت معظم الأخبار من التليفزيون في أوقات غياب بريجيت. تابعت ابتسامات المبعوث الأمريكي إلى لبنان فيليب حبيب وتصريحاته عن نجاح خططه لوقف إطلاق النار. وحاولت ألا أفكر في أن أمريكا هي التي زودت إسرائيل بالطائرات والقنابل التي تقتل وتشعل النار، وهي نفسها التي ترسل المبعوث لوقف إطلاق النار. حاولت ألا أفكر في أنها هي القاتل وهي المعزى. وما فائدة مثل هذه الأفكار مادامت هي نفسها أيضا التي توسطت لترحيل المقاومة من لبنان؟.. مادامت قد قررت وأرسلت بالفعل تلك القوة العسكرية مع حلفائها لنفى المقاتلين الفلسطينيين من هناك ووقعنا نحن معها على ذلك وتصافحنا؟.. مادام كل شيء قد انتهى وبدأت المقاومة تخرج من لبنان؟

ولكن كاتبنا واحدا في البلد لم يطق أيامها صبرا. أخيرا فعلها برنار!

شد بصرى في ذلك الصباح عنوان العمود الذي كتبه «المعصومون» وكدت أكذب عيني منذ بدأت أقرأ العبارات الأولى في المقال: «أصاب بلدنا الحر مرض غريب هذه الأيام. أصابه الخرس فلم ينطق شيئا عن الجرائم ضد حقوق الإنسان مادامت تأتي من الدولة العبرية. يرجع صحفيون من هناك يريون أن يحكوا عن الفضائع التي رأوها لكن مايكتبونه لاينشره أحد. أليس كذلك ياعزيزى لورانس؟..»

تقول إن هناك أصواتا ترتفع على استحياء؟.. ولكن انتظرا!.. سيأتي الرد عليها فوراً في أبواب بريد القراء المفتوحة على مصاريعها في كبريات صحفنا. تلك الأصوات الشجاعة هي بالطبع معادية للسامية!

سيشبهون في وجهك مسألة أفران الغاز الهتلرية. تقول إنك لم تكن قد ولدت أيام جرائم الإبادة هذه؟.. لا يهم . أنت مسئول عنها أدبيا. فإسرائيل من المحرمات. إسرائيل معصومة لايمسها أحد!.. وكل مايفعله ذلك البلد فهو حسن . ولكنك ستقول إنه لاتوجد جرائم رديئة وجرائم حسنة. لاسيما إن كان ضحاياها من النساء والأطفال والشيوخ والمرضى على أسرة المستشفيات..

إذن فأنت يسارى متطرف مهيج وعميل لمنظمة التحرير..»

• واستمر المقال بهذه اللهجة الغاضبة ثم ذيله برنار بعبارة تحت توقيعه قال فيها «أفهم بالطبع بعد هذه الكلمة أنى معاد للسامية فلا داعى لأن يكتب أحد لكى ينبهنى إلى ذلك!»

لم أقرأ فى حياتى فى صحيفة فى البلد كلاما من هذا النوع. وقلت لابد أن أقابل برنار لأعرف منه ما الذى حدث بالضبط وما الذى قالته لورانس التى يشير إليها فى كلمته. وفكرت أن أطلبه وأحدد معه موعدا غير أنى تذكرت تجربة لقاء الممرضة النرويجية ماريان فقررت أن أوجل ذلك. وكنت قد اتخذت قرارا حاسما آخر فى تلك الأيام هو ألا أشاهد على شاشة التليفزيون خروج المقاتلين الفلسطينيين من بيروت أو أن أقرأ شيئا عن الموضوع ، ولما دخلت إسرائيل بيروت الغربية بعد مقتل بشير الجميل فلم تجد غير حفنة من كتائب «المرابطين» الناصريين يردون على المدفعية والدبابات بالبنادق قررت ألا أفتح التليفزيون على الإطلاق. قلت هذا يفوق حتى تعذيب الذات.

غير أنى لم أستطع الهرب طويلا. ففى المساء نفسه الذى قرأت فيه كلمة برنار جاءتنى المكالمة التليفونية. أيقظتنى من نوم قلق بعد الظهيرة. كان هناك صوت غير واضح يتكلم اللهجة اللبنانية.

- حضرتك الأستاذ...؟

- نعم .

- معك سامى من الصليب الأحمر اللبناني.

- أهلين .

حاولت أن أتذكر بسرعة : هل أعرفه؟

لكن سامى قال بصوت متهدج : معى صاحبك المصرى الأستاذ إبراهيم يريد

أن يتكلم معك . حاول أن تهدئه الله يرضى عليك!

قلت فى لهفة : إبراهيم

فجاءنى صوته من الطرف الآخر متحشرجا ومتقطعا : اسمع توجد جبال

من... جبال!

- إبراهيم!.. ارفع صوتك قليلا من فضلك. أنا لا أسمعك . كيف حالك؟

- ملعون حالى! قلت لك توجد جبال من الجثث. ويوجد ملايين من الذباب.

الذباب مازال يغطى عيني، وتحت جلدى رائحة الموت.. أكتب أكتب ما أقوله لك بسرعة .

فتشيت بحركة آلية على المكتب عن قلم وأوراق وأنا أهتف فى السماعه

- لا أفهمك يا إبراهيم . ماذا تريدنى أن أكتب؟ أى ذباب؟

رد إبراهيم فى صراخ غاضب. أكتب ما أقوله لك. فى صبرا تغطى جبال من

الذباب جبالا من الجثث. لا، أشطب هذا. أشطب الذباب، ما أهميته؟ لا أستطيع

أن أفكر. أنتظر لحظة.. ولكن الذباب مازال بالفعل يطن فى أذنى... أسف. ولكن

لم يعد هنا مكان أكتب فيه. بعد أن خرجت المقاومة أغلقوا صحفنا كلها. أريد أن

أقول لك ما رأيته قبل أن يضع الوقت. لابد أن تسجله. انتظر لحظة.. انتظر.

ساد الصمت لحظة قبل أن يأتى صوت سامى.

- رجوتك يا أستاذ أن تهدىء إبراهيم. حالته صعبة!.. كلنا والله حالتنا صعبة

بعد ما رأيناه فى صبرا وفى شاتيل. ولكن الأستاذ إبراهيم مريض بالسكر كما

تعرف.. يمكن أن يضيع فى أزمة لو استمر هكذا. ها أنذا أقولها أمامه بالصوت العالى، يمكن أن يضيع فى أزمة لو استمر هكذا ...

ولكن إبراهيم اختطف السماعه وجاء صوته صارما وشعرت أنه يبذل مجهودا جبارا لكى يتمالك نفسه : إسمع. لا يوجد وقت. لن أجد حتى التليفون الذى اتصل بك منه لو ضاعت هذه الفرصة. ماذا نشرؤا عندكم عما حدث فى صبرا وشاتيلا؟

- لم ينشروا شيئا، ما الذى حدث؟

صرخ - كيف؟ ولا حتى فى أوروبا؟ منذ ثلاثة أيام تدور المجازر هنا. منذ دخلت إسرائيل إلى بيروت والمجازر تدور. كيف لم ينشروا شيئا؟

أنا عائدتوا من صبرا وهناك...

ولكن إبراهيم لم يكمل . كانت هناك صفارة طويلة وانقطع الاتصال.

ظلت أصرخ فى السماعه الميتة : إبراهيم! إبراهيم!.. ماذا حدث؟

ماذا حدث؟.. جريت أفتح التليفزيون. كان هناك مسلسل «دالاس».

تركت التليفزيون وفتحت الراديو. أدت المؤشر بسرعة على المحطات . لم تكن هناك نشرة أخبار. كانت هناك موسيقى وأغان فى كل مكان. ولكن بينما أدير المؤشر بسرعة وبلا انقطاع إلى اليمين وإلى اليسار انقطع المسلسل فى التليفزيون. ظهرت مذيعة تقول بوجه جامد: وصلتنا توا رسالة خاصة من بيروت. ننصح الأشخاص الحساسين والمصابين بأمراض خطيرة بالأى يشاهدوا هذه الرسالة.

صمت . ظلام على الشاشة. دون أى مقدمات يظهر مذيع أعرفه اسمه جان - باسكال. نحيل وفى وجهه وعينيه تعبير حزن غير محدد. الآن فى عينيه غشاوة ندية من الدمع. كان يرتدى القميص والبنطلون ومن خلفه بقايا بيت مهدم. كانت شمس، وكان عرق يتفصد من جبينه. ظلت الكاميرا مسلطة على وجهه فترة قبل أن ينطق.

قال بصوت حاول أن يجعله هادئا : سيداتي وسادتي المشاهدين.. فى خلال
عشرين عاما من العمل هذه هى الرسالة التى تمنيت ألا أنقلها إليكم..
يرتعش صوته مع ذلك وهو يقول : هذه أول مرة تدخل فيها الكاميرا إلى مخيم
صبرا بعد المذابح ضد الفلسطينيين خلال الأيام الماضية..
تتجول الكاميرا بعد ذلك فى صمت. تتجول وسط أزقة ضيقة. وسط بيوت
مدمرة تبرز منها أسياخ حديد ملتوية وبقايا أثاث محطم ولكن لا مظهر لأى حياة
تتحرك. ثم تتمهل الكاميرا وهى تنقل الصور من بعيد.
أكوام من الجثث ملقاة على الأرض.
جثث وراء جثث. وجثث فوق جثث..
كومة لجثث مختلطة لرجال ونساء ملقاة على وجوهها وجنوبها وظهورها.
كومة أخرى ترتدى على ظهورها وسيقانها منفرجة، نساء وأطفال..
كومة ثالثة جثث رجال منتفخة كأن جلودها وثيابها ستنفجر فى أى لحظة..
بحيرات دم متجلط تحت الرؤوس وحول الأجساد .
جثث أخرى لرجال وأطفال يحتضنون بعضهم البعض بسواعد ملتوية..
جسد محشور يتدلى نصفه الأعلى فقط من بين الأنقاض ورأسه منكس فى
الأرض، رقبتة من الخلف مجزوزة بالعرض..
طفلتان متجاورتان، نصفهما العلوى عار.. حاول أحد أن يغطى نصفهما
السفلى بصحيفة مفتوحة فلم ينجح ، تبرز السيقان الصغيرة منفرجة.
ترتعش الكاميرا عندهما وتقترب قليلا، واحدة من الطفلتين فى مكان العينين
فجوتان تجلط فيهما الدم.
كومة جثث ممدودة الأذرع إلى جوار جدار مهدم، كأنها تتسلق بعضها
البعض.. فى الجدار ثقوب رصاص وخطوط دم بالطول.. أصابع جريحة كانت
تتشبث قبل السقوط..
جثث كأنها تسجد إلى جوار حصان أبيض يرتدى على جنبه وجرح كبير يشق

بطنه وقد انتفخ كفلاه وظل ذيله متشنجا.. إلى جواره عجوز أشيب تبرز ساقاه النحيلتان من جلباب أبيض، بجانبه عكان تمتد يده إليه وفي رأسه ثقب مدمم.
فوق الحصان ذباب كبير، وفوق الجثث ذباب كثير.
يرن التليفون مرة أخرى فلا أمد يدي إليه. أظل مسمرًا مكاني أتابع الصور على الشاشة.

تنتهي الرسالة القصيرة يقول جان - باسكال بصوته المتهدج لم نستطع أن ننقل لكم كل الصور التي شاهدناها في صبرا وفي شاتيلا. بعضها لا تحتمله عين بشر.. يقول كلاما كثيرا لا أستوعبه.

أمد يدي شاردا إلى سماعة التليفون. هو صوت إبراهيم من جديد. يقول سأملك الآن بسرعة. أخشى أن ينقطع الاتصال مرة أخرى. أكتب، في صبرا وفي شاتيلا ذبحت إسرائيل والكتائب وجيش سعد حداد آلاف الفلسطينيين...

صرخت : آلاف؟.. يوجد من هذه الصور آلاف؟

لم يسمعني إبراهيم. قال : هل تكتب؟.. معك القلم؟.. سأقول لك الوقائع واكتبها أنت بعد ذلك كما تشاء . عندما وصلت إلى صبرا كانت الجثث تصنع حواجز في أزقة المخيم الصغيرة. حواجز يجب أن تعبر فوقها إن أردت أن تمر وأن تتجول في المخيم. يجب أيضا أن تعبر رائحة الموت وسحابات الذباب. في واحد من الشوارع كانت الأرض زلقة. غاصت قدمي. كان هناك جير طرى على الأرض يغطي حفرة كبيرة. ومن هذه الحفرة كانت تبرز رؤوس مهشمة وأذرع وسيقان مسودة.

- ولكن كيف؟ كيف قتلوا كل هؤلاء؟

- بكل الأسلحة. بالرشاشات، بالبنادق، بالسكاكين، بالبلط، بالسيوف، بالخناجر، بالجرافات التي هدمت البيوت على من فيها من أحياء وأموات، بالدبابات الإسرائيلية التي كانت تدك المخيمات طول الوقت تفتح للجزائريين الطريق، بالسحل في الشوارع، ببتير الأعضاء..

سكت إبراهيم لحظة وكان يلهث. ابتعد.

قال سامى يائسا: ألا تستطيع يا أستاذ أن تهدئه؟.. هو يتجول حتى الآن بحريته ولكنى أقول لك إنه عاش بمعجزة . لولا أنه يشبه الأوروبيين ومعه تصريح مزور لقتله الإسرائيليون أو الكتائب منذ زمن. الرب يرحمنا!.. ولكن صدقه يا أستاذ. ما رأيناه هنا تهون جنبه رؤيا يوحنا! من مات فى الحرب رحمه ربه. هنيا له من مات فى الحرب!

اختطف إبراهيم السماعة مرة أخرى. وقال وهو يحاول أن يكون هادئا : هل كتبت كل ما قلته لك؟
- نعم.. تقريبا كله.

- إذن اكتب هذا . فى مدخل المخيم بيت لصاحب محطة بنزين عجوز أعرفه اسمه مقداد، ذبحوه وذبحوا كل أسرته، أولاده وبناته وأحفاده وأزواج البنات ، كلهم قتلوهم ذبحا، أحصيت بنفسى أربعين جثة فى بيت مقداد. كلهم جزروهم وبتروا أعضاعهم واغتصبوا كل النساء والبنات ثم تركوهن عرايا..
ارتفع صوت إبراهيم . لم يعد هادئا وهو يقول : رأيت زينب مقداد. كانت حاملا فى شهرها الأخير. شقوا بطنها وأخرجوا منه الجنين. مزقوا أطرافه ووضعوا ساقيه وذراعيه وجسده على شكل دائرة على صدر أمه بعد أن بتروا ثدييها، وضعوا رأس الجنين وسط الدائرة وكان الدم متجلطا وكان الدود والذباب يأكل فى الرأس المبتور..

تقيأت على الفور. خرج كل ما فى جوفى دفعة واحدة.
سمع إبراهيم سعالي وشهقاتى فأجهش بالبكاء لأول مرة.
وجاء صوت سامى فى السماعة يكرر مؤنبا: طلبت منك يا أستاذ أن تهدىء إبراهيم، فماذا فعلت؟

ومن بعيد كان صوت إبراهيم كأنه فى حلقة ذكر: لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله!
إلا الله!

وكنت أقول بصوت متحشرج وسط السعال : أستاذ سامى – أعطني ..
أعطني .. رقم التليفون .. من فضلك أعطني ..

ولكن كل الرد من الناحية الأخرى كان صفارة طويلة.

فى التليفزيون كان مسلسل دالاس مازال يدور دون صوت . فى أذنى كان
إبراهيم يتكلم وكان جان باسكال يتكلم وكنت أحاول أن أنظف الأرض والمكتب
بمنشفة وكان جرس الباب يدق بإلحاح وعندما فتحته وجدت بريجيت.

دخلت وهى تترنح وتمد يديها أمامها كالضريرة، وكانت عيناها مبيتين بالفعل
وقالت فى همس متشنج : رأيت؟ .. رأيت؟

أشارت بيدها إلى التليفزيون وقالت : كنت فى المقهى المجاور ورأيت الصور ..
رأيت؟

ثم ارتمت على صدرى وهى تكرر كلمتها : رأيت؟ .. قتلوا كل أطفال العالم!
رأيت؟

وكان جسمها كله ينتفض وهى تتكىء على كتفى.

وكنت أنا أيضا أنتفض.

★★★

الفصل الحادي عشر

صعود الجبل

سجلت كل ما قاله لى إبراهيم.

قلت أقسم أن أكتبه ، أقسم أن أكتب ولو كان هذا آخر ما أفعله فى حياتى .
ولو اضطررت أن أحمله على لافتة وأمشى به فى الشوارع .
لكن أول شىء فعلته فى الصباح كان هو أن توجهت إلى مكتب الصليب
الأحمر فى المدينة .

فكّر كثيرون مثلى ووجدت المكتب مزدحما بالعرب . وكانوا يتزاحمون حول
موظف واحد فى حجرة الاستعلامات ، وسمعت نشيجا كائين متصل يصدر من
ركن فى الغرفة يخفى الزحام مصدره . وراح المتجمعون حول الموظف الجالس
خلف مكتبه يبرزون صور نساء وأطفال وهم يحاولون جميعا أن يشرحوا له وهو
يدون فى ورقة ويصيح : الأسماء !.. الأسماء أولا !

رأيت موظفا يقف فى ركن من المكتب وحوله أشخاص آخرون يتكلمون جميعا
فى وقت واحد وبأيديهم أيضا صور وظروف مغلقة ، وظل هو يشير طوال الوقت
إلى لافتة مكتوبة بعدة لغات من بينها العربية : «الاتصالات التليفونية
والبريدية ببيروت مقطوعة. أترك استفسارك ورقم تليفونك وستتصل بك
بمجرد أن تصلنا المعلومات» .

زاحمت الآخرين حتى وصلت إلى هذا الموظف وقدمت له بطاقتى الصحفية،
رفعها وألقى عليها نظرة ، وأشك أنه فهم أى شىء وسط الضجة التى تحيط به

لأنه ردَّ إلى البطاقة واكتفى بالإشارة إلى اللافتة المعلقة ثم انصرف عنى إلى غيرى. لكنى أمسكت بذراعه وقلت له : من فضلك ! .. استمع إلى أنا صحفى وبالأمس تلقيت مكاملة من مكتبكم فى بيروت من شخص اسمه سامى ..
ولكن آخرين كانوا أيضا يجذبونه من ذراعه ويوجهون له أسئلة فيرد «حالا .. حالا..»

قلت فى يأس : أريد أن أعرف كيف أتصل بسامى فى بيروت !.. هناك زميل صحفى فى بيروت .

ردَّ على فى ببطء ليشرحنى أنه كان يتابعنى وقال ، فهمت ، ولكن أؤكد لك ياسيدى أن جميع الاتصالات ببيروت مقطوعة منذ خمسة أيام مركزنا الرئيسى يتصل بالأمم المتحدة و ... وبالجهاات الأخرى لفتح الاتصال بالمكتب من جديد. أنت صحفى وتستطيع أن تتأكد مما أقوله . أنا لا أعرف كيف اتصل بك موظفنا من هناك ، ولكن اترك اسم صديقك ورقم تليفونك ...

ثم تحول إلى غيرى وكانت هناك سيدة بدينة تربط رأسها بإيشارب مشجر تقف إلى جوارى صامته ومستندة على عكاز . سألتنى .
- ماذا قال لك يا ابنى ؟

شرحت لها فأخرجت من صدرها كيسا جلديا صغيرا فتحته وقدمت لى صورة مهترئة لوجه شاب وسيم فى العشرين من عمره تقريبا اعتنى جيدا بتشذيب شاربه وقالت :

- هذا هو ابنى ، موجود فى صبرا . إسأله الله يرضى عليك إن كانت عندهم أخبار عنه . هو الوحيد الذى عاش لى ، بقيتهم ماتوا فى الحرب ..
كررت لها ما قاله لى الموظف، ولم أملك نفسى أن أسأله : وأنت ؟ ما الذى جاء بك إلى هنا ؟ ..

أشارت إلى ساقها . لم تكن هناك ساق . قالت
- نقلونى هنا ليعالجونى ، خيبة الله على ! .. خيبة الله على إن كانوا قد حكموا على أن أعيش ويموت ولدى الباقي ..

لم تكن تبكى كانت تنظر نحوى وهى ترفع فى وجهى الصورة بيد
ترتمش وتكرر «خيبة الله على» . ثم سكتت وظلت شفتاها منفرجتين.
ولكن فى تلك اللحظة ارتفع صوت المرأة المختفية خلف الزحام وهى تقول
بصوت مبجوح فى نداء عادى ، كأنما بشيء من الدهشة لا أكثر : يا ولدى ! .. يا
كل الشباب!..

وصمت المكتب كله فجأة وتحولت الوجوه إلى الناحية التى صدر منها الصوت
وسرت قشعريرة فى بدنى حين سمعت ذلك النداء . وأحنت السيدة البدنية رأسها
وراحت تتطلع إلى الصورة وقد انطلقت دموعها الحبيسة تغمر خديها وهى تتمتم
بدورها بصوت لا يكاد يبين .

- يا ولدى !.. يا كل الشباب ! ..

أسندت ظهري إلى الحائط وقد انتابنى دوار خفيف وأنا أتطلع إلى وجهها
وإلى الوجوه الأخرى فى المكتب. ولكنى انتبهت على الفور ، مددت يدي إلى
السيدة وأسندتها حتى وصلنا إلى المكتب ، دونت اسمها وعنوان المستشفى الذى
تعالج فيه عند الموظف. وتركت اسمى واسم إبراهيم ثم غادرت المكتب.
وفى هذا اليوم والأيام التى تلتها كنت أقرأ كل ما تكتبه الصحف . قالت
إسرائيل فى البدء إنها لم تكن تعلم بما يدور فى صبرا وشاتيلا ، ولكن الصحف
العبرية نفسها سخرت من هذه الحجة البليدة فاضطر رئيس الوزراء (بيجين) أن
يقول «أغيار يقتلون أغيارا ويتهمون الإسرائيليين» !.. ألقى المسئولية كلها على
الكتائبيين . قال إنهم تسللوا إلى المخيمات من وراء ظهر إسرائيل وانتقموا من
الفلسطينيين بعد قتل زعيمهم بشير الجميل، الذى لم يعرف أحد مع ذلك من الذى
قتله . لكن هذا الادعاء لم ينفع أيضا . واضطر وزير الدفاع (شارون) أن يعترف
فى البرلمان بأنه هو الذى أدخل الكتائبيين إلى المخيمات لتطهيرها من
(المخربين). قال إنه فعل ذلك لأنه لم يرد أن يدخل جيش إسرائيل إلى المخيمات
حرصا على الأرواح البشرية ! .. كان يقصد أرواح الجنود الإسرائيليين بالطبع.
ولكنه قال إنه لم يأمر بالمذبحة ولم يسمع بها .

ولم ينطل ذلك على أحد أيضا . وظلت الحقائق عما فعلته إسرائيل تتكشف يوما بعد يوم وأسقط الارتياح مما حدث في المخيمات كل التحفظات فراحت الصحف تهاجم إسرائيل وتتهمها دون موارد . ولكن صحيفة (الوطن) الكارهة للعرب باستمرار، شذت عن ذلك وراحت تهوّن من الجريمة ومن عدد القتلى وتقول إنها جزء من الحرب المستمرة بين المسلمين والمسيحيين في لبنان ، وإنه لا داعي للمبالغة فهي ليست المجزرة الوحيدة التي جرت هناك . كان دفاعها عن إسرائيل يفوق دفاع بيجين نفسه. أما افتتاحيات الصحف الأخرى فكانت كلها تشبّه ما جرى في صبرا وشاتيلا بجرائم النازيين- وكتب (برنار) يقول في افتتاحيته إن كل الجرائم التي ارتكبتها هولوكو وأتيلاهتر في سنين ، من تفنن في القتل والحرق والاعتصاب والتعذيب نجحت إسرائيل وحلفاؤها في اختصارها في أربعين ساعة فقط.

وكنت أذهب كل يوم إلى المطار . أقام الصحفيون هناك ما يشبه مركز العمليات، وكنا ننتظر كل طائرة تأتي من دمشق أو من قبرص أو أثينا ، ننتظر أي زميل عائد من بيروت أو أي دبلوماسي أو أي شخص يمكن أن يكون قد رأى صبرا وشاتيلا بعد المذابح . نبحث عن أي إنسان سمع شيئا من شهود عيان عما جرى في كابوس الأيام الثلاثة . واختفت حتى المنافسة الصحفية التقليدية، فكان كل من يعرف خبرا أو يتصل بأي مصدر يبلغ الباقين بما عرفه. بدت وجوه الصحفيين أيامها متجهمّة ، تغالب نوعا من الإحساس بالعار ، وكاننا هم أيضا قد شاركوا في المذبحة أو كانوا مسؤولين عنها كأننا يجب أن يكفروا عن ذنبهم بأن يتكلموا أخيرا ويقولوا كل الحقيقة التي يعرفونها . وكانت الشهادات التي نستمتع إليها تكشف عن هول يتجاوز الخيال ، ولكن المراسلين قرروا بون اتفاق فيما بينهم ألا يعملوا هذه المرة حسابا لمشاعر القراء وألا يخففوا من بشاعة ما يستمعون إليه . حتى رؤساء التحرير كانوا يتركون ما يكتبه الصحفيون كما هو في أغلب الحالات .

كنت أكتب كل ما أرفه ، وأرسل في كل يوم رسالة للصحيفة في القاهرة بما

أسمعه فى البلد ، ويردود الفعل ويقوال الصحف . وبدأت أيضا أبعث لأول مرة مقالات للصحف العربية التى تصدر فى أوروبا ، ولم أكن أهتم بمتابعة ما ينشرونه منها وما لا ينشرونه . كان المهم أن أكتب أكبر كمية أستطيعها ، فلا بد أن يتسرب منها شيء فى النهاية .

والتقيت فى هذا المركز الصحفى المرتجل بأنطوان، رئيس جمعية الصداقة الفلسطينية فى البلد . كان شابا طويلا يضع حول رقبته باستمرار الشال الفلسطينى المنقّط وقال لى إنهم سينظمون بعد أيام مظاهرة فى المدينة مع بعض الأحزاب اليسارية ، وسألنى إن كان يمكن أن أساعد فى ذلك . قال إن المظاهرات التى تنظمها تلك الأحزاب لا تضم فى العادة غير عشرات من الأشخاص ، ولكنه يتمنى لو تكون المظاهرة هذه المرة كبيرة . وأشار إلى صورة يعرض صفحة فى إحدى الصحف ، صورة لكومة من جثث أطفال محترقين ومتفحمى الوجوه وسط أنقاض بيت فى شاتيلا، وقال لى بانفعال: مظاهرة كبيرة بحجم هذه الجريمة ! .. ثم استدرك : ولو أنه لو خرجت المدينة كلها فى مظاهرة فلن تكون كبيرة بما فيه الكفاية .

وعدت أنطوان أن أحاول ما يمكن عمله . ولم يكن من حقى كمراسل صحفى معتمد أن أنظم مظاهرات أو أن أقوم بنشاط سياسى داخلى فى البلد ولكنى كنت أعرف شخصا متخصصا فى ذلك .

غير أن يوسف قال لى بما يشبه التحدى : لا بد أن أسأل الأمير أولا ! ..

كنت قد اتصلت به قرب الفجر لأضمن وجوده ، وذهبت إلى المقهى قبل أن يفتح أبوابه للزبائن . فجلسنا وحدنا فى المقهى الخالى . تغير شكله كثيرا عن آخر مرة قابلته فيها بالحية الشقراء المهوشة التى تحيط بوجهه دون تنسيق ، واستقبلنى استقبالا فاترا إلى حد ما ولكنه ظل مهذبا وهو يستمع لى . قلت له إنى فهمت أن له اتصالات بأبناء الحى وربما ببعض الجمعيات يوم حدثنى عن

المظاهرة ضد دافيديان وربما يمكن أن يساعد على أن تضم المظاهرة أكبر عدد ممكن ، لكنه فاجأني بحديثه عن الأمير .

سألت يوسف : ولكن ما علاقة الأمير بذلك ؟

ظل ينظر فى وجهى ولكن جفنيه كانا يختلجان بحركة طفيفة وظلت حدقتاه تتحركان بعصبية . ثم قال ونبرة التحدى تزداد فى صوته :

- الأمير أفهمنى أشياء كثيرة يا أستاذ ، أشياء كانت غائبة عنى ..

لم أكن أريد الدخول معه فى جدل ، كنت أحتاج إلى عونه وهذا كل ما فى الأمر .

فقلت بهدوء :

- أفعلم ما تشاء واسأل الأمير أو أى إنسان آخر . لا أظن أن أحدا سيعترض على أن تشترك فى مظاهرة ضد هذه الجريمة ، أو على أن تساعد فى تنظيمها . كل العالم أفرزته المذبحة، حتى فى إسرائيل يتظاهرون ضدها إن كنت تشاهد التليفزيون ..

هز رأسه فى وقار وأشار بإصبعه فى وجهى وهو يقول :

- أرايت يا أستاذ ؟ .. حتى فى إسرائيل يتظاهرون ضدها ! .. فما معنى ذلك؟

قلت حريصا على ألا أفقد صبرى : ما معناه يا يوسف ؟

- معناه يا أستاذ أن السياسة بحر غويط ! .. إسرائيل صنعت المذبحة وإسرائيل تتظاهر ضدها فما معنى ذلك ؟ .. طبعا أنت سيد العارفين فى السياسة ، ولكن أنا على قد حالى ، أنا كنت فى غيبوبة ولكنى والحمد لله أفقت .

- أفقت على ماذا ؟ وكيف أفقت ؟

قال وهو يهز يده فى وجهى بعصبية - أفقت من الجهل ، أفقت من الضلال ! والفضل لسمو الأمير . أفهمنى أشياء كثيرة كانت غائبة عنى . هذه الدنيا يا

أستاذ غابة مليئة بالوحوش ولن ينقذنا إلا أن نصبح أقوياء . ولن نصبح أقوياء إلا إذا استخدمنا عقولنا ورجعنا إلى ديننا وإلى أصلنا ..

- ولكن إن كان الأمير يا يوسف هو الذى قال لك هذا الكلام ، فكيف يعمل سموه مع دافيديان ؟ ..

ثم تذكرت شيئاً فقلت : وماذا عن النبيذ الذى قدمه إليك يوم قابلناه ؟

ابتسم يوسف فى إشفاق وهو يهز رأسه قائلاً :

- ألم أقل لسعادتك إن السياسة بحر غويط ؟ .. فى بعض الأحيان يا أستاذ يجب أن تشتغل مع عدوك وأن تدخل فى عبء لكى تعرف سره ! الأمير يشتغل مع دافيديان ومع الجن الأزرق لكى نصل إلى غرضنا بإذن الله . ومعك حق ، سموه كان يقدم لى النبيذ عندما كنت فى الضلال ، بل هو يقدم لأعدائنا الويسكى عندما يزورونه . لكنه بعون الله لا يذوق قطرة خمر . إنما للضرورة أحكام .

ثم سكت لحظة قبل أن يقول بتأثر :

- أخذنى سموه على كفوف الراحة حتى أوصلنى إلى التوبة والحمد لله . ثم أفهمنى كيف نخدم قضيتنا ...

كانت إيلين قد دخلت المقهى فى ذلك الوقت وراحت تجول بعيداً عنا ترتب الموائد والمقاعد فقلت ليوسف بلهجة عابرة :

- وذلك الحديث الذى ذكرته لى عن إيلين فى المرة الماضية .. هل قررت شيئاً؟ رجع يوسف فى مقعده وبتأب ثم قال باستهانة :

- لا . لم يكن لحديثى هذا معنى . أيامها كنت فى الضلال . يجب أن تبقى معا - من المهم أن أحصل على جنسية البلد لكى أخدم القضية هنا براحتى (.. ثم رفع إصبعه أمام وجهى مرة أخرى وهو يقول) وإيلين أيضاً من أهل الكتاب ...

- هل الأمير حامد هو الذى قال لك هذا ؟

لم يرد يوسف فقلت وأنا أقول :

- إذن اسأل الأمير ، وإن قال لك إن المظاهرة لا تضر قضيتنا فاتصل بي ..
نهض أيضا وهو يقول :

- لا تؤاخذنى يا أستاذ . لا أستطيع أن أتصرف من عقى فى هذه المسائل
كما قلت لك . أنا إنسان على قد حالى وبحر السياسة ...
- غويط . فهمت يا يوسف .

صافحته ، وهممت بأن أنصرف ولكن بعد أن مشيت خطوتين رجعت وسألته :
- اسمع يا يوسف . هل حكيت للأمير عن الحديث الذى دار بيننا عن
دافيديان ؟

قال بنبرة التحدى الأولى وإن ظل اختلاج جفنيه :

- أنا لا أخفى شيئا عن سمو الأمير .

أردت أن أقول له شيئا ولكنى عندما رأيت وجهه ونظرته الزائغة عدلت عن ذلك
وطاف بذهنى خاطر مرعب وأنا أراه أمامى : هل سيصبح خالد هكذا ؟
وعند باب المقهى فاجأتنى إيلين التى قالت لى بما يشبه الهمس ولكن فى نوع
من الضراعة :

- أريد منك خدمة أخيرة يا سيدى .

- إن كنت أستطيع .

- أريد فقط أن تقول ليوسف إننى لا أمانع فى الطلاق سأتنازل عن أى
حقوق .

- ولكن أنا ليس لى أى تأثير عليه يا إيلين لأطلب منه ذلك ..

غير أنها لم تسمع ، أكملت بنبرتها المتوسلة :

- يمكن أيضا أن أعطيه تعويضا صغيرا لكى يدبر معيشته بعد الطلاق . أريد
أن ننفصل دون مشاكل (ثم همست بصوت مرتعش) أنا خائفة . أنا الآن أخاف
منه يا سيدى ..

كانت شفاتها ترتجفان وهى تقول ذلك وتختلس النظر نحو يوسف الذى ظل واقفا يتمطى وهو يضع يديه فى جنبيه . فقلت لها :

- لا أريد أن أكذب عليك يا إيلين . لن يستمع يوسف الآن لأى شيء أقوله له. حاولى بطريقتك .

ذهبت بعد هذه المقابلة إلى الجامعة . وكنت أعرف هناك أستاذا مصريا قدمنى لبعض الطلبة العرب ، ووجدت عندهم الحماس الذى افقدته عند يوسف ووعودنى بالاتصال بأصدقائهم من العرب ومن أبناء البلد للاشتراك فى المظاهرة. اتصلت أيضا ببعض السفارات العربية فاعتذرت جميعها بأنها لا تستطيع أن تشارك فى مظاهرات لأن ذلك يتعارض مع التقاليد الدبلوماسية وحين شرحت أنى لا أريد منهم المشاركة ، بل المساعدة بإعطائى أسماء مواطنيهم أو عناوين جمعياتهم قالوا إن ذلك أيضا ليس من اختصاصهم .

وعاملتنى بعض السفارات بشك شديد ، على أساس أننى مدسوس من خصومهم العرب الآخرين لتوريطهم فى أنشطة مشبوهة بل قال لى مستشار صحفى بشيء من التهكم : ولكن لماذا تهتم مصر بهذه المظاهرة؟ .. ألم توقع على كامب ديفيد؟

قلت له : نعم ، ولكن ماذا فعل من لم يوقعوا على كامب ديفيد ؟

فخرجت من مكتبه شبه مطرود .

غير أنى لم أدخل فى جدل معه ولا مع غيره . كنت أحاول بالفعل كل الطرق . وذات مرة سألت بريجيت إن كانت تعرف فى المدينة أعضاء من الجمعية التى يرأسها دكتور مولر، فسألتنى بدهشة : أية جمعية؟ .. نكزتها بجمعية الأطباء الدولية لحقوق الإنسان فقالت ولكن هذه الجمعية هى الدكتور مولر بالذات ! قد يكون فيها بعض أصدقائه من الأطباء فى النمسا ولكن هذا هو كل شيء . قلت ليكن . هل يمكن أن يساعدنا مولر بأى شكل ؟ هل يعرف منظمات للأطباء فى

المدينة ؟ .. هل يمكن أن يقدم شيئا لهذه المظاهرة ؟ قال لى ذات مرة إن هذه المدينة تهمه لأنها ملتقى دولى-

هزت بريجيت رأسها بالنفى بشكل قاطع قالت : مولر لا يشترك فى نشاط إلا إذا كان هو النجم -

★ ★ ★

كان صباح الأحد ، صباح المظاهرة ، مشمسا ودافئا .

وكان المفروض أن تبدأ فى العاشرة صباحا فذهبت على قدمى قبل الموعد بساعة تقريبا . قررت الشرطة منع المرور فى الشوارع المؤدية إلى الميدان الكبير الذى كان نقطة التجمع ، وفى الشوارع الأخرى التى ستخترقها المظاهرة. وحين وصلت إلى الميدان وجدته محتشدا بالفعل بالمئات ، واستمر آخرون يفنون من الشوارع الجانبية . كان معظم الموجودين من الشباب وقد أحاطوا المنصة المقامة حول تمثال الفارس بالأعلام الفلسطينية وباللافتات المكتوب عليها «كفى مذابح فى لبنان» و «بيجين وشارون قاتلان» و «كلنا مسؤولون عن صبرا وشاتيلا» و «حزب العمال يدين قتل الفلسطينيين» .. إلخ .. إلخ ورأيت كاميرات تحيط بالمنصة ، ومتصويرين يلتقطون صورا، وجنود الشرطة فى كل مكان وفى أيديهم أجهزة الاتصال الصغيرة .

قابلت فى الميدان كل من أعرفهم . كان الطلبة العرب يوزعون منشورات تضم صورا للمجازر طبعوها على نفقتهم ، ورأيت برنار قريبا من المنصة مع صحفيين آخرين، وجاءت بريجيت ومعها صديقة لها ، ولمحت يوسف الذى تقدم منى قائلا بانفعال :

- لم أر مظاهرة يمثل هذا الحجم فى المدينة . جئت معى ببعض الأصدقاء .

- شكرا يا يوسف . استأذنت الأمير ؟

تفادى الإجابة وأشار إلى ركن من الميدان قائلا : هل ترى من هناك ؟

وكان يشير إلى رصيف بعيد عن جسم المظاهرة حيث يقف بعض الأشخاص

الذين يلبسون الطاقية الإسرائيلية وقد رفعوا لافتة حوروا فيها عبارة بيجين لتصبح «عرب يقتلون عربا ويتهمون إسرائيل» كانوا أقل من عشرين شخصا وكانت الشرطة المحيطة بهم تفصل بينهم وبين بقية المظاهرة .

قلت ليوسف : لا شأن لنا بهم . هذه مظاهرتهم وهذه مظاهرتنا .

قال يوسف بحماس : ولكن يجب أن نعطيهم درسا !

- الدرس جاهز بالفعل يا يوسف انظر إلى عددهم واترك الناس تحكم . لا داعى للعصية ولا للانفعال . ولكنك لم ترد على سؤالي . هل استأذنت الأمير ؟

قال بصوت خافت وهو يشيح بوجهه عنى : نعم ، ولكن سموه لا يحب المظاهرات . يعتقد أنها تضيع الوقت وتعطل العمل للقضية .

ثم التفت نحوى بوجه بائس : قلت مع ذلك إنى لن أخسر شيئا لو أتيت . لن يعرف الأمير..

- الحقيقة هى أنك تمسق المظاهرات يا يوسف !

انصرف عنى بخطوات مسرعة . وفى تلك اللحظة اقترب منى برنار وسألنى عما قاله يوسف وعندما نقلت له ما دار قال :

- أنا أفهم الأمير . لعلمك كانت هناك جهات كثيرة تحاول منع المظاهرة ، تدخلوا عند السلطات وقالوا إنها يمكن أن تخرج عن السيطرة ويمكن أن تخل بالأمن .

- ولكن لماذا أراونا منعها ؟

- ولماذا منعوها فى بلاد كثيرة منها بلادكم العربية ؟ هم يريدون أن تموت الحكاية بالصمت كما ماتت جرائم أخرى . يريدون أن تموت الذاكرة ويموت الغضب ليستمر اللعب فى الخفاء . أفهم الأمير ، ولكنى لا أفهم يوسف . مسكين هذا الشاب .

ثم نظر إلى ساعته قائلا : ربما لا أبقى فى المظاهرة طويلا . ستبلغنى بما يحدث إن جرى هنا شىء مهم .

- بالطبع ولكن لماذا لا تريد أن تنتظر حتى النهاية ؟
قال وهو ينظر في ساعته مرة أخرى : لا أريد أن أترك جان - باتيست وحده
في البيت . معه الآن جليسة لكنها ستصرف في الظهر .
- ما زال الظهر بعيدا ، فلم أنت قلق إلى هذا الحد ؟
تلقت برنار حوله وقال هامسا : هناك أشياء غريبة تحدث منذ نشرت تلك
الكلمة التي قلت إنها أعجبتك ..

- نعم أقرأ الرسائل الغاضبة التي يكتبونها في الرد عليك في الصحيفة .
قال بلا اكتراث : دعك من هذه الرسائل . دعك أيضا من المكالمات التليفونية
والرسائل البذيئة المجهولة . كل ذلك لا يعنيني . ما يعنيني هو جان باتيست .
قلت في دهشة : جان باتيست ؟ ما علاقته بكل ذلك ؟

- هذا ما أود أن أعرفه !.. ولكنني تلقيت تحذيرا من المدرسة بأنهم شاهدوا
أشخاصا غريبا يتحدثون معه عند باب المدرسة قبل أن أصل لاصطحابه . أنت
تعلم أن المدرسين يراقبون الأطفال من بعيد ..
ثم عاد ينظر إلى ساعته بتلك الحركة الآلية .
قلت لأطمئنه : لا تبالغ يا برنار . لسنا في غابة .

- حقا، وهؤلاء الأطفال الذين يختفون وينشرون صورهم في الصحف أو
يلقونها في مكاتب البريد كيف يختفون ؟

- أنت تعرف أفضل مني أن تلك في الغالب جرائم انحرافات جنسية وليست
جرائم سياسية .

- من يدريني ؟

ثم أضاف بلهجته الساخرة : هل رأيت لماذا أحتاج إلى عنوان طبيبك ؟
واحذر أنت أيضا يا صديقي .

ولكن في تلك اللحظة بدأ صوت الميكروفون، وكان رئيس جمعية الصداقة
ال فلسطينية يقدم المتحدثين في المظاهرة . وشرح أننا بعد أن نستمع إلى

الكلمات سنتوجه إلى مجلس المدينة وإلى سفارة أمريكا لكي نقدم البيانات والمطالب التي سنتفق عليها في المظاهرة ثم قدم ممثل منظمة التحرير .
تقدم ممثل المنظمة من المنصة . كان نحيلاً يلبس نظارة طبية سميكة . وكنت أعرف عنه أنه حاصل على درجة الدكتوراه في العلوم السياسية ، وأن له آراء مستقلة لا ترضى عنها المنظمة .

قال بصوته الهادئ : تاريخ المذابح ضد شعبنا قديم ومتكرر . سأحدثكم عن مذبحه واحدة فقط وقعت في فلسطين في سنة ١٩٤٨ . أيامها كان العرب يحاربون لكي يبقوا في أرضهم وكان الإسرائيليون يقاتلون لطردهم من هذه الأرض . لكن سكان هذه القرية لم يشتركوا في القتال . أعلنوا للعرب ولليهود معا أنهم لا يريدون أن يشاركوا في الحرب ، فكافأت عصابات الإرجون الإسرائيلية سكانها المسالمين ..

هكذا بدأ ممثل المنظمة يحكى تفاصيل مذبحه دير ياسين . راح يحكى كيف أباد الإسرائيليون ثلثي سكان القرية ذبحا وطعنا فلم يبق حياً إلا من لاذ بالفرار . حكى كيف قتلوا أطفال القرية وشيوخها وبقروا بطون نساءها الحوامل وتساعل ما الذى جرى فى صبرا غير ذلك ؟ .. ومن كان رئيس عصابة الإرجون التى ارتكبت المذبحة ؟ .. أليس هو بعينه مناحيم بيجين رئيس وزراء إسرائيل هذه الأيام ؟ .. أيامها لم يكن هناك تليفزيون ينقل الصور ولم تكن هناك كتائب تكلفها إسرائيل بالعمل . أما الآن فأنتم رأيتم المجزرة وعرفتم أن من ارتكبوها كانوا يطبقون الدروس التى نفذتها إسرائيل من قبل فى دير ياسين وفى قبية وفى عين الحلوة ، وأن الهدف كان واحداً فى كل مرة : إبادة الفلسطينيين ونفيهم من أرضهم ثم من كل أرض يلجأون إليها . فماذا سيفعل العالم لووقف إبادة شعبنا؟ .. إن كنتم قد نسيتم كل المذابح السابقة أو لم تسمعوا بها فأنتم فى هذه المرة قد رأيتم بأعينكم ولا عذر لكم ..

ويعد أن تكلم ممثل المنظمة قدم أنطوان نائباً اشتراكياً وأستاذاً جامعياً من أهل البلاد . وكنت أعرفه جيداً هو أيضاً . ظل على مدى سنوات ينشر كتباً ومقالات عن استغلال الغرب وشركاته الكبيرة لبلاد العالم الثالث . كان يقول دائماً

إن البلاد الفقيرة تدفع ثمن رفاهية البلاد الغنية ويثبت ذلك بالأرقام والإحصاءات .
وعقب كل كتاب له كانت الشركات ترفع عليه قضايا ، واعتدت إن أجد في صندوق
البريد منشورات غير موقعة تطالبني بإلحاح بالآ أعيد انتخاب هذا «الخائن»
للبرلمان !

بدأ حديثه في المظاهرة أيضا بالأرقام . قال إن حوالي عشرين ألف قتيل
وخمسين ألف جريح سقطوا حتى الآن ردا على ضرب سفير إسرائيل بالنار في
لندن ولإعادة السلام للجليل . قال إن هذا يذكره بما كان يشاهده في الأفلام
الأمريكية وهو صغير ، عندما كانت حفنة من الأمريكيين تقتل على الشاشة
جحافل الهنود الحمر فيسقط هؤلاء بالعشرات والمئات وهم يطلقون صرخات
وحشية وكأنهم ليسوا بشرا ، وكأنهم يرتكبون جريمة لا تغتفر لأنهم يدافعون عن
بقائهم أحياء في أرضهم ، ولكن حين يصاب «البطل» الأمريكي الفريد بجرح قاتل
تتمهل الصورة وترتفع الموسيقى الحزينة وكأنما هي نهاية العالم قد حلت . قال
إنه يشعر بالخجل من نفسه حتى الآن لأنه كان يفرح في الأفلام لقتل الهنود . لم
يعلم إلا عندما كبر وقرأ كيف أباد البيض في أمريكا شعبا كانت له حضارته ،
وكان وقت اكتشاف أمريكا يمثل خمس سكان العالم .

وأنهى النائب كلمته بشيء من الغضب وهو يسأل : أليس ما رأيناه في الأفلام
هو ما يحدث الآن في الواقع ؟ .. ألم تعط أمريكا العرب إلى إسرائيل لكي يلعبوا
بهم هنودا حمرا ؟ .. إن قتلت منهم إسرائيل الآلاف فهم مجرد أرقام ، وإن سقط
إسرائيلي واحد فهي الكارثة والإرهاب ؟ ..

وسكت لحظة قبل أن يقول : إنها إهانة للعقل وإهانة للسلام أن تسمى
إسرائيل هذه المجزرة المتصلة وهذا الطوفان من الدم باسم «السلام للجليل» .
وفي تلك اللحظة ارتفع صوت يهتف : الموت لإسرائيل ! .. تسقط أمريكا !
كنت أعرف الصوت وإن لم أر الوجه ، كان هو يوسف . وردد وراءه الهتاف
أثنان أو ثلاثة . ولكن ممثل منظمة التحرير اختطف الميكروفون من المتحدث وقال:
لن تكون هناك هتافات . أرجوكم نريد أن نحافظ على النظام في المظاهرة وأرجو
أن تساعدونا على ذلك .

وتتابعت بعد ذلك خطب من ممثلى الأحزاب والنقابات والمنظمات وتشنج يوسف مرة أخرى بعد كلمة لأحد المتحدثين فأسكتته المحيطون به فى غضب . وأردت أن أتوجه إلى حيث يقف لأطلب منه أن يهدأ ولكن فى تلك اللحظة كان شخص يتحدث فى الميكروفون شد إليه كل الانتباه . كان رجلا طويلا عجوزا، أشيب، ناحل الشعر ولكن صوته خرج قويا لا يتناسب مع مظهره وسنه .

بدأ كلمته بعبارة : اسمى رالف وأنا صحفى وأنا يهودى وأمريكى ..

كنت أول من دخل صبيرا بعد المجزرة . دخلتها بعد آخر موجة من المذابح. التقطت صورا وسجلت ما سمعته ممن ظلوا على قيد الحياة وإن أقول لكم كل ما رأيته ولا كل ما سمعته . أنا متأكد أنكم تعرفون ما فيه الكفاية .. سأقول لكم أشياء قليلة لا غير .

أنتم سمعتم أن الكنائسيين وقوات سعد حداد وقوات مسيحية أخرى هى التى ارتكبت هذه الجرائم وأنا أقول لكم إن إسرائيل هى التى دبرت ورتبت هذه المجزرة وشاركت فيها من الألف إلى الياء وسأقدم لكم الدليل .

وبدأ رالف بعد ذلك يقدم الدليل . قال إن إسرائيل احتلت بيروت الغربية يوم الأربعاء فلم تواجه أى مقاومة تقريبا . لم يكن قد بقى أحد ليدافع عن المخيمات بعد نفى الفدائيين ، ولكنها حاصرت صبيرا وشاتيلا من جميع الجوانب بالدبابات والمدفعية . ومنذ صباح الخميس أول أيام المجزرة - بدأت تقصف بيوت المخيمين بالمدافع فسقط الكثير من القتلى والجرحى . خرج من مخيم شاتيلا وفد من المسنين يرفع الأعلام البيضاء . أرادوا أن يقولوا إن المخيمات لم يعد فيها من يحارب وهى تستسلم ويمكن للإسرائيليين أن يدخلوها دون قتال إن أرادوا . لكنهم قتلوهم على الفور. ذكر رالف أسماءهم وأكد أنهم كانوا جميعا فوق الستين. فى ذلك الوقت لم يكن بوسع أحد أن يدخل المخيمين أو أن يخرج منهما إلا من خلال الكمامشة الإسرائيلية وفى مساء الخميس أدخلوا عصابات القتلة المأجورين . قال رالف إن البعض قد يسميهم كنائسيين أو غير ذلك ، ولكنه لا يسميهم غير قتلة محترفين قبضوا الأجر ونفوا التكليف . كانت أسلحتهم إسرائيلية ، وأزياءهم إسرائيلية ، وحتى أربطة أحذيتهم إسرائيلية . وهذه

العصابات التي دخلت لم تكن أفرادا بل فرقة كاملة : ألف وخمسمائة مجرم . استمروا يذبحون ويغتصبون ويعذبون ويسلطون ثلاثة أيام متواصلة ، يخرجون ليحصلوا على الزاد والنخيرة من الإسرائيليين ثم يرجعون لاستئناف المجزرة . وفي تلك الأثناء كان الاسرائيليون يراقبون ما يجرى من فوق المباني العالية ، بالنظارات المكبرة ، يطمنون الى أن الأجراء ينفذون التكليف الذي قبضوا ثمنه . وفي الليل ، عندما قطعوا الكهرباء عن كل بيروت ، كانوا يطلقون صواريخ لإنارة المخيمات لعملائهم . بعد ذلك أعطاهم الإسرائيليون جرافات لهدم البيوت على من فيها من الأموات والأحياء ولحفر القبور الجماعية .

سكت رالف لحظة قبل أن يقول محاولا أن يسيطر على انفعاله :

— كنت قد شاهدت هذه القبور الجماعية من قبل في مخيم عين الحلوة بعد سقوطه . هدمت قوات إسرائيل بالجرافات كل بيوت ذلك المخيم ودفنت القتلى في حفر عميقة . وسمعت ممن بقى حيا في عين الحلوة أن هذه الجرافات كانت تلتقط أيضا فوق حمالاتها الحديدية المستونة مع الجثث والأنقاض بعض الجرحى الذين كانوا يصرخون أنهم أحياء ولكنهم دفنوا مع القتلى . ذلك أيضا ما حدث في صبرا وشاتيلا ، كل الفرق أنهم تركوا فيهما بعض تلك الجثث في الطريق .

ارتفع صوته قليلا وهو يقول : ولكن هل سألتم أنفسكم لماذا ؟ .. أنتم تعرفون أن كلمة الجثث هينة جدا بجانب ما رأيتموه . تعرفون أن الذين ارتكبوا المجزرة وأمروا بها أرادوا أن يجعلوا الإنسان شيئا مقرزا . كانت هناك فرق متخصصة في ذلك . تشوه الوجوه بالسكاكين وبالبلط وتسليخ جلود الضحايا وتبتر زكور الرجال وأثناء النساء وتقطع الأصابع والأيدى وتترك عامدة تلك الأعضاء المبتورة إلى جانب الجثث ، فلماذا ؟ .. حتى النازيون كانوا يحاولون إخفاء جرائمهم . فهل سألتم أنفسكم لماذا أرادت إسرائيل أن تعلن هذه الجريمة ؟

ارتفع صوت غاضب من الرصيف الآخر يقول : اسكت ! أسكت يا خائن !
ولكن رالف أكمل بون أى اضطراب : سأقول لكم . لقد تعمموا ترك هذه الجثث . لقد أرادوا أن يثيروا الفزع . أرادت إسرائيل أن تبلغ رسالة للعرب وقد

أبلغتها : أرادت أن تقول نحن نقدر دائما على مثل هذا . ما حدث في صبرا وشاتيلا يمكن أن يتكرر في غيرها . استسلموا ولا تفكروا في المقاومة .
ثم سكت مرة أخرى سكتة أطول من سابقتها والتقت نحو الرصيف الآخر قبل أن يكمل : سأقول شيئا لهذا الذى وصفنى بأننى خائن لانى يهودى ولانى أقول الحقيقة عن المذبحة التى دبرتها إسرائيل . سأقول له إن أبى أنا أيضا قد قتله هتلر فى أوشفيتز . ولكنى عندما رأيت ما حدث فى صبرا وشاتيلا عرفت أنه مات مرتين ، لأن من أبيدوا فى صبرا وشاتيلا هم أيضا ستة ملايين .

ارتفع الصوت من الركن نفسه ساخرا هذه المرة : خائن وكذاب !

واستمر رالف : سأنقل لكم أيضا ما شاهدته وما قاله لى رجل من الصليب الأحمر فى صبرا وشاتيلا . قال لى لقد صنعنا حفرة عمقها ثلاثون قدما وعرضها وطولها مائة وخمسون قدماً . رأيت هذه الحفرة بنفسى ولم تكن عميقة بما فيه الكفاية لانى رأيت جثثا تبرز من الجير الذى ردموها به . قال الرجل إنهم دفنوا ثلاثة آلاف جثة ، ولا تحسب ضمن هذا العدد من دفنتهم عصابات القتلة بالجرافات ومن قتلهم قصف إسرائيل للمخيمات ولا من اقتادوهم ليقتلوهم خارج المخيمات . كم ألفا تحسب هؤلاء ؟ .. وكم مليوناً يصبحون لو حسبتهم بالنسبة لسكان هذه المخيمات ؟

ثم التفت مرة أخرى إلى مصدر الصوت وقال أنت لا تخون إن قلت الحقيقة ، بل تخون إن لم تقلها .

وكان كل الرد على رالف زمجرة غاضبة من ذلك الركن . وكانت هى الصوت الوحيد الذى يقطع الصمت المطبق فى الميدان .
تقدم أنطوان رئيس جمعية الصداقة ليقراً المطالب التى ستقدمها المظاهرة . ولكن ممثل منظمة التحرير همس فى أذنه بشيء فقال أنطوان : ستكون هناك كلمة أخيرة :

أمسك ممثل المنظمة بالميكروفون وقال :

— سأضيف شيئا أو شيئين إلى ما قاله رالف . نعم أرادت إسرائيل أن تحقق

من الجريمة الهدف الذي نكره ، ولكنها أرادت شيئاً آخر كشفه بيجين حين قال أغيار يقتلون أغيارا - أراد بيجين أن يقول هذا هو ما يفعله العرب ببعضهم البعض : يقتلون بمثل هذه الوحشية ويمثل هذا الإهدار للأدمية . ولهذا فإن ما تفعله بهم إسرائيل مبرر تماما . لا يكفي إبعاد هؤلاء الناس عن أرضهم وإنما يجب إبادتهم. ولكننا نعرف الآن أن تلك الجريمة لم يدبرها وينفذها الأغيار، بل الاسرائيليون أنفسهم. ألم يلفت نظركم حقا أن إسرائيل التي تدافع عن نفسها بأنها هي التي تدخلت لوقف المجازر لم تقبض على واحد، مجرد واحد، من هؤلاء القتلة؟.. وهم كما سمعتم من رالف لم يكونوا مجرد أحاد، بل كانوا ألفا وخمسمائة مجرم على الأقل، فأين هم؟.. أنتم وأنا نعرف الجواب: هم تحت حماية من سلاحهم وأستأجرهم واستخدمهم. ولكننا يجب ألا نستسلم لإفلاتهم. فليكن أول مطالبنا الآن هو التحقيق في الجريمة والقبض على القتلة. لو تم ذلك فسنعرف كل الحقيقة.

وافق المتظاهرون على الاقتراح، وبدأت المظاهرة تتحرك وكان انطوان في المقدمة يهتف في مكبر الصوت بالشعار الذي تقرر، ونحن نكرره وراءه بوقفة مع كلمة «بيجين.. شارون.. قاتلان».

وظل رجال الشرطة يحيطون بالمظاهرة ويتابعون جوانبها بسياراتهم، وهي تخترق ببطء شوارع المدينة الخالية من المرور، وكان بعض المارة يتوقفون على الأرصفة يتفرجون وبعضهم يسأل عن السبب فيها،وسمعت واحدة تقول لصديقتها باستخفاف ونحن نمر بجوارها «هم عرب» فقالت صديقتها «هذا ما ظننت أنا أيضا، ولكن يوجد آخرون أيضا، تصوري!»

وكنا نمر إلى جوار أحد المقاهي الذي صف مقاعده على الرصيف في ذلك اليوم المشمس، وراح الزبائن أيضا يتطلعون إلى المظاهرة في صمت ، ولكنني فجأة رأيت شخصا يندفع من صفوف المظاهرة وهو يصرخ. رأيته يمسك بتلابيب رجل عربي يلبس جلبابا أبيض وأمامه زجاجة بيرة ثم يلقي بكوب البيرة على جلبابه.

كان هو يوسف، وجريت لأوقفه.

هب الرجل مذعورا ويوسف ما زال يقبض عليه ويسبه، يسأله كيف يشرب
البيرة ودماء الشهداء لم تجف .

ظل الرجل يتطلع إلى اليمين وإلى اليسار ممتقع الوجه وهو ينادى شخصا ما:
«رأفت .. يا رأفت» .. بينما هو يربت على كتف يوسف قائلا :

- عظيم .. عظيم يا أخ ! .. انتهينا يا بطل .. مع السلامة .. مع السلامة .. يا
بطل العرب .. يا رأفت .. يا زفت يا رأفت !

لكنه لم ينجح فى أن يبعد قبضة يوسف التى تجذب جلبابه وكنت قد وصلت
إليهما ، غير أن شرطيين كانا قد سبقانى وقبضا على ذراعى يوسف وراء ظهره..
ووصل (رأفت) الذى يناديه الرجل أيضا لحظتها من داخل المقهى وهو
يصرخ.

- ماذا حدث ؟ .. ماذا حدث ؟ .. كنت فى بورة المياه !

كان شابا مصرى الملامح مقتول العضلات.

قال له - إدفع الحساب بسرعة وهيا بنا .

لكن أحد الشرطيين كان يقول للرجل فى ببطء : نحن شاهدنا ما حدث . هذا
الشخص اعتدى عليك . ومن حقا أن تسجل شكوى ضده . نحن شهود .

التفت الرجل إلى رأفت وسأله : ماذا يقول العسكرى ؟

وحين ترجم له رأفت رفع يديه إلى رأسه كأنه يحيى الشرطى وقال لرأفت:

- قل له انى متنازل عن الشكوى. أنا مسامح الرجل. لا أريد شكوى ولا
يحزنون، هيا بنا .

وظل يجذب رأفت من ذراعه بينما كان يترجم للشرطيين ما قاله، ولكن
الشرطى قال متجهما:

- حتى لو تنازل عن الشكوى فيجب أن يحضر معنا كشاهد. هذا الشخص
ارتكب جريمة اعتداء ويجب أن يحاسب عليها.

غير أن الرجل كان مستفزاً هذه المرة بعد أن استمع إلى الترجمة. أخرج من جيبه جواز سفر أحمر وقال في غضب:

— قل للعسكري إن الشرطة لا علاقة لها بي. أنا عندي حصانة. لا أريد شكوى ولا أريد شهادة وهيا بنا من هذا المكان.

راجع الشرطى جواز السفر بدقة ثم رده بعد أن رفع يده بالتحية. وقال ليوسف زاجراً:

— أشكر سمو الأمير لأنه تنازل عن حقه، ولا تعد لمثل هذه الأعمال.

ولكن يوسف كان يقف ذاهلاً . لم ينبس بحرف .

وبعد أن انصرف الشرطيان قال رأفت للأمير:

— تحب سموك أن أؤدبه ؟

فدفعه الأمير دفعة قوية فى ظهره وهو يقول :

— إمش أنجر ! .. ساعة الجد تختفى والآن تريد أن تعمل لى فيها محمد

كلأى! .. أنجر من هنا !

وانصرف بسرعة وهو ينفخ جلبابه .

وتفرق الجمهور الذي كان يحيط للفرجة . كان منه كثير من المشتركين في

المظاهرة وكان هتاف المتظاهرين يبتعد : «بيجين .. شارون .. قاتلان» .

حين لمحنى يوسف نظر فى وجهى نظرة زائفة فقلت له بهدوء :

— ليس هذا يا يوسف هو الأمير الذى يجب أن تصفى حسابك معه.

أفاق عندما قلت له ذلك . ظل يتأملنى فترة ثم جذبنى نحوه فجأة وهمس فى

أذنى :

— إسمع . أترك هذه المدينة . الأمير لا يطيقك . الأمير يستطيع أن يفعل أى

شئ .

— ماذا قلت ؟

— لم أقل شيئاً .

تركنى وانصرف بسرعة ، وجريت أنا أيضا لألحق بالمظاهرة .

★★★

بعد المظاهرة كنا نسير صامتين ، جنبا إلى جنب، بريجيت وأنا .
حل محل الانفعالات الكثيرة المضطربة إحساس الهمود والفراغ الذى يصحب
كل نهاية .

وقادتنا أقدامنا إلى الحديقة الكبيرة فى الميدان الرئيسى التى كانت مزدحمة
بالرواد فى يوم العطلة الشمس . فى المدخل كان لاعبو الشطرنج الواقفون حول
رقعة كبيرة مرسومة على الأرض يتأملون الأفراس والطوابى وأيديهم حول نقونهم
قبل أن يتقدم لاعب لينقل القطعة التى استقر عليها رآيه بكلتا يديه . وخطر لى
للحظة أنه لو كان خالد هنا للعبنا معا فى هذه الحديقة وكان سيسعده هذا
الجمهور . ولكنى تذكرت . لا ، لم يكن هذا سيسعده . ترى هل وصله خطابى؟
سأعرف ذلك فى المكالمة المقبلة . هل سيفيد بشىء؟ .. هل سيصبح مثل يوسف؟ ..
هل مازال هناك شىء يمكن أن أفعله؟

جلسنا على أحد مقاعد الحديقة وأنا أقول:

- لم أتوقع أن تأتى للمظاهرة . أعرف رأيك فى هذه الأشياء . لكنك ظللت
تهتفين من أول المظاهرة وصمدت حتى نهايتها . كثيرون انصرفوا فى منتصف
الطريق .

قالت شاردة بصوت خافت متعب بعد كل تلك الهتافات التى أطلقتها :

- نعم ، لا سيما بعد تلك المشاجرة السخيفة عند المقهى . أظن أن ذلك
الشخص تعمد أن يفسد المظاهرة . منذ البدء كان يطلق هتافات ويحدث ضجة .
هل تعرفه؟

لم أرد عليها . كانت تلك الفكرة قد خطرت لى منذ البدء ، أن يكون يوسف ومن
معه موفدين لإفساد المظاهرة، ولكنى أردت أن استبعدها . قلت لنفسى هو ليس
شريرا .

مالت بريجيت برأسها على كتفى فمدت يدي وأحطتها بها فقالت بصوت خافت:

- شكرا .

نظرت إلى وجهها ، وكانت تبتسم وإن ظل الشرود فى عينيها وأكملت :

- أعرف أنك تخجل حين تتصرف أمام الناس كحبيبين ولكنى اليوم أحتاج إليك ..

ثم تذكرت شيئا آخر فقالت : ولو أنى لم أغير رأى . من يتعذب يتعذب وحده ومن يموت يموت وحده . لن تعيد مظاهرتنا الحياة لأى واحد مات فى بيروت . هل تعرف من قابلت اليوم ؟ بيدرو إيبانيز!

- وماذا جرى له ؟

قالت بلهجة متحيرة :

- هذا ما أود أن أعرفه . كان غريبا وتجاهلنى تقريبا حين تحدثت إليه . كنت أخاف أن يقتله العمل الشاق فى دنيا العمل السرى ولكن يبدو أن ما حدث له أسوأ من ذلك . لماذا لم يتركه مولر فى حاله؟.. فى كندا ، فى النمسا ، فى بلده ، فى أى مكان ..

- ماذا حدث له ؟

ولكن فى تلك اللحظة كانت طفلة فى حوالى الخامسة تلبس فستانا أحمر تتقدم من بريجيت وسألتها برزانة :

- كم الساعة ياسيدتى ؟

أشارت بريجيت إلى معصمها وهى تقول : ليس معى ساعة مع الأسف ..

ثم التفتت نحوى فقلت : الثانية والرابع .

أرادت الفتاة أن تنصرف ولكن بريجيت قالت لها وهى تفتش فى حقيبتها :

لماذا تسألين عن الساعة ؟

- وعدت ماما أن أرجع فى الثانية والنصف.

- إذن مازال هناك وقت . وبما أنك بنت عاقلة وتحترمين مواعيدك فسأعطيك هدية صغيرة . خذى . اشترى ما تشائين بهذا المبلغ قبل أن ترجعى إلى ماما .

قدمت إلى البنت عملة معدنية صغيرة ، فبدت فى وجهها السعادة وشبت على قدميها ، ثم قبلت بريجيت فى خدها بتلقائية قبل أن تجرى عائدة إلى مجموعة الأطفال الذين كانت تلعب معهم .

تابعتها بريجيت ببصرها ثم راحت تنقل بصرها بين الأشجار . وكانت أمامنا شجرتان عاليتان توهمت أوراقهما باللون الأحمر القانى وظلتا مميزتين وسط الأشجار الأخرى التى وشاها الخريف بالصفرة . أطلقت ضحكة خافتة وهى تصعد ببصرها مع الشجرة وقالت:

- ومع ذلك فسيوحشنى عشاق الارتفاعات!

تعودت منذ زمن طويل على انتقالاتها المفاجئة فلم أعد أسألها عن شىء . عرفت أنها ستحكى ما خطر لها من تلقاء نفسها .

قالت بشىء من الحيرة : لا أعرف لماذا هم دائما أسويون . (ثم ترددت لحظة) لا . يوجد أيضا من جنسيات أخرى ولكنهم قلة .

ثم سكنت وعادت إلى الشرود . فقلت

- من هم هؤلاء يا بريجيت؟

هزت رأسها وكأنها تفيق وقالت : ماذا؟ .. عن أى شىء تسأل؟

- كنت تتحدثين عن عشاق الارتفاعات . من هم؟

عادت تضحك من جديد نون روح وهى تقول : أه ، هؤلاء؟ .. ألم أقل لك إنهم كانوا يظهرون فى كل فوج سياحى؟ أتى بهم إلى هنا أحيانا ، وأحدثهم عن هاتين الشجرتين اللتين نقلوهما من أمريكا . أحكى لهم التاريخ وكيف أمكن بعد تجارب كثيرة أن تنجح زراعة الشجرتين فيفاجئوننى بالسؤال عن ارتفاعهما . يدونون ذلك بكل دقة فى مفكرات صغيرة يحملونها . يكتبون أيضا ارتفاع برج الكاتدرائية .

كل شيء عال يستوقفهم وكأنهم مكلفون بحساب الارتفاعات فى العالم . هل تعرف السبب؟

كانت عيناها متسعيتين بالدهشة وكأنها تسألنى عن لغز عصى . فابتسمت وأنا أقول لها : لا . لا أعرف يا بريجيت . ولكن لماذا سيوحشونك؟ .. اليابانيون لا يتوقفون بعد الصيف مثل الآخرين . يأتون هنا على مدار السنة .

فكرت ورأى - نعم ، يأتون على مدار السنة .. ثم قامت فجأة وهى تقول :
هيا بنا ننصرف . أنا جائعة .. هل عندك فى البيت شيء نأكله ؟

- هناك أشياء فى الثلاجة .

- هيا بنا إذن . اليوم سأعدُّ لك غداء خاصا .



قبل أن نصعد إلى الشقة فتحت صندوق البريد ، الذى تراكمت فيه رسائل عدة أيام .

لم يكن هناك غير الصحف ورسائل الإعلانات ، ولكنى وجدت أيضا رسالة من القاهرة عليها طوابع حكومية داخل ظرف صغير مثل خطابات مصلحة الضرائب التى كنت أتلقها فى القاهرة .

أمازالت هذه المصلحة تتذكرنى بعد كل تلك السنين فى الغربية؟

عندما ذهبت بريجيت إلى المطبخ لترى ما يمكن أن تعده للغداء ، وضعت الصحف جانبا وفتحت الخطاب . قرأته وأنا واقف ، ثم أعدت قراءته . خيل إلى أننى لم أفهم .

كانت نصف صفحة من ورقة صفراء خشنة مملوءة بالأختام وبالتوقيعات تعلوها عبارة «رئيس مجلس الإدارة» وتحتها السيد فلان ثم «نظرا لما قرره مجلس الإدارة من ضرورة خفض النفقات تنفيذا لتوجيهات السيد ... فقد تقرر إلغاء وظيفة المراسل الصحفى فى مدينة ... على أن يتم تنفيذ هذا القرار خلال شهر من تاريخه. توقيع، عن رئيس مجلس الإدارة».

- غير صحيح !

وتلك الرسالة الرقيقة التي بعث بها رئيس التحرير منذ أيام؟ الرسالة التي لم تشر من قريب أو بعيد إلى قرارات التتشف؟

ظهرت بريجيت عند المدخل وسألتني ماذا هناك؟

فقلت : غير صحيح !

ولكني عندما نقلت لها الخبر ، ابتسمت ابتسامة حزينة وقالت :

- بل صحيح جداً !

- كيف ؟ أنا أقول لك هناك غلطة !.. هل تعرفين أنت أخبار القاهرة

أفضل مني؟

هزت رأسها بالنفي وقالت : لا .. لا أعرف أخبار القاهرة، ولكن أعرف الأخبار

هنا .

قلت في ذهول : ماذا تعرفين عن الأخبار هنا؟.. وما علاقتها بهذه الرسالة؟

تقدمت مني بهدوء وقالت :

- منذ أيام قال لي المدير إنه لم يعد يستطيع استبقائي في الشركة ، لأن

الشرطة سألته عن تصريح العمل. نصحني أيضا ألا أبحث عن عمل آخر في

المدينة لأنه سيكون هناك باستمرار من يسأل عن تصريح العمل . قال لي كل

الحقيقة كأخر دليل على الصداقة . كأخر نصيحة .

- ولكن لماذا ؟

وضعت يدها على كتفي وأشارت باليد الأخرى إلى الخطاب المفتوح وقالت وهي

تكاد تصرخ :

- حاول أن تفكر!

ثم صرخت بالفعل وهي تدفن وجهها في كتفي.

- هذا عالم ماسياس وسمو الأمير! لا فائدة!

★ ★ ★

لم يكن صعبا أن أفهم ولكنى حاولت أن أقطع كل شك . فشلت مرات كثيرة فى الاتصال برئيس التحرير الذى كان أيضا رئيسا لمجلس الإدارة ، وأدركت أنه يتهرب من الحديث معى وعندما نجحت فى الاتصال به أخيراً ، كانت لهجته مليئة بالاعتذار وهو يكرر «ليس بيدي .. ليس بيدي أقسم لك» . ولكنه رفض أن يقول لى بيد من . قال إنه يمكن أن يبذل مجهودا ليجدد لى شهرا آخر حتى استكمل علاجى .

ولم يكن يعينى كثيرا أن أبقى فى المدينة شهرا آخر .

كانت بريجيت تدبر نفسها للرحيل . قررت أن تعود إلى النمسا لتبقى فترة مع أبيها قبل أن ترى ما يمكن أن تفعله .

انتهى كل شىء ولم يعد بيدك ، أنت ، ما يمكن أن تفعله . لم يبسط كثيرًا ذلك اليوم .

خشيت نهايته فجاءت أسرع مما توقعت . ظللت تحارب هواجسك وأنت تتخيل تلك النهاية : ستهجرك بريجيت !... ستجد شابا من سنها ، شخصا من بلدها ، يحب الرقص كما تحب هى ، ويحب مثلها تسلق الجبال والتزلج على الجليد وتلك الأشياء التى كانت تذكرها عرضا فى حديثها معك والتى لا تعرف أنت عنها شيئا . هل ستصحو ذات يوم فتجد منها رسالة وداع ، أو تجدها قد اختفت دون وداع؟ هل تأتى النهاية حين تسقط أنت مرة أخرى بعد أن تتمرد تلك الشرايين التالفة ، فلا تكون صحوة أخرى ولا شفاء آخر؟

هل تأتى النهاية دون صخب على الإطلاق؟ ينوى الحب وتقتله العادة والسأم؟ كل شىء تخيلته فى لحظات الرعب من أن تختفى بريجيت من حياتك . كل شىء غير أن ينهى العالم ، كما قالت هى ذات مرة ، ما بينك وبينها . غير أن ينقض ذلك السيف من المجهول فيبتترنى منها .

كانت هناك صبارة جف فيها كل شىء غير أشواكها المشرعة التى تخز لحمها العجوز ، صبارة لا تموت ولا تحيا ، مددت لها يدك فبعثت أوراقها الميتة

لتكون شجرة من أشجارك الوارفة التى تحبينها، تفرعت فيها الأغصان ونبئت الأزهار، وها هو ذلك السيف يبتز الأغصان كلها دفعة واحد، لكى يعرّى مرة أخرى الصبارة والأشواك .

لكى ترجع العيون المفتوحة فى الليل تحرق فى الظلمة .

ذلك ما يحدث - فصارع إذن تلك الخيل التى تداهك ، صارعها وحيدا أو معك الصبر أو دون الصبر . أرنى ما يمكن أن تفعله .

ها هى بريجيت هناك - تحبك كما أحببتك فى البدء - تشعر برعشة يديها بين يديك مثلما شعرت بها فى أول يوم، تقرأ فى عينها ذلك العشق الأول، ثابتا مثلما كان، وها أنت حتى الآن مازالت طفلا أبديا فى قلب الحب الطفل، حين تحتويها يسقط عنك فجأة ثقل السنين وثقل الهموم وتطفو خفيفا فى نشوة الحب التى لا تنتهى . فحاول إذن أن تقبض على ذلك الأثير الذى سبحت فيه لحظة البعث القصيرة تلك . حاول منعه من أنه يتبدد أو أن يتلاشى .

قل لها فلنعش فى مدينة أخرى . فلنحاول أن نعمل بعيدا عن هنا، فستقول لك سئمت الهرب، و(هم) فى كل مكان .

قل لها فلنتزوج فستقول لك أشباحنا كثيرة وستطاردنا أينما نكون . نحن أقصى مانستطيعه هو ما صنعناه بالفعل : أننا اختلسنا من الزمن لحظاتنا تلك . قل ما سئمت . فسترجع الصبارة، والرمال التى شربت النبع تتحول تحت أقدامك حجارة صلبة مدبية .

ضع فى الظلمة خططا وحلولا فسيبيدها النهار .

إركع . إبك . توسل . أرنى ما تستطيع، فها هى الليلة الأخيرة تآتى .

ها أنتما فى عصر يوم - كعصر ذلك اليوم الذى دخلت فيه تلك الشقة أول مرة، ولكن الستائر مسدلة والغرفة معتمة .

الغرفة خالية لم يبق فيها شىء .

ترقدان معا على الأرض الخشنة . تحيطها بذراعك وتحيطك بذراعها ، صامتين

هامدين بعد أن حملتكما الموجة لآخر مرة .

تهمس لك بعد فترة :

- يمكنك ألا تأتى غدا . أستطيع أن أذهب وحدى .

- أعرف . لكنى سأتى .

تهمسين : هل تعرف من جاء ليودعنى اليوم؟

- مدير الشركة؟

- لا . كان المدير لطيفا مع ذلك وكان كريما . اشتري الأشياء القليلة التى تستحق الشراء فى الشقة .

- إذن جاء ليودعك؟

- جاء فى الصباح .. دخل من الشرفة .. لم يكن قد بقى فى الشقة غير ما تراه . تلك المائدة الصغيرة والمقعدان ..

- من دخل من الشرفة يا بريجيت؟

- .. دخل ثم شقشق بتحية الصباح . ظل يحرق فى الغرفة، أعجبه صدى

رفيف جناحيه فى الغرفة الفارغة فظل يدور ويدور وأنا أقف دون حركة . فى

مكانى هنا جنب الشرفة لكى لا أزعبه ، وأخيراً حط على المائدة وراح ينظر نحوى

فى صمت وشقشق مرتين بصوت خافت . فهمت رسالته وقلت إنى أشكره، فظل

يدور ببصره فى الغرفة لليمين ولليسار ، وأخيراً رفع ساقه النحيلة وهرش بها

رأسه . فتش فى رأسه عن شىء آخر يقوله لى لكنه لم يجد . فدار مرة أخرى فى

الغرفة ثم اندفع للخارج، لمسنى جناحه وهو يخرج . هل مات صديقك إبراهيم؟

نهضت بجذعى فجأة وأنا أهتف - لا ! لماذا تقولين ذلك؟

ظلت تثبت عينيها فى وجهى وقالت دون أن تتحرك - أنا أسألك هذا كل شىء.

لست ساحرة ولا عرافة ، ولكنى مع ذلك رأيت موتا فى عينيها فى أول مرة قابلته

فيها . كان يجذبنى وكان يخيفنى . احتجت مرة أن أشرب كثيرا، أن أفقد وعيى

لكى أتخلص من مطاردته وأنجو من سحره ، ولكن كان هو الذى تخلص من

سحرى . أنت تعرف ما كان بيننا، أليس كذلك ؟

- نعم ، أعرف، ولكن لم قلت هذا الآن؟ يعذبني أنى لا أعرف شيئا عنه .

- قلت لك أنا لست عرافة وأنا أيضا لا أعرف شيئا عنه.

- وهل أحببته.

- أبدا . كان مملتنا بالدنيا .

ثم مدت ذراعها وجذبتني لأرقد مرة أخرى إلى جوارها.

قالت : أنت الذى أحببت . أحببت صممتك وأحببت ثرثرتك وأحببت ما لم تقله

بالصمت ولا بالثرثرة .

اقتربت منى . التصقت بى وقالت وهى تتحسس وجهى بأناملها: أحببت أن

أشاهد نفسى أنتغير معك، أحببت أن أراك تفقد السنين لتكون لى وأكسب السنين

لأكون لك . كانت هناك واحدة لم تضع منها الفرحة وحدها، بل ضاع منها حتى

الحزن والألم. واحدة شاهدت نفسها تتلاشى . وحين وجدتك استردت نفسها ثم

أصبحت أكبر وأكبر ..

ثم قلت فى همسك باستسلام كامل وأنت تمسدين شعرى :

- والآن ها هى مرة أخرى تتلاشى .

غمغمت فى يأس : ولكن لا بد أنه توجد طريقة.

فكرت ورائى : بالطبع لا بد وأنه توجد طريقة .

ثم نزلت بأصابعها على فمى وقالت : ولكن لا تسألنى ..

ثم نهضت ومالت بجذعها فوقى . انحنى بوجهها فوق وجهى . صنع شعرها

خيمة أحاطتنى وصنع عطرها هالة أحاطتنى وبسطت نراعيها جناحين حولى،

وحلقنا معا، مرة أخرى . مرة أخيرة.



عندما ذهبى فى ظهر اليوم التالى لأصحابها بالسيارة إلى المطار كانت

تنتظرنى أمام الباب بمعطف المطر وقبعة سوداء فوق رأسها وقد تركت شعرها

الطويل ينسدل على ظهرها . ورأيت وأنا أضع الحقيبة خلف السيارة مائدتها الصغيرة والمقعدين فى كومة أمام المدخل .

قالت عندما تحركت السيارة : مازال الموعد مبكرا . لا أحب الانتظار طويلا فى المطار . فلنتجول قليلا .

- إلى أين تحبين أن نذهب ؟

- إلى أى مكان . أحببت هذه المدينة الصغيرة . قلت لنفسى هنا سأنسى العالم وسينسانى العالم ..

لكنها غيرت رأيها فورا : لا . لا داعى لذلك . لا أحب أن تكون آخر مرة أراها فى هذا الجو الغائم . هى مدينة حزينة جدا تحت هذا السحاب .

- هناك غابة جميلة فى طريق المطار إن أحببت أن تبقى هناك لحظة ..

- لا . ولا حتى هذا . عندما تاتى النهاية يحسن ألا تطيل فيها .

- كما تشائين .

لزمت الصمت .. لم يعد عندى شىء أقوله . لم أعد أنا . رأيت نفسى ، مثلها ، منذ مدة أتلاشى . لم تغب عنى أنا أيضا الفرحة وحدها ، بل غاب حتى الحزن والألم .

أسندت بريجيت رأسها إلى مقعد السيارة وقالت:

- إذن فأين السلام يا صديقى؟

فقلت بون وعى - أن ننام ، أن نحلم .

اعتدلت فى مقعدها فجأة وهتفت : أنت قلت!

- ماذا قلت؟

- أن ننام ، أن نحلم! .. ألم تكن تسأل عن طريقة؟ .. ها أنت أحببت! وبالنوم

ننهي ضنى القلب وآلاف الفواجع التى هبىء لها الجسد . ذلك هو الكدح الذى

بقلبك تبتغيه! ألم يكن هذا هو الشعر الذى تفكر فيه؟

- نعم.

- تلك هي السكينة التامة!.. أنت قلت فلا تتردد. لأنه في الواقع يا صديقي، حتى بدون هذا الشعور من يحتمل هذه الدنيا؟.. من يحتمل غطرسة المتكبرين والطفافة والأمراء وآلام الحب المخنول والانتظار الطويل واستحالة العدل وهزيمة الرقة أمام الوحشية وكل تلك الأثانية وكل ذلك الظلم من يحتمل هذه الدنيا؟ أنت قلت!

نزعتم حزام الأمان لمقعدها فجأة وهي تكرر في لهاث تقريبا:

- نعم، نعم، أن تنام، أن نموت. ثم إنه ليس من الضروري أن يكون ذلك بالخنجر!.. أأست معي؟

ثم مدت يدها، ثم مالت بجسمها كله نحوى وراححت تدفع مقود السيارة إلى حافة الطريق المرتفع وأنا أصرخ: لا! لا يا بريجيت.. ليس الآن.. ليس هكذا.. لا!

وكانت هي تتابع باقتناع كامل - لماذا لا؟ لماذا يا صديقي؟.. هل تستمتع بالفعل بهذه الدنيا الكلبة؟ ما الذى تريده منها؟

وكانت تضغط بقدمها على قدمى وأنا أحاول أن أدفعها بعيدا عنى بكتفى أحاول أن أدفعها بعيدا بجسمى وكانت السيارة تندفع إلى أن وصلت بالفعل إلى طرف الطريق فجذبت فرامل اليد قبل أن تنزلق من الحافة.

وتوقفت السيارة فى صرير عنيف وهي ترتج.

وكنت أنحنى على مقود السيارة وأنا ألهث وسمعتها تقول مبهورة الأنفاس بصوت خافت:

- أرايت؟. أنت لست مستعدا بعد!

★ ★ ★

رفضت بريجيت أن أودعها .. أخذت حقيبتها أمام المطار ورجتني ألا أدخل معها. قالت أكره مواقف الوداع.

قبلتني في وجنتي قبله خاطفة. قبله صديق لصديق عابر قبل أن تستدير وتتجه إلى الباب الزجاجي بسرعة . لم أكن أستطيع حتى أن أبقى لحظة لأراقبها قبل أن تختفي.. كانت أبواب السيارات أمام المطار تستحثني أن أخلى الطريق . انتهت وانتهى كل شيء .

ولكن بينما أقود السيارة قلت هناك شيء أخير يجب مع ذلك أن أفعله في هذه المدينة . حساب أخير يجب أن أصفيه.



عبرت الجسر الطويل وبخلت ضفة النهر الأخرى.

نادرا ما جئت هذا الحى وقليل ما أعرفه . سعدت في الطرق الجبلية ولكن كل الشوارع كانت تتقاطع ، وكانت كلها متشابهة.

أوقفت السيارة ورحت أراجع الخريطة التي معي وأفتش عن موضع العنوان الذي حصلت عليه.

تفتت حولي ولم أجد أحدا أسأله. لا يتجول الناس على أقدامهم في هذا الحى. لم يكن هناك شيء غير أسوار القصور العالية تطل منها قمم أشجار التنوب المخروطية الخضراء.

وكان غيم وكانت عتمة.

تركت السيارة وبونت اسم الشارع الذي وقفت فيه . وأخذت معي الخريطة وقلت سأبدأ من هذه النقطة.

سرت والخريطة في يدي، وكان الطريق يصعد في الجبل، فبدأت ألتهث وأبطأت خطواتي.

شعرت بالتعب فجلست على جذع شجرة مقطوع وكنت من مكاني أطل على المدينة في ضفة النهر الأخرى. ولكن ضبابا كثيفا كان يغلف المدينة فبدت مبانيها كتلا رمادية متباعدة. بدت شبعا لمدينة. وجاءتني وأنا أنظر إلى المدينة تلك العبارة التي تطاردني منذ مدة: سيمر الزمن وسينأى بعدنا من يعرف لم تعذبنا .

سينسون وجوهنا وأصواتنا ولكنهم لن ينسوا عذابنا. لا . لم يقل تشيخوف ذلك .
قال عبارة أجمل بكثير كان فيها حديث عن السعادة . ولكن هل سيذكرنا حقيقة
أحد؟.. هل ستذكرني هنادى؟.. هل سيلد عذابنا تلك السعادة؟.. بأية معجزة؟
قمت بعد أن استرحت قليلا .
صعود آخر .

لافتات صغيرة بأسماء الشوارع، أرقام الفيلات والقصور، ولكن لا توجد
لافتات بأسماء ساكنيها .

عطر زهور نفاذ وأشجار عطرها يكاد يخدرنى .

كنت مخدرا بدونها . كان رأسى يدور من جهد الصعود المستمر .

ولكن، بناء على الخريطة، هذا هو المكان.. قالت هو قصر كبير، لكنى لا أرى
شيئا غير السور العالى والبوابة الحديدية ومن ورائها الأشجار يخترقها ممر
مستقيم أمام البوابة، لكنه يدور ويختفى بعدها .

لا أرى شيئا من ذلك القصر . ولكن هناك على الأقل لافتة بجوار البوابة
الحديدية . نعم .

أحاول أن أقرأ . كانت الحروف كبيرة ولكنى مع ذلك لم أستطع أن أقرأ بسهولة
من الزغلة فى العينين وعممة الضباب . اقتربت كثيرا . لم يكن هناك أيضا أسم
لساكن القصر . كانت العبارة تقول: احترس . كلاب شرسة! وتحتها اضغط على
الجرس، وتكلم فى البوق . عندما ضغطت على الجرس جاء نى بعد فترة عبر مكبر
الصوت صوت عميق هندى اللكنة .

- من هناك؟

- أنا .. أريد أن أقابل الأمير حامد .

- هل هناك موعد؟

ترددت لحظة ثم قلت: نعم .

- انتظر لحظة من فضلك.

غاب طويلا ثم جاء صوت ليندا:

- هل أنت متأكد أن هناك موعدا مع سمو الأمير؟

- قال لى إن بيته هو بيتى. قال أستطيع أن أتى فى أى وقت.

- انتظر لحظة من فضلك.

غابت أيضا فترة طويلة. لم يرجع صوتها، بل جاء الصوت الهندى:

- سمو الأمير يقول إنه ليس هناك موعد. وأنه لا يريد أن يستقبل أحدا اليوم.

- أبلغه مع ذلك أن هناك شيئا مهما أريد أن أقوله له. شيئا يهم الأمير كثيرا.

فى هذه المرة رجع بعد الصمت الطويل صوت ليندا. بدا كأنها تقرأ من ورقة

مكتوبة لأنها رددت بصوت رتيب:

- سموه يكرر أنه لا يريد أن يقابل أحدا. سموه لا يريد أن يسمع منك شيئا.

يقول إنك تضايقه وهو لا يحب من يضايقه. سموه يسأل: لم لا ترحل من هنا

بسرعة مثلما رحلت صديقتك؟

- إذن قولى له إننى ..

ولكن الصوت انقطع من الهاتف وبدأ النباح فجأة. نباح شرس كعواء متصل

يقترّب من البوابة، ثم حشد من كلاب ناصعة البياض، طويلة السيقان، طويلة

الأنياب، تصك بمخالبها البوابة الحديدية وتكشف أنيابها وهى تزمجر وتحذجنى

بعيون نارية شريرة وهى تتواثب وتعوى .

ابتعدت عن البوابة ولكن الزمجرة الوحشية كانت تتصاعد وتتصاعد، يجارها

نباح من القصور الأخرى. تعاونت كل كلاب الحى لطرده الغربى ولاحقنى نباحها

وأنا أهبط من طريق لأصعد فى طريق آخر.

ها هو الأمر إذن. لا شىء غير نباح الكلاب. لن تصفى حسابك مع الأمير، لن

تصفى الحساب مع الكلاب. لن تصفيه مع الحجاب . نعم، يا صديقى أفهم أن

يردني الحجاب ولكن ماذا عن الكلاب؟ لن تصفى مع العالم أى حساب. كل شيء ينتهى. أنت وبريجيت. أنت وإبراهيم وبريجيت. أنت وإبراهيم وبريجيت وإيلين ويوسف. أنت وخالد ومنار. كل شيء ينتهى. فماذا تنتظر؟ لماذا لم تطع بريجيت عندما حانت اللحظة؟.. أن تكونا معا إلى الأبد بعيدا عن العالم، بعيدا عن الأمير، بعيدا عن الحرب التى لا تستطيع أن توقفها، عن الدماء التى لم ترقها ولكنك تفوض فيها. لماذا لم تواتك الشجاعة؟.. لماذا لم تكن مستعدا؟..

مرة أخرى تلك الشوارع التى تصعد وتهبط. مرة أخرى أفقد الطريق. فقدته من زمن طويل. أمسكت الخريطة ورفعتها. قربتها إلى عيني. كانت خطوطاً متعرجة تتقنها نقط سوداء. لم أر شيئاً.

الضباب الآن ستار يحجب كل شيء. ستار من نقط ندية منمنمة تتموج ومن خلفها تترجرج القصور والأشجار.

أهبط، لا أستطيع الآن أن أصدق. إنس الخريطة وانس السيارة وأتبع فقط كل الطرق التى تهبط فى اتجاه النهر. إهبط باستمرار!.. أخيراً أصل حديقة صغيرة على شاطئ النهر. حديقة مهجورة وسط الضباب والبرد. ولكنى أجلس لامها. النهر أمامى يمر ساكن من الرصاص والمدينة كتلة رمادية من نقط رجراجة..

لكن صوتاً يخترق الصمت، صوتاً مقررراً من البرد... شبح يتدثر بمعطف يجلس إلى جوارى ويسألنى بصوت مرتعش:

- هل تريد؟

- نعم أريد.

- ماذا تريد؟

- أن أفهم. من أكثر من خمسين سنة أحاول أن أفهم. حاول الطفل وحاول الرجل ورجع الطفل ومات الرجل وكله بون فائدة. مائة سنة لا تكفى.

- تريد بخمسين أو تريد بمائة. أسرع!.. الشرطة بعيدا ليست...

اتضححت اللكنة الأجنبية واللغة المكسورة وقلت لنفسى أنا أعرف هذا الصوت،

أنا سمعت هذا الصوت من قبل.
- أسرع، حشيش مغربي أو أفغانى؟.. بخمسين أو بمائة؟.. أسرع الشرطة بعيدا ليست ، الصنف معى . تعال معى...
أدرت وجهى ولم أره. كان الوجه يترجرج أيضا ... رأيت وجهها من نقط منمنمة له حاجبان كثان تحت طاقيه الرأس فقلت بصوت ضعيف - بيدرو..!
ولكن هل هو بيدرو بالفعل؟
قبل أن أكمل الاسم كان قد قام وجرى . اختفى.
هتفت فخرج صوتى ضعيفا: انتظرا!.. انتظرا!
رجع مرة أخرى.
رجع بخطوات بطيئة . وكنت أنا أنزلق على المقعد . رغبتى لا تقاوم فى أن أتمدد عليه .
رفعت عيني ولكنه لم يكن بيدرو. كان شرطيا، وكان يتحول هو أيضا إلى نقط منمنمة، راحت تتموج، وراحت تصغر وراحت تغيب.
وكان الصوت يأتى من بعيد.. ياسيد ياسيد .. هل أنت بخير؟
لم أكن متعبا . كنت أنزلق فى بحر هادىء .. تحملنى على ظهري موجة ناعمة وصوت ناى عذب.
وقلت لنفسى: أهذه هى النهاية؟ ما أجملها! وكان الصوت يأتى من بعيد .
كان الصوت يكرر ياسيدا!.. يا سيدا!.. ولكنه راح يخفت وراح صوت الناى يعلو.
وكانت الموجة تحملنى بعيدا .
تترجرج فى بطء وتهدهدنى.. والناى يصحبنى بنغمته الشجية الطويلة إلى السلام وإلى السكينة .

تمت

بهاء ظاهر
جنيف - ١٩٩٥

كلمة ختامية

●● هذه رواية ، أساسها الخيال . ولكن هناك مع ذلك أشياء حقيقية .

فى الفصل الأول : قصة تعذيب بيدرو ايبانيز ومصرع شقيقه فريدى فى شيلى . الاسمان حقيقيان والوقائع حقيقية مع شىء من التصرف .

فى الفصل السادس : شهادة الممرضة النرويجية عما حدث فى عين الحلوة شهادة حقيقية ، وهى مزيج من أقوال منشورة وحوار شخصى أجراه المؤلف معها . وقد غيرت اسمها الحقيقى .

فى الفصل العاشر : المقال المنسوب الى برنار ، الشخصية الروائية . نص لمقال حقيقى .

وفى الفصل الأخير : شهادة الصحفى الأمريكى رالف حقيقية ، الاسم حقيقى ، والوقائع حقيقية . هذا ، ودم الشهداء .

بهاء ظاهر